الثقافة النفسية المتخصصة

العدد الثالث والستون - المجلد السادس عشر - تموز/ يوليو 2005

ملف العدد

الهجرة وأمراضها النفسية

- تفسير نفسي اجتماعي لأحداث أبو غريب
- تأثير ضغوط الحرب في مذاكرة الطلاب الجامعيين
- التحليل النفسي وحركة الثقافة المعاصرة / بول ريكور
- فاعلية برنامج علاجي سلوكي - معرفي في خفض حدة أعراض الاكتئاب
- مكتبة العدد / السعادة الشخصية - المجلة الالكترونية للعلوم النفسية - مصالح الأبدان والأنفس - عروض مختصرة

مركز الدراسات النفسية والنفسية - الجسدية
Center d'Etudes Psychiques et Psycho Somatique C.E.P.S
طرابلس - لبنان- شارع عزمي - بناية قاديشا ص.ب 3062 - التل
تلفون: 961-6-441805
فاكس: 961-6-438925
E.mail: ceps50@hotmail.com

الثقافة النفسية المتخصصة

WWW.psyinterdisc.com

Psychologie Interdisciplinaire

Interdisciplinary Psychology

السمنة وعلاجها النفسي

د. محمد احمد السيسي

المعلوماتية والعلوم النفسية

د. جميل التركي

سيكوفيزيولوجية الالم

سيكولوجية اطفال الانتفاضة

جماعة من الباحثين

ازمات المراهقة

أ.د. انور الجراية

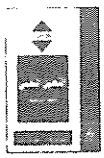

شروط النشر
الهيئة الاستشارية
مؤتمرات المجلة
ملفات المجلة
سجل الموقع

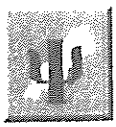
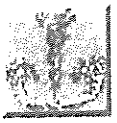
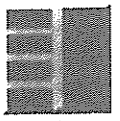
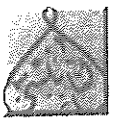

الصفحة التالية

مركز الدراسات النفسية والنفسية - الجسدية
Center d'Etudes Psychiques et Psycho Somatique C.E.P.S

الثقافة النفسية المتخصصة

رئيس التحرير
محمد أحمد النابلسي

INTERDISCIPLINAR PSYCHOLOGY
Editor in chief: Naboulsi.M (M.D.PH.D)

PSYCHOLOGIE INTERDISCIPLINAIRE
Chef Editeur: Naboulsi M. (M.D. ph D.)

إن الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كتابها، وهي لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.

يرجى مراجعة شروط النشر المنشورة في صفحة مستقلة.

تعطى أفضلية النشر وفق خطة التحرير وبحسب المحاور المحددة مسبقاً.

توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير على عنوان المركز المبين أدناه.

طرابلس لبنان شارع عزمي بناية قاديشا
P.O .BOX: 3026 - Tal
تلفون: 961-6-441805
فاكس: 961-6-438925

E-mail: ceps50@hotmail.com

سكرتاريا التحرير

حسن الصديق عبد القادر الأسمر

هيئة التحرير

روز ماري شاهين سلمى المصري دملج

سامر رضوان جليل شكور

الهيئة الاستشارية

أحمد عبد الخالق جامعة الكويت، كلية الآداب.
أحمد أبو العزايم رئيس الاتحاد العالمي للصحة النفسية.
اسامة الراضي مجمع الراضي للطب النفسي.
الزابيث موسون عضو شرف في محافل عالمية.
أثير الجراية مستشفى الهادي شاكر للطب النفسي.
بشير الرشيدي رئيس مجلس أمناء مكتب الإنماء الاجتماعي.
جمال التركي استشاري الطب النفسي / بريطانيا.
جيمي بيشاي مشفى المحاربين القدماء / الولايات المتحدة.
على وطفة كلية التربية. جامعة دمشق.
صفاء الأعسر مركز دراسات الطفولة / عين الشمس.
طلعت منصور جامعة عين شمس / كلية التربية.
عادل الأشول جامعة الكويت / كلية التربية.
فتيبة شلبي الولايات المتحدة.
زايد الحارثي جامعة أم القرى / السعودية.
عبد الستار إبراهيم جامعة الملك فهد / الظهران.
عبد الفتاح دويدار جامعة الإسكندرية.
عبد العزيز الشخص جامعة عين شمس / كلية التربية.
عبد الرزاق الحمد جامعة الملك سعود / كلية الطب.
عبد المجيد الخليدي جامعة عدن / كلية الطب.
عدنان التكريتي رئيس تحرير المجلة العربية للطب النفسي.
علي زيعور الجامعة اللبنانية / كلية الآداب.
فاروق السنديوني جامعة واغا واغا / استراليا.
فرج عبد القادر طه عضو المجمع العلمي المصري.
فيصل الزراد مستشفى الطب النفسي / أبو ظبي.
قدري حنفي قسم الدراسات الإنسانية / عين شمس.
محمد حمدي الحجار أستاذ الطب النفسي السلوكي / سوريا.
محمد الطيب عميد كلية التربية / جامعة طنطا.

قيمة الاشتراك السنوي

الأفراد ٤٠ دولاراً أميركياً - للمؤسسات ١٠٠ دولار أميركي- ثمن النسخة عشرة دولارات أميركية، او ما يعادلها - الاشتراك الشامل للمجلة وإصدارات المركز كافة ١٥٠ دولاراً أميركياً

قواعد نشر البحوث
في مجلة الثقافة النفسية المتخصصة

تعمل مجلة الثقافة النفسية المتخصصة على تقديم أفضل مستوى ممكن من الإحاطة بمستجدات الاختصاص في فروع العلوم النفسية كافة، محاولة بذلك الاستجابة لحاجات المتخصصين والمهتمين، خصوصاً بعد تداخل تطبيقات الاختصاص مع مختلف فروع العلوم الإنسانية. وذلك من خلال إطلاع القارئ على اتجاهات البحوث العالمية، وتعريفه بأخبار ومستجدات هذه البحوث عبر بعض الترجمات المفيدة. أما بالنسبة للبحوث العربية، فإن المجلة تسعى لتقديم فرصة عرض الدراسات والبحوث الرصينة والمسايرة للمستجدات وللحاجات الفعلية لمجتمعنا العربي.

وصفحات هذه المجلة مفتوحة أمام كل الباحثين العرب. وهي ترحب بمساهماتهم الملتزمة بشروط النشر التي حددتها الهيئة الاستشارية، وهيئة التحرير على الشكل التالي:

قواعد عامة

1 - الالتزام بالقواعد العلمية في كتابة البحث.

2 - أن يكون البحث مطبوعاً ومراجعاً من قبل كتابه.

3 - أن لا يكون البحث قد سبق نشره أو عرضه.

4 - أن يقدم الباحث إقراراً بعدم إرساله إلى جهة أخرى.

5 - أن لا يزيد عدد صفحات البحث عن 20 صفحة.

6 - كتابة العناوين وسط السطر والعناوين الفرعية على الجانب الأيمن.

7 - إرسال نسخة واحدة من البحث مع الديسك.

8 - السيرة العلمية المختصرة بالنسبة للكتاب الذين لم يسبق لهم النشر في المجلة.

قواعد خاصة

1 - كتابة عنوان البحث واسم الباحث ولقبه العلمي والجهة التي تعمل لديها على صفحة الغلاف.

2 - يراعى في إعداد قائمة المراجع ما يلي:

تسجيل أسماء المؤلفين والمترجمين، متبوعة بسنة النشر بين قوسين، ثم بعنوان المصدر، ثم مكان النشر، ثم اسم الناشر.

3 - تخضع الأعمال المعروضة للنشر للتحكيم العلمي السري وفقاً للنظام المعتمد في المجلة، ويبلغ الباحث في حال وجود اقتراحات تعديل من قبل المحكمين.

4 - توجه جميع المراسلات الخاصة بالنشر إلى رئيس التحرير.

5 - الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كتابها ووجهات نظرهم.

6 - تلتزم المجلة بإبلاغ الباحث عن قرار النشر، وهي لا تعيد الأبحاث المرفوضة لأصحابها.

7 - لا تدفع المجلة مكافآت مالية عن البحوث التي تنشرها.

المحتويات

عزيزي القارئ..... 7

قضية حيوية / صناعة التفكير العلمي / قدري حفني..... 9

علم النفس حول العالم..... 13

الصدمة النفسية / تفسير نفسي — اجتماعي لأحداث (أبو غريب) 19

علم نفس الحروب والكوارث / تأثير ضغوط الحرب في مذاكرة الطلاب الجامعيين / مصطفى عشوي..... 28

بحث / التحليل النفسي وحركة الثقافة المعاصرة / بول ريكور..... 45

مناقشات جامعية / فاعلية برنامج علاجي سلوكي — معرفي في خفض حدة أعراض الاكتئاب..... 75

الندوات والمؤتمرات..... 79

مكتبة العدد..... 93

السعادة الشخصية

مصالح الأبدان والأنفس

المجلة الإلكترونية للعلوم النفسية

عروض مختصرة

ملف العدد..... 105

الهجرة وأمراضها النفسية

سليم عنابي — أنور الجراية — محمد بسباس — جمال التركي

إصدارات مركز الدراسات النفسية

طرابلس – لبنان ص.ب 3062 التل/فاكس 438925-6-961 هاتف 441805-6-961

1- **سيكولوجية السياسة الإسرائيلية -النفس المغلولة**

إصدار 2001 (عشرة دولارات)

2- **سيكولوجية السياسة العربية -العرب والمستقبليات**

إصدار 1999 (عشرة دولارات)

3- **العلاج النفسي للأسرى وضحايا العدوان**

إصدار 2001 (عشرة دولارات)

4- **الصدمة النفسية -علم نفس الحروب والكوارث**

(ستة دولارات)

5- **الثقافة النفسية المتخصصة**

(مجلة فصلية)

- *اشتراك سنوي 40$*
- *اشتراك شامل 100$*
- *اشتراك مؤسسات 100$*
- *اشتراك مدى الحياة 500$*
- *مجلة عام سابق 40$*
- *اشتراك إعلاني (يتفق عليه)*

6- **أصول الفحص النفسي ومبادئه**

ط3 (عشرة دولارات)

7- **قراءات مختلفة للشخصية -تحليل لشخصيات**

نجيب محفوظ. (ستة دولارات)

8- **المعجم النفيس**

مصطلحات طبية ونفسية وعصبية

(ذياب والجراية وعمار) (أربعون دولار)

9- **الدليل النفسي العربي**

(عشرة دولارات)

10- **معجم مصطلحات الطب النفسي**

(عشرة دولارات)

عـزيـزي القـــارئ

يغلبنا الخجل والحياء واختصاصنا مقصر عن تلبية الحاجات الاجتماعية العربية لدعم مستوى اللياقة النفسية في هذا الزمن العربي المضطرب. وعليه يطرح زميلنا البروفسور قدري حفني قضية صناعة التفكير العلمي لتكون القضية الحيوية لهذا العدد، فهو يرى أن تفعيل البحث العلمي يمر بالاعتراف به، وتحويله إلى بضاعة محترمة ومطلوبة، بما يشجع مراكز البحث العلمي العربي ويدعمها. وهي خطوة على طريق تفعيل العلوم الإنسانية في وطننا العربي.

في الإطار عينه، يقدم البروفسور عبد الستار إبراهيم في فرع الصدمة النفسية: قراءة سيكولوجية لأحداث (أبو غريب) مع تحليل لعينة من الجنود الأميركيين في علاقتهم مع الأسرى العرب. حيث صدمة التعامل مع الحضارة الغربية مهيمنة على وعي الجمهور العربي بوطأة الممارسات الوحشية في غوانتانامو و(أبو غريب) وغيرها. أما الزميل مصطفى عشوي، فيعرض في فرع علم نفس الحروب والكوارث لآثار ضغوط الحرب في مذاكرة الطلاب الجامعيين، وهو وجه من وجوه الاضطراب النفسي المرافق للتعرض للكوارث الاصطناعية وتهديداتها المحددة المصدر والعدو.

هذا ويشترك الأساتذة الزملاء: سليم عنابي وأنور الجراية ومحمد بسباس وجمال التركي في دراسة تتعلق بالأمراض النفسية للمهاجر العربي. والهجرة إحدى آفاتنا النفس – اجتماعية المتفاقمة مع تردي أوضاعنا ومستويات اللياقة النفسية في مجتمعاتنا.

على أن هذه الأجواء العربية الملبدة لم تمنع بعض مؤسساتنا من عقد مؤتمراتها وندواتها النفسية. وهو ما يعرض له العدد في باب الندوات والمؤتمرات. في حين تعرض مكتبة العدد لكتب: ' السعادة الشخصية ' وكتاب: ' مصالح الأبدان والأنفس ' ومجلة ' الشبكة العربية للعلوم النفسية ' بالإضافة إلى بعض العروض المختصرة.

ويتضمن العدد أخيراً بحثاً حول التحليل النفسي والثقافة المعاصرة بقلم المحلل بول ريكور، حيث نفعية الثقافة المعاصرة ترضي غريزة الكسب العدوانية.

على أمل أن يسهم هذا العدد بقدر يسير مما هو مطلوب من اختصاصنا وأن يخفض من حرجنا بسبب التقصير نطلب من القراء الأعزاء إبداء الرأي والمساهمة حول هذه المحاور. وإلى العدد القادم...

أسرة التحرير

التحليل النفسي للرئيس الأميركي
وودرو ولسون

المؤلف: سيغموند فرويد.

تعريب وتقديم: محمد أحمد النابلسي.

الناشر: مركز الدراسات النفسية 2003

يبدو الفرق شاسعا بين سلوك الرئيس ولسون والرئيس ووكر بوش. لكن التحليل النفسي يربط السلوك بثنائية العواطف. بحيث يمكن للشخصية اعتماد السلوك أو عكسه بسبب هذه الثنائية.

إن قراءة تحليل فرويد لشخصية ولسون تبين تقاربها مع شخصية ووكر بوش. ولهذه المقاربة أهميتها في زمن الفوضى الأميركية الراهن.

لقد دخل ولسون بأميركا وحيدا إلى المسرح الدولي. وكان دخوله ضعيفا. وها هو بوش يخرجها من هذا المسرح مدفوعا بسيطرة من صقوره. ويبدو الخروج عنيفا ودمويا.

قراءة تحليل ولسون مفيدة لفهم زمن ووكر.بوش الغامض.

وها هو الكتاب...

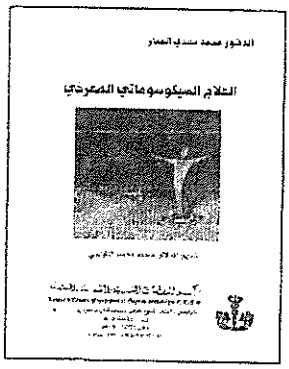

الدكتور محمد حمدي الحجار
العلاج السيكوسوماتي المعرفي

تقديم الدكتور محمد أحمد نابلسي

مركز الدراسات النفسية- 2004

أهمية هذا الكتاب أنه جمع خلاصة التجربة العيادية لمؤلفه الذي يضمنه حالات عيادية ومقالات نظرية تصلح لأن تكون دليلا للمعالج النفسي في مجال العلاج المعرفي. كما يصلح الكتاب للراغبين في الاستفادة من هذه النظرية للتخلص من معاناتهم النفسية المزمنة و/أو الراهنة، من مواقف نفسية كانت عصية على الهضم الفكري والذكروي. وفي هذه الحالات تسيطر ذكريات هذه المواقف على سلوك الشخص وردود فعله، فتصيب وعيه بالكدر، وتعيق فهمه لحقائق الأشياء، فيتحول موقفه إلى التوقع، ويفقد القدرة على الانتظار، ومعها القدرة على استيعاب الجديد وإمكانيات تطوير ردود فعله، وتجاوز أزماته، خاصة وأن النفسي يمكنه أن يتمازج مع الجسدي في هذه الأزمات وردود الفعل. وهي وضعية تربك الأطباء العضويين وتدفعهم لإدراج هذه الحالات في إطار الحالات غير الشخصية عضويا، حيث لا يفوت المؤلف التركيز على الرابط النفسي والجسدي الذي يقوده لمناقشة المواضيع السيكوسوماتية، حيث الشدة النفسية تؤثر على جهاز المناعة فتفتح الأبواب أمام الأمراض المناعية المختلفة. كما يمكن للاكتئاب أن يلبس قناع الشكاوى الجسدية دون إهمال إمكانية ارتباط الاكتئاب بأسباب عضوية، مما يقتضي عدم الفصل بين النفسي والجسدي في تشخيص وعلاج الاضطرابات النفسية والجسدية.

صناعة التفكير العلمي[1]

قدري حفني
kadrymh@yahoo.com

كان موضوع 'أنماط القادة وأساليب القيادة' ضمن الدروس الأولى التي تلقيناها على أساتذتنا في علم النفس الاجتماعي. وكان على رأس أنماط القادة الذين درسناهم 'القائد الملهم' الذي لا يعتمد في اتخاذه قراراته إلا على بصيرته الثاقبة، وذكائه الفذ، ومعرفته الشاملة. وارتبط ذلك النمط تاريخياً بأسلوب القيادة الديكتاتورية.

وتغير العالم، وتشابكت مشاكله، ولم يعد في مقدور قائد، كائناً ما كانت عبقريته، أن يزعم أنه قد أحاط بكل شيء، علماً بأن العبقرية الفردية لم تعد العلامة المميزة لمن يحصلون على جوائز نوبل في الفيزياء مثلاً. وتكفي المقارنة بين فريق الباحثين الذين أشاد زويل بمساهمتهم في تحقيق إنجازه العلمي. وإينشتاين الذي حصل على الجائزة نفسها، نتيجة جهد فردي، وإن كان البعض قد أصبحوا يشككون في مدى فردية هذا الجهد.

لقد انتهي عصر ذلك العبقري الذي يفكر وحيداً، و ينجز منفرداً، ليحظى وحده بالمجد كله، وأصبح قادة العالم يتفاخرون، ولو على سبيل الادعاء باعتمادهم على فرق تضم العديد من 'المستشارين' في مناحي المعرفة كافة، التي يتطلبها ترشيد قراراتهم. لقد اختفت عبارة قصص ألف ليلة 'دبرني يا وزير' ليحل محلها 'على أهل الاختصاص تزويدي بالبدائل'.

أذكر أن أول دروس تلقيتها في علم النفس العام كانت على يد العالم الجليل أستاذنا الراحل يوسف مراد. في بداية إحدى محاضراته رفعت يدي لأسأله عن أمر يتصل بمحاضرته السابقة، فصمت قليلاً، ثم طلب مني إعادة السؤال، وأمسك بقلمه، وسجل السؤال في ورقة أمامه، ثم سألني عن اسمي وكتبه قرين السؤال، وقال لي سوف أرد على سؤالك في المحاضرة القادمة. وبدأ محاضرته فبدا لي الأمر غريباً. لقد ألفت خلال دراستي في المرحلة الثانوية أن أجد الإجابة الفورية عند المدرس، فما بال هذا الأستاذ يطلب مهلة للإجابة على سؤال عارض لتلميذ ما زال يحبو على طريق علم النفس. واستهل الدكتور مراد محاضرته التالية بأن ناداني، فوقفت لأسمع منه الإجابة على سؤالي البسيط بعد إشارة منه إلى المصدر الذي رجع إليه. و تعلمت أن رجل العلم الحق هو من يسلم بأنه لا يعرف كل شيء، و لا يجد غضاضة في قولة 'لا أعرف'.

---

[1] " صناعة التفكير العلمي" المصري اليوم، 30 أيار/مايو 2005

و لم ألبث أن التقيت في قاعة المحاضرة أيضاً بأول من تلقيت عليه دروس الأنثروبولوجيا لتصدمني عبارة له مؤداها أن رجل العلم الحق هو ذلك الذي يوقن أن ما يجهله أكثر مما يعرفه، وأن ذلك المجهول قابل للمعرفة العلمية، و كان أستاذنا الدكتور علي عيسى يلخص الأمر في عبارة موجزة: كلما ازداد المرء علماً ازداد جهلاً، وازداد يقيناً بضرورة و إمكانية المعرفة.

و رسخ لدي الدرس حين قرأت في أسس المنهج العلمي، و تاريخ تطور العلوم، لأكتشف أن أول قواعد العلم هي التعرف على مناطق الجهل وأن المرء يظل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أن علمه إكتمل فقد جهل. وأن أولى خطوات البحث العلمي الصحيح هي بلورة سؤال لا نعرف الإجابة عليه.

و أنظر إلى عالم اليوم من حولنا، فتزداد الصورة وضوحاً، حيث انحسرت صورة الحاكم الفقيه الفيلسوف الحكيم الأديب، ولم يعد لها وجود عند من هم أكثر حضارة و تقدماً. وبقيت تلك الصورة البالية تتمسك بالحياة حيث الجهل والتخلف. الحاكم العصري هو ذلك المحاط بالعديد من المستشارين الذين تتعدد تخصصاتهم. وكذلك الحال في مجال المشتغلين بالعلم، فلم نعد نرى في العالم المتقدم من يجرؤ على الزعم بأنه يعرف كل شيء، حتى في مجال علمه المتخصص أو الذي يبدو له متخصصاً. لقد اختفت، أو كادت، صورة العالم، أو المكتشف العبقري الملهم الذي ينجز اكتشافه العلمي من ألفه إلى يائه منفرداً دون اعتماد على أحد.

لقد أصبحنا نشهد في عالم اليوم ما يمكن أن نطلق عليه وبحق 'مؤسسات صناعة الأفكار'، و هي صناعة بكل معنى الكلمة، صناعة لها مؤسساتها، وينحصر مجال عملها الأساسي والوحيد في إنتاج الأفكار وصياغة البدائل. قد تتعدد مسميات تلك المؤسسات بين مراكز البحوث الاستراتيجية، أو بنوك التفكير، أو مراكز دراسات الرأي العام، أو مراكز البحوث المستقبلية، ولكنها تبقى في النهاية من أبرز الأشكال المعاصرة للصناعات الأساسية الثقيلة: صناعة الأفكار. و أصبحت تلك المؤسسات تتجاوز الآلاف في عالم اليوم.

وتكاد تلك الصناعة أن تحتل ذيل قائمة الاهتمامات في بلادنا، سواء من حيث ندرة مؤسساتها، أو من حيث انكماش سوقها بمعنى قلة الطلب عليها، حيث ما زلنا في ما يبدو أسرى مقولة أن التفكير عملية تلقائية ذاتية، وأن النمط الأمثل للقيادة هو ذلك القائد العبقري الذي لا يحتاج للاعتماد على مثل تلك الصناعة، صناعة التفكير.

و لذلك ينبغي أن ينتابنا الفزع حين نرصد في بلادنا تنامي الميل إلى الفتوى دون تخصص، أو حتى علم بالموضوع المطروح، حتى أصبح المرء يأنف من التصريح بأنه ليس من أهل الاختصاص في موضوع معين، وصرنا ننبهر انبهاراً لا حد له إذا ما أقدم متخصص في الجيولوجيا، مثلاً، على الفتوى في شأن ديني، أو متخصص في العلوم الدينية على الخوض في قوانين علم الفيزياء، بل وصل الأمر ببعضنا إلى حد الدهشة و الاستغراب إذا ما توجهوا بسؤال إلى من يحسبونه متخصصاً فيعتذر لهم بأنه غير ملم بمستحدثات الموضوع. أو أنه في

حاجة لفسحة من الوقت لإعداد إجابته، فيعتبرون موقفه نوعاً من التملص من إبداء وجهة نظره في الموضوع.

ألحت على تلك الذكريات والأفكار حين شرفت منذ عدة شهور بتلقي دعوة لحضور افتتاح "المركز الدولي للدراسات المستقبلية و الاستراتيجية"، ولبيت الدعوة دون حماس كبير. فكم من مشروعات واعدة من هذا القبيل لم تلبث أن خفتت و طوتها البيروقراطية، فضلاً عن ندرة الطلب في بلادنا على منتجات صناعة التفكير.

كانت الدعوة من الصديق اللواء (متقاعد) أحمد فخر، وهو من أبطال حرب أكتوبر، ممن لا أستطيع إلا تلبية أوامرهم، ولا أقول دعوتهم. كانت الكلمات واعدة في حفل الافتتاح، ولكني ظللت مشفقاً متوجساً، و آثرت التريث في الكتابة. وحين شاركت المركز في باكورة أنشطته التي اختار لها أن تكون ندوة (نحو دور مؤثر لمراكز البحث والتفكير في صنع السياسات في مصر) بدأ توجسي يخفت شيئاً فشيئاً، فالبنية الأساسية جيدة، والحماس كبير، وتصاعد الأمل مع استمرار أنشطة المركز، لتشمل موضوعات تلمس همومنا المصرية القومية.

ويظل التساؤل قائماً: ترى هل يمكن أن تشهد بلادنا طلباً حقيقياً على منتجات هذا النوع من التفكير الجماعي العلمي؟ و هل آن الأوان لمراكز البحث العلمي في بلادنا أن تنطلق في هذا الاتجاه؟.

إصدارات مركز الدراسات النفسية

* سيكولوجية الشائعة / شائعات الحرب العراقية نموذجاً

يتطرق الكتاب إلى شرح تقنيات الشائعات وتطوراتها التي أبرزتها الحرب العراقية محولة الإعلام إلى أداة طيعة للحرب اللطيفة التي تقوم على الشائعات، وهي لطيفة بالمقارنة مع مبادئ الصدمة والترويع المعتمدة من إدارة بوش...

* علم النفس الأمني

يعرض الكتاب لمبادئ علم النفس الأمني ومقومات الأمن الاجتماعي. ويقدم الكتاب تطبيقات عملية حول التعاون بين الأجهزة الأمنية والإعلام والجمهور. ومن ثم قضايا الأمن العربي بتطبيقاته المختلفة...

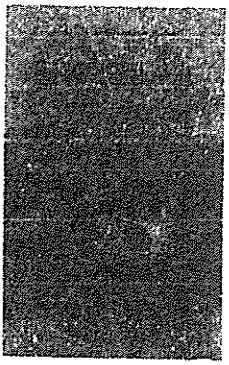

* الأمراض النفسية وعلاجها / دراسة في مجتمع الحرب اللبنانية

هي الطبعة الثالثة من الكتاب الذي صدر عام 1985 والحرب اللبنانية في أوجها، وهو دليل صالح للتطبيق في مجتمعات الكوارث العربية من فلسطين إلى العراق. وهو كان قد اعتمد مرجعاً في العديد من الأطروحات الجامعية والبحوث المتعلقة بالنزاعات اليمني - اليمني، والكويتي - العراقي...

علم النفس حول العالم

إعداد: نشأت صبوح – سناء شطح – رمزية نعمان

الضحك يساعد على علاج الأمراض

أظهر بحث طبي دنماركي أن المرح والضحك لا يساعدان فقط على تسهيل الحياة، بل يعملان – أيضاً – على الإسراع في الشفاء من بعض الأمراض، والوقاية من أمراض أخرى. وقال طبيب دنماركي أجرى البحث: إن السعادة والمرح والضحك تلعب دوراً كبيراً في صحة الإنسان، وإن الضحك يعمل على الوقاية من بعض الأمراض، خاصة أمراض القلب '، مضيفاً : أن البحث برهن على وجود اختلاف كبير بين المرضى المرحين وغير المرحين في ما يتعلق بإخطار الإصابة بأمراض القلب '. وذكر الطبيب أن المرح والضحك يساعدان على تخفيف الآلام، ورفع قدرة الجسم على مقاومة الأمراض.

الجهد النفسي والجسماني يزيد الأمراض القلبية

أكدت دراسة جديدة أن الشدة النفسية العاطفية، والجسدية، الشديدتين، يمكن أن تحرضا على حدوث ألم الصدر والأزمات القلبية لدى العديد من الأشخاص، خاصة قليلي الحركة، وممن لديهم عوامل خطورة عالية.

وقد راجع الباحثون دراسات عدة نشرت حول هذا الموضوع، ووجدوا إثباتاً أن الجهد الفيزيائي (خاصة لدى الأشخاص الخاملين) الشدة العاطفية، الغضب، والانفعال الشديد، كلها تحرض على ظهور تلك الأعراض، مضافاً إليها توقف القلب المفاجئ لدى من ترتفع لديهم نسبة عوامل الخطورة.

وقد تبدأ الأعراض خلال ساعة أو ساعتين من التعرض للانفعال، ويقول الباحثون إنهم بدأوا يفهمون الآليات التي يحدث فيها ذلك التحريض.

ويضع الباحثون في هذه الدراسة التي نشرت في العدد الأخير من مجلة Psychosomatic Medicine تعريفاً للعامل المحرض على أنه عامل خارجي، ربما حالة نفسية، أو انفعال ما، قد ينجم عنه تبدلات تقود مباشرة إلى أزمة قلبية وغيرها.

وتضمنت الدراسة مراجعة واسعة للعديد من الدراسات التي سبق ونشرت خلال الأعوام مابين 1970 و2004 حول المحرضات السلوكية والعاطفية، وأثبتت وجود حالات عديدة من الأمراض الواردة أعلاه تالية للكوارث الطبيعية، الحروب، والمناسبات الرياضية.

الزنك يساعد في تقوية ذاكرة المراهقين

أظهرت دراسة علمية حديثة أن جرعات يومية من الزنك تساعد على تقوية ذاكرة الطلاب الذي تتراوح أعمارهم بين 11 إلى 13 عاماً.

وحقق المشاركون في الدراسة، وهم 209 طالباً في الصف السابع، تناولوا خلال الفترة ما بين عام 2002 إلى 2004 (20) ملليغرام من الزنك مع عصير البرتقال، أداءً أفضل من حيث استعادة المعلومات وتذكرها عن نظرائهم الذين تلقوا جرعات أقل، أو عقاقير وهمية. ولم يلحظ الباحثون أي تغييرات من حيث تفاعل التلاميذ الذين تناولوا جرعات الزنك مع محيطهم الاجتماعي، أو تحصيلهم الدراسي، نقلاً عن الأسوشيتد برس. وعبر جيمس بينلاند، الذي قاد فريق بحث أجرى تجارب لتحديد الجرعات اليومية اللازمة للمراهقين من مكملات الزنك الغذائية عن ثقته في الكشف قائلاً 'أنا واثق للغاية في ما يتعلق والربط بين المادة والذاكرة'. ويشار إلى أن غالبية الدراسات السابقة تناولت تأثير المادة على الأشخاص البالغين.

انتشار مرض (فقدان الشهية) في سنغافورة

تشهد سنغافورة زيادة في عدد الأشخاص الذين يعانون من مرض (فقدان الشهية العصبي) ؛ خاصة بين النساء المسنات والأولاد الذين يسقطون فريسة للمرض، إلى جانب البنات المراهقات . فقد ذكرت مصادر المستشفى العام في سنغافورة : ' إن حوالي 30 شخصاً كانوا يعانون سنوياً من هذا المرض حتى سنة 2002، وقد ارتفع المعدل الآن إلى خمس حالات أسبوعياً ' . وقد عزت الدكتورة / لي إي ليان – استشارية الطب النفسي – هذا الأمر الشائك إلى : ' الترويج الإعلامي المكثف لفكرة النحافة ؛ ولا سيما في إعلانات التخسيس'. فقد نقلت صحيفة (ستريتس تايمز) عن الطبيبة قولها : ' إن الرسالة زادت من ظاهرة (البدانة الاجتماعية) '، وأوضحت الطبيبة : ' إنه يمكن أن تتمتع الفتاة بجسم صحي من الناحية الطبية، إلا أنها تعتبر بدينة بالمقاييس الاجتماعية '، وقالت : ' إن المرضى يعتبرون أنفسهم من أصحاب الوزن الزائد حتى إذا كانت أوزانهم أقل من الطبيعي بشكل ملحوظ، بل إنهم يتعمدون تجويع أنفسهم أملاً في الحصول على جسد نحيل ' . هذا، وقد أشارت إلى : ' إن سنغافورة تجسد اليوم ما كان عليه الغرب في سبعينات وثمانينات القرن المنصرم ؛ عندما كان الجسد النموذجي يطابق الأجسام النحيلة لعارضات الأزياء ' .

الشعور بالوحدة يؤذي القلب

حذر الباحثون في جامعة كارنيجي ميلون الأميركية من أن قلة النشاطات الاجتماعية، ونقص التواصل مع الآخرين، قد يضعف جهاز المناعة، ويزيد خطر الإصابة بالأمراض، ويؤثر سلبيا على صحة القلب.

وقد وجد الباحثون بعد متابعة الحالة النفسية لنحو 83 طالباً جامعياً، وقياس هرمونات التوتر في أجسامهم، بعد تطعيمهم ضد الأنفلونزا، أن العلاقات الاجتماعية المحدودة والشعور بالوحدة قلل مستويات الأجسام المضادة والاستجابة المناعية لديهم.

وسجل هؤلاء في مجلة /نيوسابنتست/ العلمية، أن مستويات المضادات المناعية كانت أقل بنسبة 16 في المئة عند الأشخاص الذين شعروا بأعلى مستويات الإحباط والوحدة، مقارنة بمن لم يسجلوا مثل هذه المشاعر، وبنسبة 11 في المئة عند من اقتصرت علاقاتهم الاجتماعية على 4 - 12 شخصاً فقط، من الذين تمتعوا بعلاقات مستمرة مع أكثر 20 شخصاً.

استخدام الفيروسات لمعالجة أورام الدماغ

نجح علماء في المركز الطبي بجامعة ولاية أوهايو الأميركية، في إنتاج فيروسات معدلة وراثياً، تساعد في القضاء على الخلايا السرطانية المسببة لأورام الدماغ الفتاكة.

وقد تمكن هؤلاء من تعديل فيروس 'هيربس سيمبليكس' وراثياً، ليصيب الورم العصبي الدماغي الخبيث فقط، وهو أكثر أنواع الأورام الدماغية فتكاً، والأسرع انتشاراً، حيث تم تحفيز قدرته على مضاعفة نفسه، وقتل الخلايا السرطانية.

وأثبت هذا الفيروس عند اختباره على عشرة فئران زرعت فيها أورام الجليوما الدماغية الخبيثة، أن ثمانية منها عولجت بالفيروس، بعد أسبوع من زرع الأورام فيها، عاشت لمدة 90 يوماً، في حين عاش اثنان من أصل عشرة عولجت بفيروس غير نشط، في المدة نفسها، بينما بقيت الفئران غير المعالجة على قيد الحياة لعشرة أيام فقط.

تطوير عقار لعلاج سرعة القذف

قالت شركة جونسون آند جونسون إنها أنتجت أول عقار برهنت دراسات أجريت مؤخراً على أنه يعالج سرعة القذف، مما يزيد من حالة الإشباع الجنسي.

وقالت وحدة أورثو مكنيل لصناعة الأدوية التابعة لشركة جونسون آند جونسون في بيان لها إن المرحلة الثالثة من اختبار طبي أجري على 2614 رجلاً أظهرت أن العقار أضاف

تحسناً كبيراً في الممارسة الجنسية، بما في ذلك التحكم في عملية القذف، وتوفير الإشباع خلال الممارسة الجنسية للرجال وشركائهم، وإطالة أمد الفترة التي تسبق القذف'.

وشارك في تطوير العقار، الذي يطلق عليه اسم دابوكستين، كل من شركة إلزا التابعة لشركة جونسون، ووحدات إل.إل.سي لخدمات المستحضرات الطبية التابعة للشركة. وستتولى وحدة أورثو مكنيل تسويق العقار في الولايات المتحدة إذا ما حصلت على موافقة إدارة الأغذية والعقاقير الأميركية.

وأشارت تقديرات رابطة أبحاث المسالك البولية الأميركية إلى أن سرعة القذف قد تصيب ما يتراوح بين 27٪ و34٪ من الرجال من مختلف المراحل العمرية.

أما مشاكل الانتصاب، وهي الحالة التي جعلت من عقار الفياغرا الذي تنتجه شركة فايزر من أكثر العقاقير مبيعاً، فإنها تؤثر على ما يقدر بين عشرة و12٪ من الرجال.

وقال جون بريور، رئيس ومدير برنامج قسم جراحات المسالك البولية في جامعة منيسوتا الذي قاد فريق البحث، 'الأثر الذي يمكن أن تحدثه سرعة القذف على الرجال وشركائهم في الممارسة الجنسية، يمكن أن يكون مدمراً للعلاقة، ولا يوجد علاج مثالي بالفعل لسرعة القذف'.

وذكر باحثون يعملون على تطوير العقار الشهر الماضي أن بإمكانهم تعريف سرعة القذف، وأشاروا إلى أن الرجل الذي يعاني من تلك الحالة يستغرق 1.8 دقيقة للقذف عقب بدء الممارسة الجنسية مقارنة بنحو 7.3 دقيقة بالنسبة لغالبية الرجال.

وأشار إلى أن هذه الفترة يمكن وصفها بأنها الفترة التي تسبق القذف، ويمكن قياسها بإعطاء الرجل وشريكته ساعة إيقاف.

وقال باحثون في دراسة قدمت إلى اجتماع لرابطة المسالك البولية الأميركية في سان أنتونيو بولاية تكساس إن الرجال الذين يتناولون دابوكستين في جرعات تبلغ 30 ملليغراماً، أو 60 ملليغراماً، لديهم زيادة تقدر ما بين ثلاثة وأربعة أمثال، في الوقت الذي تستغرقه عملية الممارسة مقارنة بالرجال الذين يتناولون عقاراً لا يحتوي على المادة الفعالة.

وقالت الشركة 'نسبة الرجال الذين أعربوا عن الإشباع الجنسي بإجابات تتراوح ما بين حسنٍ وجيد جداً، تضاعفت مع تناول جرعة توازي 30 ملليغراماً من دابوكستين (ما يتراوح بين 22.3 إلى 46.5٪).

السعادة لها تأثير إيجابي على الوظائف الحيوية

أجرى فريق من الباحثين الإنجليز بحثاً شمل 116 رجلاً، ومئة سيدة تتراوح أعمارهم ما بين 30 و 55 عاماً، في محاولة لمعرفة سر طول العمر ، وهو الحلم الذي يراود الكثيرين.

ويعتمد البحث على قياس الحالة المزاجية لهؤلاء من خلال مجموعة من الأسئلة تطرح عليهم. وتمكن الباحثون من الحصول على نتيجة تتحدد بموجبها الحالة النفسية لكل متقدم. من جهة أخرى قام الباحثون بتحليل نسبة هرمون الكورتيسول، ومعدل مادة الفيبرينوجين بالدم (من أجل قياس الضغوط العصبية) وتأثير هذه الضغوط على القلب . وأثبت التحليل وجود علاقة متبادلة بين الحالة المزاجية، وأداء الجسم لوظائفه الحيوية، ففي المجموعة الأولى، التى لم يسجل بين أفرادها حالة مزاجية طيبة ، تبين أنها تعاني من ارتفاع نسبة الكورتيسول والفيبرينوجين، إلى جانب سرعة في ضربات القلب، على عكس المجموعة الثانية التي كان يشعر أفرادها بالسعادة، فقد كانت كل الدلائل طبيعية . وأكدت المحصلة النهائية لهذه الدراسة على العلاقة الوثيقة بين الشعور بالسعادة وقدرة الجسم على أداء وظائفه الحيوية بكفاءة كبيرة .

تجدر الإشارة إلى أن دراسات سابقة لهذه الدراسة قد أكدت وجود علاقة بين الاكتئاب وارتفاع نسبة المواد المسببة للالتهابات ولمادة النورادينالين (وسيط كيمائي تطلقه الألياف العصبية) وكذلك وجود علاقة وثيقة بين الاكتئاب وانخفاض المناعة في الجسم، وبين الاكتئاب وبعض حالات الوفاة بصفة عامة، أو الإصابة بأمراض الشرايين في المخ .

دراسات حول علاج جديد لمرض الزهايمر

قال أطباء إن تجربة علاج جديد لمرض الزهايمر على مجموعة من المرضى أثبتت أنه علاج واعد وكان فريق من جامعة سان دييجو في كاليفورنيا قد زرع خلايا معدلة وراثياً في أدمغة ثمانية من المرضى بين عامي 2001 و2002.

وتهدف هذه الخلية إلى إنتاج بروتين طبيعي مسؤول عن منع موت الخلايا وتعزيز عملها. وقد أظهر ستة من المرضى علامات تقدم تشير إلى أن الأنسجة المزروعة أبطأت المرض. وكان العلماء قد قرروا أنهم مستعدون لإجراء تجاربهم على البشر بعد الحصول على نتائج جيدة من نتائج تجارب مماثلة أجريت على القردة.

وتم زرع الخلايا في الجزء الخاص بالذاكرة ومجالات التفكير الأخرى في الدماغ، بالإضافة إلى المناطق التي تموت عند مرضى الزهايمر.

وأثبتت التجارب التي أجريت على القردة نتائج واعدة، حيث أعادت خلايا أشرفت على الموت إلى الحجم الطبيعي تقريباً لها، كما أعادت روابط هامة بين الخلايا. ويذكر أن زرع الخلايا التي انتزعت من الجلد في الدماغ كانت قد تسببت في حدوث نزيف أدى إلى موت أحد المرضى الثمانية.

وقال رئيس الفريق البحثي، البروفيسور مارك تسوزينسكي، إن العلاج يعمل بفعالية مع ستة من المرضى فقد أظهرت الأشعة أن أدمغتهم تعمل بكفاءة أكثر من ذي قبل.

وإضافة لذلك، أظهرت عمليات تصوير عالية التقنية زيادة في نشاط الدماغ في المرضى الذين خضعوا للعلاج بهذه الطريقة، مقارنة بمرضى الزهايمر الذين لم تجر لهم الجراحة.

غير أن الأمر مازال يتطلب المزيد من الدراسات للتأكد من فعالية هذا العلاج.

وقالت هاريت ميلوورد، نائب المدير التنفيذي لصندوق بحوث الزهايمر، إن البحث مثير، ولكن يجب أن نحذر، فقد لا يكون العلاج تاماً.

ومن جانبه قال البروفيسور كليف بالارد، مدير جمعية الزهايمر: هذه الجراحة واحدة من عدد من طرق علاجية واعدة، تتضمن زرع عوامل للنمو، وخلايا جذع، وزرع جينات يمكنها تعديل عمليات أساسية في خلايا الأعصاب.

وقال بالارد: وعلى الرغم من أن التجارب مازالت في مراحلها الأولى، إلا أن هناك تقدماً كبيراً في التقنيات المستخدمة في مثل هذه العلاجات خلال الأعوام القليلة الأخيرة كما أن مثل هذه الطرق تحمل نتائج واعدة لتطوير طرق علاجية فعالة.

وأضاف قائلاً: معظم هذه الدراسات تجرى على خلايا تم تطويرها في المعمل، أو في الحيوانات. واستطرد بالارد قائلاً: لكنها على الرغم من ذلك مشجعة جداً، حيث أن دراسة البروفيسور توزينسكي توضح أن هذه الطريقة قد تكون علاجاً آمناً وممكناً لمرضى الزهايمر.

اضطراب في الشخصية أم في المناخ الاجتماعي

تفسير نفسي- اجتماعي لشخصية ليندي إينغلاند وأحداث "سجن أبو غريب"

الدكتور عبد الستار إبراهيم

ما الذي حدث في سجن أبو غريب؟

لا شك أن القارئ العربي اطلع أو شاهد ما تداولته دوائر الإعلام العالمية حول الانتهاكات التي أعلنت لأول مرة في نيسان/أبريل 2004 الماضي عما وقع في سجن أبو غريب، الذي يقع على بعد عشرين كيلومتراً غرب العاصمة العراقية، والذي كانت تديره القوات الأميركية. ولا ألوم القارئ العربي لما يكون قد أصابه من حنق وإحساس بالامتهان والذعر مما شاهد وسمع، فقد تسببت صور الانتهاكات التي تمّت بحق السجناء العراقيين في إثارة موجة من الاستياء والذعر في مناطق مختلفة من العالم. فقد ثبت من التقرير الذي أعده أنطونيو تاغوبا- الذي ترأس لجنة التحقيق التي أجراها الجيش حول الانتهاكات بحق سجناء (أبو غريب)- وجود أشرطة فيديو وصور لبعض السجناء والسجينات وهم عراة، وتم إجبار مجموعة منهم على القيام بممارسات فاضحة، والتقاط صور لهم. وفي حالة أخرى، كشف التحقيق عن أدلة تثبت أن أحد حراس الشرطة العسكرية الأميركية مارس 'الجنس مع إحدى المعتقلات'. وتطرق التقرير العسكري إلى صورة أخرى من صور التجاوزات الفاضحة: كتابة عبارة 'أنا مغتصب' على صدر أحد المعتقلين العاري بعد أن أجبر على عملية اغتصاب استجناسية لمعتقل آخر في الخامسة عشرة من العمر. وذكرت CNN نقلاً عن صحيفة الليبراسيون الفرنسية قول أحد السجناء في أبو غريب، وهو يصف ما تعرض له 'لقد أهانوني وكبلوني في هيئة يسمونها 'العقرب' وظلوا يصبون الماء البارد علي من صباح ذلك اليوم إلى صباح اليوم التالي، بعدها سقطت على أسلاك شائكة فبدأوا يسحبونني من رجلي ويركلوني على بطني'.

وفي مقال نشرته مجلة 'لانسيت' المعروفة بالتدقيق والرصانة العلمية، ذكر كاتب المقال البروفيسور ستيفين مايلز، من جامعة منيسوتا، أن الإساءة للمساجين العراقيين تضمنت 'الضرب، والحرق، والصعق بالكهرباء، والتعليق من القدمين، والتهديد بالخنق للمسجونين وذويهم، والانتهاكات الجنسية، والعزل، والحرمان من النوم لمدة طويلة، والتعريض للحرارة الشديدة، والبرودة القارصة، والضوضاء المزعجة'.

والآن حدث ما حدث، وأغلق سجن أبو غريب وانتهت التحقيقات باعتذارات من هنا وهناك، واستنكار من هنا وهناك، يجيء في تقديري وقت التحليل الهادئ، وإلقاء بعض الضوء على ما حدث: لماذا حدث ما حدث؟ ومن المسؤول؟ وهي أسئلة ضرورية يجب أن تثار، وأن يجاب عليها علمياً.

اضطراب فردي أم أن المناخ شجع على ظهور الاضطراب؟

وكما هو متوقع، انقسمت الآراء في تفسير الانتهاكات التي تمت في حق المساجين العرب في العراق. فالمدافعون عن حقوق الإنسان والهيئات العامة لحماية حقوق الأفراد بما فيها الهيئة الأميركية للحقوق العامة، رأت أن الانتهاكات التي قام بها الجنود الأميركيون بحق المحتجزين هي 'نتيجة السياسات المطبقة على أعلى المستويات في الحكومة الأميركية'. وأشارت المنظمة الدولية إلى تحذيراتها السابقة إلى المسؤولين الأميركيين، قبل ما يزيد على العام من الكشف عن انتهاكات 'أبو غريب'، والتي جاء فيها أن سوء معاملة المعتقلين 'ليست تصرفات فردية، ولا يمكن ردها إلى مجرد بضعة تصرفات من أشخاص مضطربين.'

لكن وزارة الدفاع الأميركية، والبيت الأبيض، نفتا نفياً قاطعاً وجود أوامر بالتعذيب، ونسب 'رامسفيلد' وزير الدفاع الأميركي هذه الانتهاكات، وعزاها لاضطراب في شخصية بعض الحراس، وانعكاس لشخصيات تتسم كما وصفها 'بالسادية المفرطة، والوحشية، وغير الإنسانية'.

وبعد ذلك توالت بالفعل الصور التي أفرج عنها البنتاغون، وجاءت وكأنها تشهد بصحة وجهة نظر 'رامسفيلد' بالتركيز على حفنة من الجنود، من بينهم المجندة 'ليندي إينغلاند' وزميلها الجندي 'تشارلس غرانر'، من احتياطي الشرطة العسكرية في الجيش الأميركي.

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن وجّه الجيش الأميركي الاتهام مباشرة إلى المجندة ليندي إينغلاند وزميلها الجندي' تشارلس غرانر'. واشتملت لائحة الاتهام أكثر من 14 تهمة، من بينها إرغام المساجين على ارتكاب أفعال جنسية فاضحة ، وتصويرهم خلالها بدافع الإذلال، وغير ذلك من ممارسات عدوانية وصلت إلى حد القتل .'

و لم تنفِ 'ليندي إينغلاند' ما فعلته من انتهاكات، ولكنها صرحت بأنها لم تفعل ما فعلت بدون أوامر من رؤسائها، ودافعت عائلتها عن براءتها، مشيرة إلى أنها كانت تتبع أوامر القيادات العليا فقط. ودافع محاموها أيضاً عنها، وذكروا أن المسؤولية المباشرة تقع على المناخ الاجتماعي العام، الذي ساعد على زرع بذور التعصب والكراهية بين المجندين الأميركيين في العراق. وهو المناخ الذي روجت له السلطة العليا، و ومن مثلوها رسمياً في العراق وسجن (أبو غريب). وطالب المحامون بشهادة 100 شخص على الأقل من بينهم 'رامسفيلد' وديك تشيني نائب الرئيس الأميركي (وهو ما لم يحدث).

إنه، إذن، مناخ العنف والتسلط، الذي اجتذب له أسوأ أنماط البشر اتصافاً بالسادية واضطراب الشخصية. وموضوع العنف والتسلط على الآخرين من الموضوعات الأثيرة لدى علماء النفس والمجتمع، وقد احتل مكانة مرموقة من حيث البحث والتجريب، خاصة في الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية، بحثاً عن إجابة لعدد من الأسئلة التي أثارت حيرتهم آنذاك. من بينها مثلاً: لماذا تحول كثير من الناس العاديين والأسوياء في ألمانيا الهتلرية إلى أشخاص متعصبين، ولم يتورع بعضهم عن ارتكاب أكثر الفواحش- بما فيها الوشاية والعنف الذي كان يصل لدرجة القتل- ضد مواطنيهم، ممن لا تربطهم بهم صلة حب، أو كراهية؟ وإذا أعدنا صياغة هذه الأسئلة، في ضوء الأحداث التي عاصرت انتهاكات سجن أبو غريب، يظل هذا السؤال قائماً: هل ما حدث في سجن أبو غريب يعتبر بكامله انعكاساً لشخصيات مضطربة عقلياً وسلوكياً (من أمثال ليندي إينغلاند وغيرها)، أم انه استجابة وانصياع لضغوط السلطة العليا والجهاز الإداري المنفذ لأوامرها؟ هل ليندي إينغلاند فعلت ما فعلت لأنها مضطربة عقلياً، أم أنها- وكما دافعت عنها أمها- إنسانة بريئة أوقعتها الظروف لتقوم بما يجب أن يقوم به أي إنسان 'وطني' في موقعها؟ لقد أجابت بحوث بعض علماء النفس عن ذلك عندما أثبتت أن ما ينخرط فيه بعض الأشخاص من عنف و 'سادية' وإيقاع الأذى بأشخاص أبرياء لا تربطنا بهم رابطة حب أو كراهية، تكون جميعها نتيجة متوقعة، كاستجابة لأوامر مباشرة، أو مستترة، أو إيحائية، من الأجهزة العليا، خاصة عند غياب المساءلة والردع. ألم يعلن الصليب الأحمر الدولي أنه قد حذر، وبعد وقت وجيز من الغزو الأميركي للعراق، من وقوع انتهاكات بحق المعتقلين في العراق، في الوقت الذي أعلن مسؤول الإدارة المدنية الأميركية في العراق، 'بول بريمر'، إلى أنه علم بالتجاوزات في كانون الثاني/يناير2004 أي قبل الإعلان الرسمي على هذه الانتهاكات بما يزيد على 5 شهور. ونعلم أنه لم يفعل شيئاً لإيقافها، مما خلق الانطباع بأن كل شيء مباح.

ما الذي قاله البحث العلمي في حالات مشابهة؟

بعض الإجابات عن هذا السلوك تأتينا من أحد التجارب المرموقة في علم النفس. ففي عام 1971 أجرى مجموعة من علماء النفس من جامعة ستانفورد الأميركية تجربة صدمت الرأي العام، وصدمت نتائجها الباحثين أنفسهم، لدرجة أن رئيس الفريق- وهو العالم النفسي 'زيمباردو' الذي كان لفترة قريبة رئيساً لجمعية علم النفس الأميركية- أوقف التجربة قبل أن تكتمل، شفقة على المشاركين فيها. أجريت هذه التجربة في الدور الأرضي من قسم علم النفس. وملخصها أنه تم تقسيم مجموعة من 24 طالباً وطالبة، عشوائياً، إلى مجموعتين: حراس وسجناء لمدة أسبوعين. وفي خلال أيام قليلة لم تجاوز الأسبوع تغيرت شخصيات الطلاب الذين قاموا بدور السجانين، إذ اتسم سلوكهم بالعنف والسادية، لدرجة أنهم ابتكروا أساليب من تعذيب زملائهم المساجين لم تكن من ضمن شروط التجربة، بما في ذلك الضرب،

ووضع أكياس بلاستيكية على رؤوس زملائهم المساجين، لمنعهم من التنفس بحرية، فضلاً عن إرغامهم على نزع ملابسهم، وتعريتهم، وإرغامهم على أداء أفعال جنسية فاضحة.

ولتجربة جماعة 'ستانفورد' متضمنات ونتائج تساهم في تفسير كثير من التغيرات المفاجئة، وغير السارة، التي تطرأ على السلوك الإنساني نتيجة للمناخ الاجتماعي، ومن يملكون مفاتيح التحكم فيه. لقد كشفت هذه التجربة عن أن المسافة بين الإنسان العادي والتوحش مسافة أضيق وأقصر مما نتصور. ففي فترة وجيزة انقلب طلاب جامعة 'ستانفورد' العريقة من بشر عاديين وأسوياء، إلى أفراد اتسم سلوكهم بالعنف والتسلط لمجرد شعورهم بأنهم يؤدون دوراً في تجربة علمية. وقد أيدت بحوث إضافية لتجربة 'ستانفورد' نفسها النتيجة: أن الشخص قد ينقلب في فترة وجيزة من إنسان عادي إلى مجرم نتيجة للمناخ السائد الذي يحدد للفرد أسلوب أدائه للدور الاجتماعي، كما ترسمه توقعات الآخرين منه، خاصة إنْ جاءت هذه التوقعات في شكل أوامر فعلية، أو مستترة، ممن هم في مراكز أعلى.

وهذه التجربة، وما أُجري بعدها من تجارب مماثلة، تفسر لنا أيضاً بعض ما حدث في سجن أبو غريب، وتبصِّرنا على الأقل بالعوامل والمواقف الاجتماعية الضاغطة التي سمحت لأمثال 'ليندي إينغلاند' من ممارسة هذا الدور السادي القبيح. 'ليندلو كاند' نفسها ذكرت في التحقيق أنها تلقت أوامرها من مشرفيها في الوظائف العسكرية العليا، وأنها شعرت بأن الأوامر بدت 'غريبة' عليها، خاصة عندما طلب منها أحد الضباط المباشرين أن تقف أمام أحد المساجين العراة، وتبتسم، وتشير بأصابعها في اتجاه أعضائهم الجنسية في الصورة المعروفة التي نشرتها أجهزة الإعلام، والتي ربما أتيح للقارئ الإطلاع عليها في مكان ما. لم ترفض، ولم تستنكر ما فعلت، لأنها في ما ذكرت لم تكن مسؤولة عمّا حدث، ونسبت مسؤوليته إلى السلطة العليا عليها، وأنها لم تكن تؤدي أكثر من واجبها كمجندة 'مخلصة' لعملها في الجيش الأميركي.

ماذا لو كان القارئ في مكان 'ليندي إينغلاند'؟ أو ماذا لو أنني سألتك شخصياً: هل تستطيع أن توقع بشخص غريب عنك، وبريء، ولا تربطك به علاقة مسبقة من الحب أو الكراهية- وبأمر من سلطة أعلى منك- آلاماً مبرحة قد تصل إلى القتل؟ هل ترفض، أم أنك تطيع الأوامر العليا؟. من المرجح أن إجابتك على هذا السؤال ستكون بالنفي القاطع. أو هكذا على الأقل كان يجيبنا أكثر من 90٪ من طلابي عندما كنت أوجه لهم هذا السؤال في قاعات الدرس، سواء في الجامعات الأميركية، أو العربية، التي عملت فيها، وعندما كنت أحاضر فيهم عن تأثير المواقف الاجتماعية على سلوك الفرد.

تأمل قبل أن تجب على الأسئلة السابقة بالنفي، أو التأييد، نتائج تجربة علمية أخرى أجريت بجامعة 'ييل' Yale University الأميركية. البناء العام لهذه التجربة كان بسيطاً، إذ تكون الأشخاص الرئيسيون في التجربة من المجرب، وشخصين آخرين من المتطوعين لهذه الدراسة، يسند لأحدهما القيام بدور المدرب-المدرس، وللآخر دور المتعلم أو التلميذ، ثم

يفصل الفردان بعد هذا، فيوضع التلميذ (أو لنسمِّه الضحية) في حجرة منفصلة، ويطلب منه الجلوس على مقعد بحزامين يوثقان بالذراعين لمنع الحركة. كذلك يحتوي المقعد على قطبين كهربائيين يحيطان بالمعصمين. يوضح المجرب- أو مساعده- للمتعلم أن المطلوب منه هو أن يتعلم مجموعة من الكلمات البسيطة التي ستلقى عليه من الشخص الآخر القائم بدور المدرب، وأن يحاول أن يتذكرها، وأنه عندما يخطئ أو يفشل في إحداها سيتلقى صدمة كهربائية من خلال القطبين المحيطين بمعصميه، وأن هذه الصدمة ستتفاوت في شدتها، فتكون في البداية خفيفة، وتتزايد تدريجياً كلما فشل الشخص في التذكر.

على أن هدف التجربة الحقيقي لم يكن الهدف المعلن، وهو قدرة التلميذ على التذكر والتعلم.إن الهدف الرئيسي هو تحديد مدى انزلاق إنسان عادي (هو المدرب) في إيقاع ألم أو أذى بشخص بريء (التلميذ أو المتلقي) بتأثير من أوامر المجرب (لا حظ أنها سلطة مجرب و في مكان علمي يسهل رفضها، وليست أوامر في معسكر للجيش أو الشرطة). وعند أي نقطة من نقاط إيقاع الألم يرفض الإنسان الخضوع والطاعة للسلطة.

أما القائم بدور المدرب-المدرس فقد كان يوجه إلى الجلوس على مقعد، وأمامه مولد كهربائي هائل الحجم: يحتوى على ثلاثين مولداً كهربائياً تتراوح شدة هذه المولدات من 15 فولتاً (صدمة خفيفة) إلى 450 فولتاً (تيار صاعق). و يبين المجرب له أن من المطلوب منه أن يوجه صدمة كهربائية متفاوتة الشدة في كل مرة يفشل فيها المتعلم-التلميذ في التذكر. وعندما كان القائم بدور المدرب أو المعلم يبدي استغرابه وتردده في ممارسة ذلك الدور، كان المجرب- أي 'ميلجرام' أو من يحل محله- يجيب بعبارة قاطعة صارمة ومختصرة أن عليه أن يستمر، ولا اختيار له في ذلك، وأنه، أي 'ميلجرام' يتحمل كل المسؤولية. لهذا لم يكن أمام القائم بدور المدرب إلا الخضوع لسلطة المجرب، والاستمرار في توجيه الصدمات، أو الانسحاب الكامل من التجربة بكل بساطة.

وبالرغم من ألم الصدمات الكهربائية التي يفترض أنها كانت تقع على الضحية، أي التلميذ (الذي كان في الواقع يمثل هذا الدور بالاتفاق مع المجرب)، فإن الألم النفسي وقع على القائم بدور المدرب-المعلم الذي لم يكن على علم بالأهداف الحقيقية للتجربة، ولم يكن يعلم أن الصدمات العالية تحجب بطريقة ما من الوصول للتلميذ، أي أنه كان متيقناً من أن ممارسات تصل بكل شدتها للتلميذ حتى 450 فولتاً.

نتائج غير متوقعة!

سجل العلماء والصحفيون الذين شاهدوا هذه التجارب في معمل جامعة ييل أن الموقف التجريبي، كما يظهر لدى القائم بدور المدرب (وهو الموضوع الحقيقي للدراسة)، لم يكن مصطنعاً، ولم تكن المسألة بالنسبة له لعبة تجريبية في معمل لعلم النفس. فقد عانى فعلياً من الصراع النفسي المؤلم: الصراع بين الرغبة في إطاعة الأوامر، والرغبة في الاستجابة لنداء الضمير. كان الصراع صراعاً فعلياً وقاسياً على البعض منهم. ومع ذلك، أوضحت هذه

التجربة التي أجريت على ما يقرب من ألف شخص قاموا بأداء دور المدرب، أو المدربة، أن أغلبهم (أي 65٪ منهم) خضعوا لأوامر التجربة بغض النظر عن نزيف الألم الذي يحيق بالضحية، وبغض النظر عن شدة الفولتات الكهربائية، أو توسلات الضحية بأن يسمح له بإنهاء التجربة، والخروج من حجرته.

وقد تأكدت هذه النتيجة مرات ومرات عندما أجريت من قبل باحثين مختلفين، وفي جامعات مختلفة، وتوصلوا جميعاً إلى النتائج نفسها، وهي أن ما يقرب من ثلثي أفراد العينة المتطوعة للقيام بدور المدرب استمروا حتى نهاية التجربة في توجيه الصدمات الكهربائية حتى نهايتها.

ولم تتأثر استجابات أفراد العينة بالمركز الاجتماعي والمهنة، أي أنهم استجابوا لأوامر التجربة، بغض النظر عن وضعهم المهني، وكان من بينهم مديرون ومهنيون، وعمال، ومدرسون، وأغنياء، وفقراء، وطلاب، وأساتذة جامعيون، ورجال دين.

ولم تختلف النسوة عن الذكور، فقد كشفت دراسات لاحقة النتيجة نفسها، وهي أن 65٪ من النسوة أبدين طاعتهن للسلطة حتى آخر المطاف. إلا أن نسبة الصراع النفسي بين النسوة كانت أكبر منها بين الرجال، فلقد انخرطت نسبة كبيرة منهن في نوبات هستيرية من البكاء والصياح والتشنجات الانفعالية، بينما أصابعهن كانت تضغط بغيظ على مفاتيح توجيه الصدمات. مما ينفي أن يكون الخضوع لأوامر السلطة ظاهرة تختص بالذكور بسبب ميولهم العدوانية. وربما لهذا لم يكن سلوك ليندي إينغلاند مختلفاً عن زملائها من الجند، ولكنه كان صادماً للرأي العام، لأنها لم تتخل عن ابتسامات التشفي والاستهانة بمشاعر المساجين وآلامهم.

وقد يقال إن شخصية الضحية يكون لها بعض التأثير على المدرب، إلا أن التجربة بينت أن النسبة المئوية للطاعة استمرت كما هي حتى عندما كان المجرب يغير من شخصية الضحية أو التلميذ، فيسند دوره مرة لشخص وديع ومسالم، ومرة لشخص عدائي مفتول العضلات، وصارم التعبيرات.

شرطان للإمعان في الانتهاكات!

وقد زادت نسبة الانصياع لأوامر المجرب، وقفزت إلى 95٪ عندما كان يسمح للشخص القائم بدور المدرب أن يشاهد قبل قيامة بالدور شخصاً آخر يقوم بالدور نفسه ويستمر فيه حتى نهايته. وهذه نتيجة أخرى تثبت أن طاعة أوامر السلطة والانقياد نحو العنف والقسوة تتزايد على نحو وبائي نتيجة للمحاكاة ومشاهدة انغماس الآخرين في أداء سلوك عدواني على الآخرين. وربما لهذا لم يكن من المستغرب أن نجد أن الصور التي التقطت في سجن أبوغريب، خلال عمليات التعذيب، أظهرت أن هذه العمليات كانت تجري على مشهد من الجند الآخرين، مما أعطاها صفة القبول والرضا.

وزادت أيضاً نسبة الخضوع لأوامر المجرب، مع الإمعان في القسوة والاستخفاف بآلام الضحية لدى بعض الأنماط الشخصية دون الأنماط الأخرى، أي أن جزءاً من سرعة استجابة البعض، وسهولة انزلاقهم في تنفيذ أوامر التعذيب والانخراط في المبالغة، والتلذذ في إيقاع الأذى ارتبط بالفروق الفردية في الشخصية، فقد أظهرت المقارنات بين الأفراد، الذين استجابوا للأوامر حتى آخرها، بالأشخاص الذين رفضوا الاستمرار في التجربة أن أفراد النمط التسلطي من الشخصية كانوا أكثر استجابة لتنفيذ أوامر المجرب مقارنة بغيرهم. (للمزيد عن الخصائص النفسية التي تميز الشخصية التسلطية أنصح القارئ بالرجوع إلى مجموعة الدراسات التي أجراها الكاتب الحالي في المجتمع المصري في كتابنا: الاتجاه التسلطي في الشخصية والمجتمع والسياسة، القاهرة: المركز العربي للترجمة والنشر). وهناك أكثر من سبب يجعل الشخص التسلطي أكثر استجابة للطاعة، ومن بينها أن التسلطي يرتاح للتعامل بخضوع لمن يملك القوة والهيمنة، ويحبذ فرض الطاعة، ويتسم بدرجة عالية من العداء نحو المختلفين عنه في التفكير والسلوك. فضلاً عن هذا، فإن النمط التسلطي يكون عادة سريع الاستجابة للطاعة، والانزلاق في سلوكيات الامتهان، خاصة إذا كان المناخ الاجتماعي المحيط به ترسمه توقعات السلطة العليا، التي تتسم بدورها بدرجة عالية من التسلط، وضيق الأفق، والتعصب نحو المختلفين عنا أيديولوجياً. وهي نتيجة منطقية مقبولة، خاصة إذا نظرنا إليها في ضوء الأحداث التي عاصرت ما تم في سجن أبو غريب، والتي منها:

- مناخ ما بعد 11 أيلول/سبتمبر، والهجوم على نيويورك.
- شيوع مفاهيم 'صراع الحضارات' التي روج لها بعض الكتاب الأميركيين من أمثال وولفويتز، وريتشارد بيرل.
- مفهوم 'الحرب الوقائية'.
- إشاعة الخوف والفزع مما أطلق عليه الإرهاب العربي الإسلامي.

في ظل هذه الأحداث والمفاهيم، كان من السهل على نوعيات 'ليندي إينغلاند' وزملائها أن يستجيبوا بحماس وتعصب ورغبة في الانتقام، ومن ثم التورط المؤسف في الانتهاكات التي أشرنا إليها من قبل.

عناصر من الأمل

خطورة ما حدث في سجن أبو غريب لا تكمن في تصوري في مجموعة الممارسات المقززة والمزعجة التي ارتكبت في حق بعض الأبرياء، بقدر ما تكمن في الشيوع الوبائي لهذا السلوك في حياتنا الاجتماعية والنفسية. فأحداث أبو غريب تعبر ببساطة عن ممارسة العنف استناداً على الطاعة العمياء لسلطة أو قوة عليا تنشد القهر والسيطرة، أو على الأقل توحي بذلك، أو تسمح به بدون ردع ملائم. وأحداث التعذيب في 'أبو غريب' بهذا المعنى لا تزيد بلغة الطب النفسي عن كونها 'أعراضاً' لمشكلة أساسية تقف وراء قائمة ضخمة من المشكلات الاجتماعية

والنفسية المناظرة. أما عن نظائر هذه الممارسات في واقعنا العربي المعاصر، فهي والحمد الله واسعة، وتمتد لتشمل قائمة مسهبة من المشكلات الاجتماعية والنفسية التي لا يتسع المقام لذكرها، ولكن نذكر منها على سبيل المثال: التعصب بكل أنواعه، والتشجيع على العدوان المباشر على حريات الآخرين وممتلكاتهم، أو غير المباشر بالوشاية، وتشويه السمعة، والعنف الأسري في التعامل مع الأطفال والزوجات، والمصادر الإعلامية، سواء عما تصمت عليه من ممارسات خاطئة أو بما تشنه من حملات متعسفة ضد بعض الأفراد، أو بعض الطوائف دون تحقق، والممارسات البوليسية في حق المواطنين..إلخ. لهذا السبب تصبح الكتابة عن هذه القضية واجبة على المستوى القومي فوق أي اعتبار آخر. وبالطبع يقتضي ذلك طرح سؤال تفرضه البداهة العلمية بعد طرحنا للأسباب أو العوامل التي تضافرت في ما بينها في إحداث ظاهرة 'أبو غريب'. سؤالنا البديهي هو: هل بإمكاننا ضبط هذا السلوك، و إلى أي مدى يمكننا الحد من أخطار هذا النوع من الانحرافات التي تهدد أخطارها بشكل مباشر وحاد مسيرة المجتمع وكيانه؟.

وكي أكون إيجابياً، أريد أن أؤكد أنه يمكن بالفعل إحداث تغيرات جوهرية تساعد على الإقلال من هذا السلوك، فمثلاً بينت دراسات ملليجرام السابقة أن نسبة التحمس للخضوع والطاعة تضاءلت بشكل ملحوظ في حالة التضارب بين سلطتين، أي عندما كان يتولى دور المجرب شخصان، أحدهما يأمر بتوجيه العقاب، والآخر يراقب ويعارض ذلك. مما يدل على أن وجود سلطتين، إحداهما تنفذ، والأخرى تراقب، يخفف من تعسف السلطة، أو على الأقل يحجم من سلبياتها، ويشجع على مواجهتها بالرفض. وهي نتيجة تضاف لصالح الممارسات الديموقراطية التي تشجع على تعدد السلطات، وتقوية أجهزة الرقابة والمتابعة للممارسات التي تحدث في داخل المجتمع.

وتتزايد قدرة الفرد على الرفض عندما يسمح له أن يشاهد أشخاصاً آخرين يقومون بالسلوك نفسه، أي بالاحتجاج والاستنكار، أو رفض الاستمرار في أداء دور التعذيب مما يشير إلى أن مواجهة الممارسات الخاطئة، وتحديها يتزايدان في ظل وجود قدوة، أو أشخاص آخرين يمارسون استقلالهم وتحديهم للممارسات المجحفة بحق الآخرين.

ولتحمل المسؤولية على ما يرتكب الفرد من أخطاء، أو جرائم، دور كبير في التقليل من الممارسات الخاطئة، فقد قلت نسبة الانصياع لأوامر السلطة، وزادت مقاومتهم للاستمرار في توجيه الصدمات المطلوبة من التجربة عندما كان المجرب يرفض أن يتحمل كامل المسؤولية عما قد يحدث للضحية. وهي نتيجة تدعو لتنبه الأجهزة الإدارية والتعليمية (خاصة في كليات الطب والشرطة) و أجهزة الإعلام إذا ما كانت هناك محاولة جادة لتنفيذ برنامج وقائي لمقاومة الممارسات الخاطئة في أي دولة في حق مواطنيها.

تبقى نتيجة أخرى تدعو إلى التفاؤل، إذ يجب أن نتذكر أن نسبة من خضعوا واستجابوا لأوامر المجرب بلغت 65٪، وهذا يعني أن 35٪ من الأشخاص، أو ثلث العينة رفض الاستمرار

في التجربة حتى نهايتها، واستنكرها. وبعض الأشخاص لم يكتفوا ببساطة بالاعتذار، بل عبروا عن احتجاجهم مكتوبا لإدارة الجامعة على ما يحدث من انتهاك لحقوق بعض الأفراد في هذه التجارب السيكولوجية. وحتى الـ 65٪ من الأشخاص الذين قبلوا أوامر السلطة لم يقبلوا بها جميعاً بالاقتناع، وبالسرعة والمبالغة نفسها. وهذا يذكرنا بالمجند الأميركي الذي تولى بشجاعة تصوير ما حدث في سجن أبو غريب، فلولاه لما استطاع الرأي العام أن يدرك ما حدث في 'أبو غريب' من انتهاكات. إن قدرة هذا الشاب على مواجهة ضغوط زملائه، وإصراره على أن يصور خلسة كل ما حدث، وأن يعمل بعد ذلك على إتاحة الأشرطة لأجهزة الإعلام والسلطات العسكرية العليا، ساعد دون شك على إيقاف الانتهاكات، وغلق السجن في ما بعد. وما قام به هذا الشاب يدعو بحق إلى التفاؤل بأن فرداً واحداً لم يرضخ لضغط زملائه، ولم يشاركهم في ما كان يحدث من تعذيب. إنه أيضاً رفض حتى الالتزام بالصمت، فكانت له القدرة على تحقيق التغيير، وفضح مآسي سجن 'أبو غريب'. وفي تقديري أن ما قام به ذلك الشاب يجعل من أحداث سجن 'أبو غريب' وكأنها تجربة نفسية محكمة صاغتها أمامنا الطبيعة البشرية بكل تلقائيتها وزخمها، لتثبت لنا أن الخير ممكن التحقيق، وأن بيد فرد واحد فقط أن يحقق التغيير الإيجابي في الأمور، أو على الأقل أن يوجه الأذهان إلى ما يحدث من حولنا من أخطار وقبح.

تأثير ضغوط الحرب في مذاكرة الطلاب الجامعيين[1]

الدكتور/ مصطفى عشوي
أستاذ الإدارة المشارك في كلية الإدارة الصناعية
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن
الظهران 31261

ملخص الدراسة

تناولت هذه الدراسة موضوع الضغوط التي تعرض لها طلاب جامعيون أثناء فترة الحرب على العراق، وما صاحب هذه الضغوط من ردود فعل انفعالية، وأعراض نفسية-جسمية، وأنماط توافق بعضها إيجابي وآخر سلبي، وتأثير ذلك كله في مذاكرة الطلاب.

ومن أهم أهداف هذه الدراسة معرفة هذه الردود، وضرورة الاستعداد على ضوء هذه المعرفة لتقديم الدعم النفسي والمساعدة الضرورية من خلال مراكز التوجيه والإرشاد النفسي في الجامعات لتحقيق التوافق مع الضغوط، وتخفيف آثارها السلبية على الصحة الجسمية والنفسية والتحصيل الدراسي والعملي، أثناء وبعد معاناة هذه الضغوط.

لقد تم بالفعل من خلال دراسة مسحية تسجيل آراء الطلاب وتحليلها تحليلاً إحصائياً، وتبين أن أغلب أفراد العينة قد عانوا فعلاً من ضغوط شديدة جراء ما صاحب الحرب من انفعالات سلبية، مثل الخوف والغضب والحزن. وقد ارتبطت بهذه الانفعالات السلبية بعض الاضطرابات النفسية الجسمية، مثل الأرق واضطرابات الهضم، وبعض الاضطرابات المتعلقة بالتعامل مع الآخرين، مثل التوتر وتغير المزاج، كما رافق ذلك اللجوء إلى أنماط توافق مع الضغوط، بعضها إيجابي، مثل اللجوء للصلاة والدعاء، وبعضها سلبي، مثل اللجوء للمهدئات والتدخين، وقد ارتبطت كل هذه الضغوط وما صاحبها من ردود إلى ضعف تركيز الطلاب

---

1. دعم هذا البحث من طرف جامعة الملك فهد للبترول والمعادن. يود الباحث شكر الدكتور نصار الشيخ عميد كلية الإدارة الصناعية سابقا على مساعدته لي في جمع البيانات الإحصائية.

أثناء المذاكرة، وانخفاض الوقت المخصص للمذاكرة، مما قد يؤدي إلى تأثر تحصيل الطلاب الدراسي بصورة سلبية.

وقد خلصت الدراسة إلى أهمية الاهتمام بالطلاب أثناء تعرضهم للضغوط النفسية بسبب الكوارث الطبيعة والأزمات الشديدة، وإلى ضرورة قيام مراكز التوجيه والإرشاد في الجامعات بتقديم الدعم النفسي المطلوب للتخفيف من الآثار السلبية المصاحبة والتالية للضغوط النفسية الشديدة ..

مقدمة :

لوحظ أثناء الحرب الدائرة في العراق أن أغلب الطلاب قد علا وجوههم القلق، وساد سلوكهم اضطراب ملحوظ، مما حدا ببعضهم إلى أن يطلبوا من أساتذتهم تأخير مواعيد الامتحانات المحددة سلفاً. ولوحظ أيضاً تأخر وصول بعض الطلاب إلى الحصص الدراسية التي تبدأ في الساعات المبكرة، كما لوحظ اهتمام الطلاب الكبير بمتابعة أخبار الحرب التي اشتد أوارها.

وقد كانت مختلف وسائل الإعلام وخاصة الفضائيات العربية، تبث مباشرة من ميادين القتال مناظر مرعبة للقتلى والجرحى، وخاصة في صفوف الأطفال والنساء، جراء قنبلة بغداد والبصرة، وغيرهما، بالطائرات والصواريخ الموجهة، وما ترتب عن ذلك من تدمير شديد.

دفعت هذه الملاحظات الباحث أن يهتم بهذا الموضوع، ودراسته دراسة ميدانية تعتمد على جمع البيانات من خلال توزيع استبانة على عدة صفوف دراسية في الجامعة، علماً بأن طلاب هذه الجامعة قادمون من مختلف أطراف المملكة العربية السعودية. وقد جرى جمع الاستبانات كلها والحرب لا تزال دائرة، إلا أن الانتهاء من جمع كل البيانات كان قبل يوم واحد من دخول القوات الأميركية إلى بغداد.

أهداف الدراسة:

الهدف الأساسي من هذه الدراسة هو معرفة مدى تأثر الطلاب الجامعيين بهذه الحرب من الناحية الانفعالية، وتأثير ذلك في الناحية السيكوسوماتية (الاضطرابات النفسية - الجسدية) وتأثيرها في الناحية المعرفية (المذاكرة)، كما هدفت الدراسة إلى محاولة معرفة أنماط التوافق التي لجأ إليها الطلاب للتغلب على ضغوط الحرب، أو ما يسمى باضطراب الضغوط المصاحبة، أو التالية، للصدمات.

الدراسات السابقة:

من الدراسات الأولى التي عرفت الضغط النفسي (stress) دراسة سليي (Selye, 1976) التي عرفته بأنه رد فعل فسيولوجي لأحداث خارجية مهددة. والمقصود برد الفعل الفسيولوجي أي عرض جسمي، كالتقيؤ وفقدان الشهية والإسهال والأرق، وغير ذلك من الأعراض الجسمية التي تعقب التعرض لتغير كبير في الحياة الشخصية بشكل سلبي،

كالطلاق والتهجير والنفي والسجن وقد تكون الضغوط أقوى من ذلك، كالتعرض لحادث مروع، سواء كان طبيعياً، كالكوارث الطبيعية، أم ناجماً عن فعل إنساني، كالحروب والعنف السياسي.

وعرف لازاروس وفولكمان (Lazarus & Folkman, 1984) العامل الضاغط (stressor) بأنه أي منبه خارجي يقومه شخص ما بأنه فوق طاقته ويتعدى قدراته وموارده ويضر بوجوده.

وقد خلص مثلاً ثابت وموسى وبوستانيس (Thabet; Mousa; Vostanis, 2002) في دراسة لهم عن الاضطرابات الانفعالية عند الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون في منطقة الحرب أن استجابات الأطفال لمختلف حالات العنف السياسي كانت حادة وقاسية، وأن هذه الاستجابات لم تظهر فقط عند الأطفال الذين تعرضوا لأحداث صادمة، ولكنها ظهرت حتى عند الأطفال الذين لم يتعرضوا بصفة مباشرة للأحداث الصادمة.

وقد أوردت الباحثة ريان- فانجر (2002) (Ryan-Wenger, 2002) مراجعة للدراسات السابقة التي تناولت تأثير خطر الحرب على الأطفال، وأوضحت أن التعرض الشديد للحرب يحطم القدرة الدفاعية عند الأطفال، بينما يؤدي التعرض المتوسط إلى ظهور استراتيجيات ذاتية للحماية وللتوافق.

أما محمد مرسي (2004) فقد أكد أن 'أطفال الوطن العربي يتعرضون مثلما يتعرض كثير من أطفال العالم لتأثيرات النزاعات المسلحة بصورة مباشرة، ويتعرضون أيضاً لمشاهد الكثير من النزاعات عبر الفضائيات' (ص 307). وأكد أيضاً أن من بين تأثير المشاهد التي تبثها الفضائيات نشر المخاوف في نفوس الأطفال.

وفي الواقع، فإن التأثيرات السلبية لمشاهد الحروب والكوارث التي تبثها الفضائيات لا تنحصر في الأطفال الذين يتابعون هذه الفضائيات، بل تتعداهم إلى الشباب والكبار، ولكن بدرجات متفاوتة قد تتراوح بين الانزعاجات البسيطة، إلى الإصابة بالضغوط النفسية، وما يصاحبها من اضطرابات نفسية وجسمية، قد يصل بعضها إلى حد الإصابة بالصدمة. وقد أشار إلى هذا المعنى محمد النابلسي (2004) حيث أكد أن العوامل الصدمية التي يعيشها الشعب العراقي، مثلاً، تمتد إلى الجمهور العربي، والمسلم عامة، بسبب مشاعر الذنب أمام المعاناة العراقية، كما بدافع التعاطف.

ومعروف أن الضغط النفسي قد يكون شديداً إذا أصيب إنسان ما بصدمة جراءه، مما يؤدي إلى اضطرابات نفسية أخرى شديدة تفقد الفرد توازنه وتوافقه. ولذا فغالباً ما يتحدث علماء النفس عن الاضطرابات التي تصاحب أو تعقب التعرض للصدمات والأزمات الشديدة، ويسمون ذلك 'اضطراب الضغوط التالية للصدمة' (Posttraumatic Stress Disorder-PTSD). فقد أشار الشربيني (2003) مثلاً أن هذه الاضطرابات تصيب 25٪ من الذين

يتعرضون للمواقف الصعبة والأزمات، كما أشار إلى ازدياد هذه النسبة في حالة الكوارث التي يصنعها الإنسان، مثل الحروب ومشاهد القتلى والدمار.

ومن الملاحظ أن هذه الاضطرابات غالباً ما تصيب الصغار والكبار والذكور والإناث الذين يتعرضون، سواء للكوارث الطبيعة، مثل الزلازل والفيضانات والحرائق، أو للأزمات والحوادث التي يرتكبها الإنسان، مثل الحروب وحوادث السيارات الخطيرة والاغتصاب والعنف والإيذاء الجسدي الشديد. وحسب الجمعية الأميركية للطب العقلي، فإن 10٪ من السكان في الولايات المتحدة قد شخص لديهم هذا الاضطراب. أما الذين يظهرون بعض أعراض هذا الاضطراب فقط فأكثر من هذه النسبة. وتؤكد هذه الجمعية أن إصابة الإناث بهذا الاضطراب أعلى من إصابة الذكور. وتصنف الجمعية أعراض هذا الاضطراب إلى ثلاثة أنواع: اجترار الحادثة (الكارثة)، تجنب الآخرين والانعزال، التوتر والتهيج.

وتشير هذه الجمعية إلى أن أعراض هذا الاضطراب قد تزول بمرور الوقت في بعض الحالات، إل أنّ بعضها قد يدوم لعدة سنوات.

أما في ما يتعلق بعلاج الأشخاص المصابين بالصدمات والاضطرابات المصاحبة لها؛ فتشير الجمعية إلى أن بعضهم لا يحتاج إلى أي علاج، وإنما يكفيهم للشفاء مساعدة العائلة والأصدقاء ورجال الدين. فقد أشار غيلارد وباتون (Gillard & Paton, 1999) مثلاً بعد مراجعتهما لعدة دراسات ميدانية، أن للدين دوراً كبيراً في عملية التوافق مع الصدمات التي تلي الكوارث الطبيعية، مثل الزلازل والفيضانات والأعاصير، وفي عملية استعادة التوازن النفسي. وقد لاحظا ذلك عند سكان جزيرة فيجي - التي غالبا ما تتعرض للأعاصير- بغض النظر عن الدين الذي ينتمون إليهم (الإسلام، المسيحية والهندوسية). ولكن معظم ضحايا الصدمات النفسية يحتاجون إلى علاج متخصص للتخلص من الأذى النفسي الذي يعقب مشاهدة الكوارث والحوادث الخطيرة أو المشاركة فيها. ومن الأساليب المتبعة في علاج هذا الأذى النفسي: ممارسة العلاج السلوكي- المعرفي، العلاج العائلي والعلاج الجماعي.

ويقوم العلاج النفسي أساساً على تعليم الأشخاص استراتيجيات التوافق مع الضغوط؛ وهي عملية إدراكية (واعية) يقوم فيها الفرد باستجابات انفعالية وسلوكية هدفها خفض تأثير الضغوط (لازاروس، 1991).

وتؤكد دراسة حديثة قام بها فريق من الباحثين الأميركيين ميتز وغراي وبراينت (Mitz, Gray, Bryant, 2003) إلى أهمية التدخل المبكر في العلاج النفسي للصدمات النفسية، وانتهوا إلى التأكيد على أهمية الجمع بين تثقيف المصاب بالصدمة حول ردود الفعل الناجمة عن الصدمات النفسية، وتعليمهم مهارات التحكم في أعراض الضغوط والحصر(anxiety) .

ورغم كثرة الدراسات التي تعرضت لتأثير الحرب في الأطفال من مختلف النواحي، وخاصة في الناحية الوجدانية والسلوكية، إلا أن البحوث التي أجريت على تأثير الحرب في

الشباب، وخاصة طلاب الجامعات في البلدان العربية، تكاد تكون منعدمة. ومن هذا الباب جاء الإهتمام بهذا الموضوع لأهميته في عمليات الإرشاد النفسي للطلاب أثناء الأزمات كالحروب والكوارث الطبيعية.

التعريف الإجرائي للضغط النفسي (Stress) :

المقصود بالضغط النفسي في هذه الدراسة، كتعريف إجرائي، هو ردود الأفعال السلبية، وخاصة الانفعالات السلبية، كالغضب والحزن والخوف، وبعض الاضطرابات النفسية والجسمية (السيكوسوماتية) كالصداع والأرق وفقدان الشهية، وضعف التركيز وضعف المذاكرة التي لوحظت عند طلاب الجامعة أثناء اشتداد أوار الحرب في العراق، كإحدى العواقب السلبية للضغط النفسي الشديد الذي تعرض له الطلاب.

الإجراءات المنهجية للدراسة:

1- نوع الدراسة:

تعتبر هذه الدراسة من نوع البحوث الاستطلاعية الهادفة إلى استقصاء ردود فعل الطلبة على أحداث الحرب في العراق. وقد اعتمدنا على استعمال استبانة في شكل مسح:

1- لأهم الانفعالات السلبية التي شعر بها الطلاب بسبب الحرب.

2- لأهم الاضطرابات النفسية الجسمية التي عانوا منها.

3- لأهم أساليب التوافق التي اعتمد عليها الطلاب بهدف تخفيف قلقهم جراء الحرب.

4- لتأثير الحرب ومتابعة أحداثها على مذاكرة الطلاب وتركيزهم أثناء المذاكرة.

2- مجتمع البحث:

شكل مجموع طلاب جامعة الملك فهد للبترول والمعادن مجتمع هذا البحث. وقد حاولنا أن نمثل المجتمع الأصلي بسنواته الخمس المتبعة في الجامعة، وهي السنوات: التحضيرية، الأولى، الثانية والثالثة والرابعة. ويبلغ مجموع الطلاب في الجامعة حوالي عشرة آلاف طالب.

3- عينة الدراسة:

بلغ مجموع أفراد العينة المشاركين في هذا البحث 333 طالباً حسب التوزيع التالي:

السنة التحضيرية	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	المجموع
56	71	73	68	94	333

وقد تم توزيع الإستبانات حسب معاينة الصدفة في مختلف المستويات الدراسية، كما يشير إلى ذلك الجدول أعلاه، حيث تم توزيع الإستبانات في بعض الفصول الدراسية قبل بدء

الدروس، وجمعها مباشرة بعد ملئها. وقد استمر جمع البيانات من الأسبوع الأول لبدء الحرب إلى يوم واحد قبل نهايتها. وينبغي التنويه أن هذه العينة ليست عينة ممثلة للمجتمع الأصلي تمثيلاً حقيقياً، إذ لم يتم اختيارها وفق المعاينة العشوائية.

4- أداة الدراسة:

بناءً على مراجعة بعض الدراسات السابقة المتعلقة بموضوع الضغوط والصدمات النفسية، وما يصاحبها من اضطرابات، تمت صياغة إستبانة تتكون من 26 فقرة ذات علاقة بالجانب الانفعالي (الوجداني) وبالجانب السلوكي عند الطلاب الجامعيين. وقد ضمنت الإستبانة فقرة ديموغرافية واحدة تتعلق بالمستوى التعليمي للطلاب، مع العلم أن في الجامعة خمسة مستويات، كما هو مشار إليه أعلاه.

عرضت الإستبانة على ثلاثة محكمين في كلية الإدارة الصناعية في الجامعة، واقترحت بعض التعديلات في الصياغة، وتم اعتماد ستة وعشرين فقرة لقياسها في استعمال مقياس ليكرت كما هو موضح بالملحق رقم (1).

وعلى كلٍّ، وبالرغم من أنه لم يكن من أهداف هذه الدراسة مدى ثبات وصدق الأداة المستعملة، إلا أن الصدق الظاهري بادٍ في الإستبانة، كما أن الارتباطات بين معظم فقرات الاستبيان كانت ذات دلالة إحصائية، مما يشير إلى الاتساق الداخلي لفقرات الإستبانة.

وقد أخضعت فقرات الإستبانة لدراسة ثباتها بتطبيق معامل كرونباخ، كما تم تحليل العوامل المشكلة للضغوط النفسية، وتأثيرها في مذاكرة الطلاب بواسطة التحليل العاملي، كما سيبين ذلك عند تحليل النتائج.

يشار إلى أن أهم المتغيرات التي تضمنتها الإستبانة هي: 1. الانفعالات السلبية جراء الحرب. 2. الاضطرابات النفسجسمية. 3. أساليب التوافق مع أحداث الحرب. 4- تأثر المذاكرة بالضغوط المصاحبة للحرب أو المرتبطة بها.

5- أسئلة البحث:

1- ما هي أهم الانفعالات السلبية لدى الطلاب بسبب الحرب، وما مدى قوتها؟

2- ما هي أهم الاضطرابات النفسجسمية التي عاناها الطلاب، وما مدى قوتها؟

3- هل هناك زيادة في قراءة الصحف، واستعمال الإنترنت لمتابعة أخبار الحرب؟

4- هل تأثرت علاقات الطلاب مع الآخرين بسبب الحرب؟

5- ما هي أنماط السلوك التي لجأ إليها الطلاب للتوافق مع ضغوط الحرب؟

6- هل تأثر تركيز الطلاب أثناء المذاكرة بسبب الحرب؟ وما علاقة ذلك بالانفعالات السلبية؟

7- هل هناك فروق بين استجابات الطلاب تبعاً لاختلاف مستوياتهم الدراسية؟

- نتائج الدراسة:

بعد إدخال البيانات في الحاسوب باستعمال برنامج إحصائي (SPSS) تم حساب التكرارات لاستخراج نسب الإجابات لكل فقرة من فقرات الاستبيان حسب مقياس خماسي الأبعاد (من صفر إلى أربعة) (حيث يمثل رقم صفر عدم التأثر بالحرب الدائرة، ويمثل الرقم 4 التأثر بقوة شديدة بالحرب)، كما تم حساب معاملات الارتباط بين مختلف فقرات الإستبيان، بهدف معرفة الاتساق الداخلي للفقرات، واستخرج معامل كرونباخ لثبات الفقرات، ودرست العلاقة بين إجابات الطلاب عن مختلف الفقرات وعدم التركيز أثناء المذاكرة باستعمال التحليل العاملي، وتم أخيراً حساب الفروق بين إجابات الطلاب بحسب اختلاف مستوياتهم الدراسية باستعمال تحليل التباين.

وفي ما يأتي النتائج المحصل عليها انطلاقاً من الأسئلة المطروحة سابقاً.

1- ما هي الانفعالات السلبية لدى الطلاب بسبب الحرب، وما مدى قوتها ؟

ركزت الدراسة على محاولة معرفة أهم الانفعالات السلبية لدى الطلاب بسبب الحرب الدائرة في العراق، وما مدى انتشار هذه الانفعالات وقوتها. وتبين من تحليل النتائج أن أغلبية الطلاب قد شعروا بانفعالات سلبية قوية، كما سيأتي شرح ذلك أدناه.

أ – الانفعالات السلبية جراء الحرب :

1- الخوف من انعكاسات الحرب السلبية : أجاب 37.2٪ من الطلاب أن شعورهم بالخوف كان قويًا جداً، بينما أجاب 35.3٪ بأنهم شعروا بخوف قوي. وبالتالي فإن مجموع الذين شعروا بخوف، سواء كان قوياً أم قوياً جداً هو 72.5٪ بينما لم تتعدَّ نسبة الذين أجابوا بأنه لا تأثير للخوف من الانعكاسات السلبية للحرب عليهم 5٪.

2-الحزن بسبب عواقب الحرب وضحاياها : أجاب 67.7٪ من الطلاب أنهم شعروا بحزن قوي جداً بسبب عواقب الحرب وضحاياها، بينما شعرت نسبة 23.8٪، بحزن قوي . وبجمع هاتين النسبتين يتبين أن 91.5٪ من مجموع أفراد العينة شعروا بالحزن بسبب عواقب الحرب وضحاياها ، ولم تبلغ نسبة الذين قالوا بأن لا تأثير للحرب على (حزنهم) إلا 3.9٪ ويلاحظ هنا أن الاستجابة بانفعال الحزن أعلى من الاستجابة بانفعال الخوف .

3-الغضب بسبب الحرب : الشعور بالغضب بسبب الحرب تماماً مثل الشعور بالحزن على الاستجابات القوية، حيث قالت نسبة 67.7٪ من الطلاب المشاركين في البحث أنها شعرت بغضب قوي جداً بسبب الحرب، وأجابت نسبة 23.8٪ بأنها شعرت بغضب قوي ليبلغ بذلك مجموع من قالوا بأنهم شعروا بغضب قوي جداً، وبغضب قوي 91.5٪.

4- تغير المزاج بسرعة : أجابت نسبة 26.9٪ بأنها عانت تغير المزاج بسرعة بسبب الحرب، بينما عانت نسبة 15.6٪ من تغير سريع في المزاج بدرجة قوية جداً، وبالتالي فإن مجموع

الذين عانوا من تغير المزاج بسرعة بسبب الحرب هي 42.5٪، أما الذين لم يتغير مزاجهم بسرعة فنسبتهم 18.2٪.

5- الشعور بالذنب : لقد شعرت نسبة 29.2٪ من الطلاب بالذنب بقوة، بينما شعرت نسبة 26.2٪ منهم بالذنب بقوة شديدة، ليبلغ بذلك مجموع الذين شعروا بالذنب بقوة، أو بقوة شديدة 55.8٪، بينما نسبة الذين لم يشعروا بالذنب هي 14.6٪.

6- الشعور بالخجل : أجابت نسبة 25.8٪ من الطلاب أنهم شعروا بخجل قوي جداً، بينما شعرت نسبة 27.2٪ بخجل قوي، ليبلغ مجموع النسبتين 53٪. أما الذين لم يشعروا بالخجل فنسبتهم هي 17.1٪.

7- التوتر والعصبية (النرفزة): شعرت نسبة 19.6 ٪ بالتوتر والعصبية بقوة شديدة، بينما شعرت نسبة 24.9٪ بالتوتر والعصبية بقوة ليبلغ مجموع النسبتين 44.5٪. أما الذين شعروا بالتوتر والعصبية بدرجة ضعيفة فهي 26٪، في حين أن نسبة الذين لم يشعروا بالتوتر والعصبية جراء الحرب هي 17.6٪.

8- الشعور بالكراهية : بلغت نسبة الذين شعروا بالكراهية بقوة شديدة تجاه الحرب ومسبباتها وعواقبها 54.4٪، بينما نسبة الذين شعروا بالكراهية بقوة هي 22.9٪ ليبلغ مجموع النسبتين 77.3٪ . أما الذين لم يشعروا بالكراهية فنسبتهم 7.2٪ فقط.

9- الشعور بالحقد: كان الشعور بالحقد من أعلى الاستجابات أيضاً، حيث أجاب 50.8٪ بأن شعورهم بالحقد كان قوياً جداً، بينما قال 25.1٪ من الطلاب إنهم شعروا بالحقد بقوة ليبلغ مجموع هاتين النسبتين 75.9٪ . أما الذين لم يشعروا بالحقد فنسبتهم كانت 8٪ فقط .

10- الإصابة بالصدمة من المناظر البشعة للحرب : صرح 52.5٪ من الطلاب أن إصابتهم بالصدمة من المناظر البشعة للحرب كانت قوية جداً، بينما أجاب 26٪ أن إصابتهم بالصدمة كانت قوية، مما يجعل مجموع النسبتين 79.3٪، أما الذين لم يصابوا بالصدمة جراء المناظر البشعة للحرب فلم تتعد نسبتهم 5.5٪.

وإذا أردنا ترتيب الانفعالات التي شعر بها الطلاب بحسب قوة ورودها باستعمال النسب المئوية، فقد كانت كالتالي:

1- الشعور بالحزن والشعور بالغضب بنسبة 91.5٪ لكل منهما.

2- الشعور بالصدمة من المناظر البشعة للحرب بنسبة 79.3٪.

3- الشعور بالكراهية بنسبة 77.3٪.

4- الشعور بالحقد بنسبة 75.9٪.

5- الشعور بالخوف بنسبة 50.72 ٪

6- الشعور بالذنب بنسبة 55.8٪.

7- الشعور بالخجل بنسبة 53.3٪.

8- الشعور بالتوتر والنرفزة بنسبة 44.5٪.

9- تغير المزاج بسرعة بنسبة 42.5٪.

ب – الاضطرابات النفسجسمية جراء الحرب:

وقد اشتملت هذه الاضطرابات على ما يلي:

1- **اضطرابات النوم بسبب الحرب:** أجاب 25.9٪ من الطلاب أنهم عانوا اضطرابات النوم بسبب الحرب؛ وقد كان ذلك إما بصفة قوية جداً 8.8٪ أو بصفة قوية 17.1٪ . بينما قالت نسبة 30.4٪ أنهم عانوا اضطرابات نوم خفيفة. أما نسبة 31.5٪ فلم يصابوا باضطرابات النوم بسبب الحرب .

2- **الإصابة بالصداع بسبب الحرب:** قال 22.6٪ من الطلاب إنهم أصيبوا بالصداع جراء الحرب؛ وقد كان ذلك إما بصفة قوية جداً 9.1٪ أو بصفة قوية 13.5٪، بينما كانت نسبة الذين عانوا صداعاً بصفة خفيفة 29.8٪، أما الذين لم يشعروا بصداع بسبب الحرب فنسبتهم 36.7٪.

3- **الإصابة باضطرابات في الجهاز الهضمي:** أجاب 11.9٪ من الطلاب أنهم أصيبوا باضطرابات قوية جداً في الجهاز الهضمي، بنسبة 6.1٪، وباضطرابات قوية بنسبة 5.8٪، ليبلغ مجموعهما 18٪، بينما أصيب 24٪ باضطرابات خفيفة في الجهاز الهضمي، ونسبة 12.2٪ باضطرابات ضعيفة جداً، بينما أجاب 51.7٪ بأنهم لم يصابوا باضطرابات في الجهاز الهضمي بسبب الحرب .

4- **زيادة أو نقص الأكل بسبب الحرب:** أجاب 42٪ من الطلاب أن الحرب لم تسبب أي زيادة أو نقصان في أكلهم، ولكن نسبة 6.9٪ قالت بأن الحرب قد أدت إلى زيادة أو نقصان أكلهم بقوة شديدة بسبب الحرب، بينما أجابت نسبة 12.2٪ بأن هذا السلوك قد حدث لديهم بقوة، مما يجعل نسبة الذين تأثر أكلهم بسبب الحرب زيادة أو نقصاناً هي 19.1٪.

وهكذا يمكن أن نلاحظ أن أهم الاضطرابات النفسية-الجسمية التي عانى منها الطلاب بسبب الحرب حسب قوتها هي:

1- اضطرابات النوم بنسبة 25.9٪.

2- الإصابة بالصداع بنسبة 22.6٪.

3- زيادة الأكل أو نقصه بسبب الحرب بنسبة 19.1٪.

4- اضطرابات في الجهاز الهضمي بنسبة 18٪.

جـ - توتر العلاقات مع الآخرين بسبب الحرب:

أكدت نسبة 7.2٪ من الطلاب أن علاقاتهم مع الآخرين قد توترت بقوة شديدة بسبب الحرب، بينما توترت هذه العلاقات عند 6.9٪ بقوة، مما يجعل مجموع النسبتين هو 14.1٪ . أما الذين لم تتأثر علاقاتهم بالآخرين بسبب الحرب فقد كانت نسبتهم 48.1٪ بينما كانت نسبة الذين توترت علاقاتهم مع الآخرين بصفة خفيفة 25.4٪ .

د - تأثر الدراسة بسبب الحرب:

1- **عدم التركيز أثناء المذاكرة بسبب الحرب:** لقد تأثر تركيز الطلاب أثناء المذاكرة بسبب الحرب بصفة واضحة، حيث قال 2.9٪ من الطلاب أنهم عانوا عدم التركيز أثناء المذاكرة بسبب الحرب بصفة قوية، بينما عانى 15.7٪ من عدم التركيز أثناء المذاكرة بسبب الحرب بصفة قوية جداً . أما الذين قالوا بأن تركيزهم أثناء المذاكرة لم يتأثر بسبب الحرب، فنسبتهم كانت 17.4٪، بينما كانت نسبة الذين تأثر تركيزهم أثناء المذاكرة بصفة خفيفة 25.1٪ .

2- **انخفاض الوقت المحدد للمذاكرة:** صرح 57.4٪ من الطلاب أن الوقت المحدد للمذاكرة لديهم قد انخفض بسبب الحرب؛ وذلك بصفة قوية وبنسبة 33.1٪، وبصفة قوية جداً بنسبة 24.4٪. أما الذين لم ينخفض لديهم الوقت المخصص للمذاكرة بسبب الحرب فنسبتهم 14.4٪، بينما نسبة الذين انخفض لديهم وقت المذاكرة بصفة ضعيفة هي 20.7٪. ولاغرو، فإن هذا الانخفاض سببه تخصيص وقت أكثر للإطلاع على أخبار الحرب بمختلف وسائل الإعلام، كما سيبدو أدناه .

هـ - متابعة أخبار الحرب:

وقد تمثل هذا البعد في الفقرات التالية :

1- **ازدياد فترة مشاهدة التلفاز لمتابعة أخبار الحرب:** لقد ازداد الوقت الذي خصصه الطلاب لمشاهدة التلفاز لمتابعة الأخبار بنسبة عالية، حيث بلغت 86.2٪، وذلك إما بنسبة 62.7٪ (ازدياد قوي جداً) أو بنسبة 23.5٪ (ازدياد قوي) . أما الذين قالوا بأنه لا تأثير للحرب في فترة مشاهدة التلفاز لمتابعة أخبار الحرب عندهم فلم تتجاوز نسبتهم 5.2٪.

2- **ازدياد استعمال الإنترنت:** وكما ازدادت فترة مشاهدة التلفاز لمتابعة أخبار الحرب، فقد ازداد أيضاً استعمال الإنترنت لمتابعة أخبار الحرب، حيث صرح 55.8٪ من الطلاب أيضاً أن استعمال الإنترنت قد ازداد لمتابعة أخبار الحرب؛ وذلك إما بصفة قوية جداً 32.3٪ أوبصفة قوية 21.5٪. أما الذين ازداد عندهم استعمال الإنترنت بصفة ضعيفة، فنسبتهم 23.5٪، بينما نسبة الذين لم يزدد عندهم استعمال الإنترنت هي 12.4٪ .

3- **ازدياد قراءة الصحف:** أشار 51.3٪ من الطلاب إلى ازدياد قراءتهم للصحف لمتابعة أخبار الحرب؛ وذلك إما بصفة قوية جداً بنسبة 27.3٪، أو بصفة قوية بنسبة 24٪. أما

الذين كانت زيادة قراءة الصحف لديهم طفيفة فهي 22.7 ٪، في حين أن الذين لم تزدد لديهم قراءة الصحف لمتابعة أخبار الحرب هي 14.6٪.

وهكذا نلاحظ أن متابعة أخبار الحرب كانت بمشاهدة التلفزة أولاً (86٪)، وباستعمال الإنترنت ثانياً (55.8٪) وبقراءة الصحف ثالثاً (51.3٪)، علماً بأن كل هذه الوسائل متوافرة للطلاب في الجامعة.

9 – **أنماط التوافق مع قلق الحرب:**

وقد اشتمل هذا البعد على الفقرات التالية ونتائجها :

1- **استعمال أدوية أو عقاقير مهدئة بسبب الحرب:** كانت نسبة الذين لجأوا لاستعمال أدوية أو عقاقير مهدئة بسبب الحرب نسبة عالية، حيث بلغت (71.3٪)، في حين أن نسبة الذين ازداد لديهم استعمال الأدوية والعقاقير المهدئة بصفة ضعيفة جداً، وضعيفة هي 22.3٪.

2- **اللجوء إلى الصلاة والدعاء:** أجاب 70.1٪ أن لجوءهم إلى الصلاة والدعاء قد ازداد بسبب الحرب، وقد تمثلت تلك الزيادة بصفة قوية جداً بنسبة 30.9٪، وبنسبة قوية 39.2٪، في حين أن نسبة الذين ازداد لديهم اللجوء إلى الصلاة والدعاء بصفة خفيفة هي 17.7٪، أما الذين لم يزدد لديهم اللجوء إلى الصلاة والدعاء بسبب الحرب فنسبتهم 7.2٪ .

3- **ازدياد التدخين بسبب الحرب (بالنسبة للمدخنين):** أجاب 12.7٪ من الطلاب أن التدخين قد ازداد لديهم بقوة شديدة بسبب الحرب، في حين أن نسبة الذين ازداد لديهم التدخين بصفة قوية هي 5.8٪، ليبلغ مجموعهم 18.5٪، في حين أن نسبة الذين ازداد لديهم التدخين بصفة ضعيفة، أو ضعيفة جداً، هي 15.5٪. أما الذين لم يزدد لديهم التدخين بسبب الحرب فهم الأغلبية 64.2٪، مما يدل على أن التدخين ليس من أنماط التوافق التي يلجأ إليها الطلاب عند تعرضهم لقلق الحرب . وقد يرجع انخفاض نسبة ازدياد التدخين إلى مشاركة المدخنين في الإجابة عن هذا السؤال بالرغم من توجيهه للمدخنين فقط .

4- **ازدياد تناول الشاي والقهوة وغيرهما من المنبهات:** لقد ازداد تناول الشاي والقهوة بسبب الحرب بصفة قوية جداً بنسبة 11٪، بينما ازداد بقوة بنسبة 10.2٪ ليبلغ مجموع النسبتين 21.2٪، أما نسبة الذين ازداد لديهم تناول القهوة والشاي بصفة ضعيفة، أو ضعيفة جداً، فهي 24.3٪، في حين أن الذين لم يزدد لديهم تناول الشاي والقهوة بسبب الحرب هم الأغلبية بنسبة 50.6٪ . ويدل هذا أيضاً أن تناول الشاي والقهوة ليس من أنماط التوافق الأساسية مع قلق الحرب عند عينة البحث . ((للمناقشة)) .

– هل هناك علاقة بين 'عدم التركيز أثناء المذاكرة بسبب الحرب' والانفعالات السلبية والاضطرابات النفسجسمية، وأنماط التوافق مع قلق الحرب ؟

لقد وجد من خلال تطبيق معامل الارتباط (سبيرمان) أن المتغير رقم 5 وهو 'عدم التركيز أثناء المذاكرة بسبب الحرب' قد ارتبط ارتباطاً ذا دلالة إحصائية بكل المتغيرات المذكورة أعلاه من رقم 1 إلى رقم 24 (انظر الملحق رقم 2) بالشكل التالي:

1- كلما ازداد خوف الطلاب وحزنهم وغضبهم، وغير ذلك من الانفعالات السلبية المشار إليها سابقاً، كلما ازداد لديهم 'عدم تركيزهم أثناء المذاكرة'.

2- كلما ازدادت اضطرابات الطلاب النفسجسمية المشار إليها أعلاه، كلما ازداد لديهم 'عدم تركيزهم أثناء المذاكرة'.

3- كلما ازداد اعتمادهم على مختلف أنماط التوافق المذكورة أعلاه، كلما ازداد لديهم 'عدم تركيزهم أثناء المذاكرة'.

4- هناك علاقة ارتباط إيجابية بين 'عدم التركيز أثناء المذاكرة' و 'انخفاض الوقت المحدد للمذاكرة'.

وتنبغي الإشارة إلى أن وجود علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين متغيرين لا يعني بالضرورة وجود علاقة سببية بينهما؛ ولذا ينبغي التفطن إلى هذه الفكرة، خاصة عند قراءة العلاقة الارتباطية بين 'عدم التركيز أثناء المذاكرة بسبب الحرب' و 'أنماط التوافق' المذكورة أعلاه. وللتأكد من تأثير مختلف العوامل المذكورة أعلاه في مذاكرة الطلاب، وفي كيفية إدارتهم لأوقاتهم خلال مدة الحرب المتسمة بالقلق والضغط النفسي الكبير قمنا بالتحليل العاملي.

التحليل العاملي:

بيَّن التحليل العاملي بأسلوب تدوير المتغيرات أنه من الممكن توزيع فقرات الإستبانة إلى أربعة عوامل مشبعة إحصائياً وهي:

1- **اضطرابات نفسية-جسمية:** اشتملت هذه الاضطرابات على ما يلي:

الإصابة بالصداع من جراء الحرب الإصابة باضطرابات في الجهاز الهضمي- اضطرابات النوم- ازدياد التدخين (بالنسبة للمدخنين) ازدياد تناول الشاي والقهوة وغيرهما من المنبهات- تغير المزاج بسرعة- الشعور بالتوتر والعصبية (النرفزة)- توتر العلاقات مع الآخرين.

2- **اضطرابات انفعالية خارجية:** الشعور بالكراهية- الشعور بالحقد- الخوف من انعكاسات الحرب- الحزن بسبب عواقب الحرب وضحاياها- الغضب بسبب الحرب- الإصابة بالصدمة من المناظر البشعة للحرب.

3- **اضطرابات انفعالية داخلية:** تضمن هذا العامل شعورين اثنين هما: الشعور بالذنب والشعور بالخجل. ورغم أن الشعور بالذنب والخجل عبارة عن اضطرابين انفعاليين، إلا أن

هذين الشعورين قد ظهرا كعامل مستقل عن باقي العوامل؛ وقد يرجع ذلك إلى كون هذين الانفعالين موجهين للذات أو للداخل كشعور داخلي، بينما الاضطرابات الانفعالية الخارجية المذكورة أعلاه موجهة لمصادر خارجية، أو ناجمة عن أسباب خارجية).

4- **إدارة الوقت والمذاكرة:** ازدياد فترة مشاهدة التلفاز لمتابعة أخبار الحرب- ازدياد استعمال الإنترنت لمتابعة أخبار الحرب- ازدياد قراءة الصحف- انخفاض الوقت المحدد للمذاكرة- عدم التركيز أثناء المذاكرة بسبب الحرب.

وبعد التحليل العاملي تم استبعاد فقرة رقم 10، وهي الفقرة الخاصة باللجوء إلى الصلاة والدعاء، حيث كانت درجة تشبعها ضعيفة 49.). وعليه، فإن كل فقرات الإستبانة مشبعة بدرجة مقبولة ما عدا الفقرة رقم 10 (انظر الملحق رقم 2).

وقد تبين أن معامل ثبات كرونباخ (ألفا) للإستبانة يساوي 0.88 وهي درجة عالية.

ولدراسة العلاقة السببية بين مختلف الاضطرابات التي تعرض لها الطلاب كمتغيرات مستقلة وإدارة الوقت والمذاكرة كمتغير تابع، قمنا بتحليل التباين بين هذه المتغيرات، فكانت النتيجة دالة عند 0.01؛ مما يبين أن المتغير المستقل (الاضطرابات النفسية-الجسمية والاضطرابات الانفعالية الخارجية والاضطرابات الانفعالية الداخلية) قد أثرت بقوة، وبدلالة إحصائية كبيرة، في إدارة الوقت، ومذاكرة الطلاب (المتغير التابع).

وعليه، فإن تأثير ضغوط الحرب على صحة الطلاب النفسية وسلوكهم، وبالتالي على مذاكرتهم ودراستهم، كان تأثيراً سلبياً كبيراً. وتتماشى هذه النتيجة مع الدراسات السابقة التي بينت التأثيرات السلبية للصدمات النفسية ومختلف الضغوط التي يتعرض لها الأفراد والجماعات في حياتهم المهنية والإجتماعية، وغيرها، في صحتهم النفسية، وفي سلوكهم عامة، وفي أدائهم خاصة.

- هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين إجابات الطلاب بناءً على اختلاف مستوياتهم الدراسية ؟

لم تظهر من خلال تطبيق تحليل التباين ذي الاتجاه الواحد (One-way anova) أية فروق ذات دلالة إحصائية بين مختلف إجابات الطلاب، رغم تباين مستوياتهم الدراسية، مما يدل على أن الطلاب الجامعيين متفقون في إجاباتهم بالرغم من تباين مستوياتهم الدراسية التي تراوحت من السنة التحضيرية إلى السنة الرابعة، كما يدل على ذلك الجدول التالي :

التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	مربع المتوسط	ف	الدلالة
بين	14.132	4	14.362	1.664	0.158

المجموعات					
داخل المجموعات	705.454	327	705.454		
المجموع	719.816	331	719.816		

مناقشة النتائج:

تبين النتائج المذكورة أعلاه أن طلاب الجامعة قد عانوا فعلاً من ضغوط نفسية، تتعلق أساساً باجترار مرارة انفعالات سلبية عدة، تمثلت أساساً في الحزن والغضب والخوف والحقد والإصابة بالصدمة. وقد ارتبط الشعور بالصدمة، وما صاحبها من انفعالات سلبية، بأعراض 'الضغوط التالية للصدمة' المذكورة في الدراسات السابقة، ولكنها لم تكن شديدة لحسن الحظ عند أغلبية أفراد العينة.

وبينت الدراسة أن أهم أنماط التوافق التي لجأ إليها الطلاب لتخفيف وطأة الضغوط التالية لإصابتهم بالصدمة النفسية جراء المناظر المرعبة والخوف من انتقال مسرح الحرب إلى بلدان أخرى مجاورة، قد تمثلت أساساً في استعمال أدوية أو عقاقير مهدئة، مما قد يؤدي إلى إدمان الطلاب عليها، وحدوث مضاعفات سلبية جراء ذلك في سلوك الطلاب إن لم يتلقوا التوجيه والإرشاد الضروريين في الوقت المناسب.

ولكن نسبة مماثلة تقريباً من الطلاب قد لجأت إلى الصلاة والدعاء، أو ما قد نصطلح عليه بتجنيد الجانب الروحي في الشخصية، كأسلوب للتوافق مع الضغوط الشديدة، ومع الأعراض التالية للشعور بالصدمة؛ وهذا ما يتفق مع ما ذكرته بعض الدراسات السابقة حول أهمية الدين والجانب الروحي عموماً في تخفيف الصدمات النفسية والتوافق معها.

ومن أهم نتائج هذه الدراسة توضيح العلاقة الارتباطية بين الانفعالات السلبية التي عاناها الطلاب، وعدم التركيز في مذاكرتهم، مما أدى إلى انخفاض مستوى المذاكرة من ناحية الكم والكيف. ويمكن تفسير انخفاض عملية المذاكرة من ناحية الكم بانخفاض الوقت المحدد لها بسبب ارتفاع نسبة الوقت المخصص لمتابعة أخبار الحرب من خلال مختلف وسائل الإعلام، وخاصة الفضائيات والجرائد. أما انخفاض مستوى المذاكرة من ناحية الكيف؛ فقد تمثل في ضعف التركيز أثناء المذاكرة، كما صرح بذلك الطلاب أنفسهم، حيث وجدت علاقة ارتباط إيجابية ذات دلالة إحصائية بين 'عدم التركيز أثناء المذاكرة' و 'انخفاض الوقت المحدد للمذاكرة'. وتدل هذه النتيجة على تأثر الجانب العقلي (المعرفي) المتمثل في التركيز والتذكر.

وقد أوضحت الدراسة أنه إلى جانب تأثر الجانب العقلي تأثراً سلبياً جراء ضغوط الحرب، فقد تأثرت أيضاً وبصورة سلبية الجوانب الأخرى في الشخصية، مثل الجوانب الوجدانية والاجتماعية (توتر العلاقات مع الآخرين).

ورغم أهمية نتائج البحث الاستطلاعي هذا، باعتباره بحثاً رائداً في الموضوع، وباعتباره منطلقاً لتوليد ولصياغة فرضيات أكثر دقة لاختبارها في بحوث أخرى، باستعمال عينات ممثلة للمجتمع الأصلي في أحوال مماثلة لأحوال الحرب عندما تقع كوارث طبيعية، أو أزمات شديدة من فعل الإنسان؛ فإن أهم أهداف ونتائج هذا البحث تبقى مرتبطة بجانب الإرشاد النفسي للطلاب قبل وأثناء وبعد وقوع الحروب والكوارث الطبيعية، حيث تطرح ضرورة تزويد الجامعات بمراكز للتوجيه والإرشاد النفسي، تكون من مهامها مساعدة الطلاب وتدعيمهم نفسياً أثناء الأزمات الشديدة والكوارث المريعة.

ومن أهم عمليات التدعيم النفسي لهذه المراكز توفير المعلومات الضرورية والكافية للطلاب حول موضوع الأزمات الشديدة أو الكوارث حتى لا يقع الطلاب فريسة للقلق والضغوط، وما يصاحب ذلك من اضطرابات نفسية وجسمية، وضعف في المذاكرة والتحصيل الدراسي، وإهمال للمسؤوليات الملقاة على عاتقهم.

وفي الواقع، فقد جاء بعض الطلاب إلى مركز التوجيه والإرشاد في الجامعة وهم يعانون بعض الأعراض التالية للصدمة النفسية، وصلت بأحدهم إلى إبداء الرغبة في مغادرة الجامعة نهائياً، فتم إقناعه بضرورة حذف سداسي واحد، وأخذ استراحة وفترة نقاهة، على أن يعود بعدها للدراسة وهو ما تم بالفعل.

وأخيراً، فإنه لا يمكن تعميم نتائج هذا البحث على كل الطلاب في المملكة، بل وحتى على كل الطلاب في الجامعة التي أجري فيها البحث. وعليه، ينبغي قراءة هذه النتائج باعتبارها نتائج بحث ميداني استطلاعي؛ وهي نتائج محدودة من حيث الزمان والمكان والموضوع، وإن كانت نتائج البحث قد تؤدي إلى توليد فرضية عن العلاقة بين التأثيرات السلبية لمتابعة أخبار الحرب (عن طريق الفضائيات والإنترنت مثلاً) ومذاكرة الطلاب في الجامعات؛ مما يتطلب فحص هذه الفرضية في أطر ثقافية مختلفة.

المراجع العربية:

1- الشربيني، لطفي (2003): صدمات الأزمات والحروب وآثارها النفسية، مجلة الطب النفسي: النفس المطمئنة، السنة 18، عدد 75، ص26-27.

2- النابلسي، محمد أحمد (2004): سيكولوجيا الحروب والكوارث – الآثار النفسية لممارسات الاحتلال على الجمهور العراقي. مجلة الثقافة النفسية المتخصصة. عدد 59، مجلد 15. مركز الدراسات النفسية والنفسية-الجسدية، لبنان.

3- محمد مرسي، محمد مرسي (2004): تأثير النزاعات المسلحة على الأطفال عبر الفضائيات. مجلة التربية القطرية الصادرة عن اللجنة الوطنية للتربية والثاقفة والعلوم، عدد 148، ص: 300-311.

-Gillard, M.; Paton, D. (1999). Disaster stress following a hurricane: the role of religious differences in the Fijian Islands. The Australian Journal of Disaster and Trauma Studies, vol. 1999-2.

-Lazarus, R. S. (1991). Emotion and adaptations. New York: Oxford University Press.

-Lazarus, R. S., & Folkman, S. (1984). Stress, appraisal and coping. New York:Springer.

-Selye, H. (1976) The stress of life, McGraw-Hill Company, New York.

-Thabet, A. M.; Abed, Y. and Vostanis, P. (2002). Emotional problems in Palestinian children living in war zone: a cross sectional study. The lancet, vol. 359, issue 9320, 25 May 2002, P.1801-1804.

-Ryan, A. N. (2002). Impact of the threat of war on children in military families. Journal of Pediatric Health Care, vol.16, n5. P.245-252.

-Litz, B.; Gray, M. Early Intervention for Trauma: Current Status and Future Directions.

-National Center for PTSD, This report is currently in press at Clinical Psychology: Science and Practice and is posted with permission in National Center of PTSD website.

Note: American Psychiatric website: www.psych.org.

العلاج النفسي للأسرى
وضحايا العدوان

المؤلف: محمد أحمد النابلسي.

الناشر: مركز الدراسات النفسية 2001.

يسجل للمؤلف سبق إصداره لأول الكتب العربية الباحثة في موضوع الحروب وضحاياها على المستويات النفسية والسيكوسوماتية. فقد أصدر النابلسي دراسته عن الحرب اللبنانية في العام 1985 وهي استخدمت مرجعا في غالبية الدراسات التي تناولت هذه الحرب.

كما كان للمؤلف السبق في نشر أول الترجمات للبحوث العالمية في هذا المجال ونشرها تحت عنوان – الصدمة النفسية / علم نفس الحروب والكوارث – في العام 1992.

أيضا شارك المؤلف ببحوث في هذا المجال وذلك في عدة مؤتمرات عربية وعالمية.

هذا السبق، متعدد الصعد، يكرس الدكتور محمد أحمد النابلسي كمؤسس لفرع سيكولوجية الحروب والكوارث في الوطن العربي.

ويأتي هذا الكتاب ليتوج أعمال المؤلف في المجال حيث يركز على موضوعين هامين هما رعاية الأسرى ومعاناة الضحايا من الوساوس المرضية ومخاوف الموت التي تنتشر بصورة وبائية في المجتمعات المتعرضة للحروب والكوارث. مما يجعل من هذا الكتاب ضرورة ملحة لكل معالج عامل في هذه المجتمعات.

بحث

التحليل النفسي
وحركة الثقافة المعاصرة

المؤلف: بول ريكور

ترجمة: منذر عياشي

ثمة قضية مهمة تتعلق بمكان التحليل النفسي في حركة الثقافة المعاصرة، وإنها لتتطلب مقاربة محدودة وكاشفة عن الجوهري في الوقت نفسه، أما محدودة، فذلك إذا كان عليها أن تفسح المجال للمناقشة والتحقيق. وأما كاشفة، فذلك إذا كان عليها أن تعطى فكرة سعة الظاهرة الثقافية التي تمثلها التحليل النفسي بيننا. وإن إعادة قراءة لنصوص فرويد عن الثقافة لتستطيع تقديم مثل هذه المقاربة. وتؤكد هذه المحاولات فعلاً أن التحليل النفسي لا يتعلق بالثقافة بشكل تابع أو غير مباشر. وبعيداً عن أن يكون تفسيراً لنفايات الوجود الإنساني، وظهور البشر، فإنه يبين قصده الحقيقي عندما يرتفع إلى مستوى التأويل الثقافي؛ وذلك بتفجير الإطار المحدود للعلاقة العلاجية بين المحلل ومريضه. ويعد هذا الجزء الأول من عرضنا جوهرياً بالنسبة إلى الأطروحة التي نريد إنشاءها في ما بعد، أي أنها تتسجل بصفتها تأويلاً للثقافة في حركة الثقافة المعاصرة، وذلك لأن التأويل الذي تعطيه عن الإنسان يصب بشكل أساس مباشر في مجمل الثقافة. وإن التأويل ليصبح معها لحظة من لحظات الثقافة. وهي إذ تؤول العالم، فإنها تغيره.

إنه لمن المهم، إذن، أن نبين أن التحليل النفسي هو التأويل في الثقافة في مجموعها، وليس تفسيرًا شاملاً. وسنقول في ما بعد إن وجهة نظره محدودة. وسنقول أيضاً إنها لم تعثر بعد على مكانها في كوكبة تأويلات الثقافية. وهذا ما يجعل من معنى التحليل النفسي معنى معلقاً، ويجعل مكانه غير محدد. ولكن هذا التأويل ليس محدداً من جهة موضوعه، الإنسان، الذي يريد أن يستحوذ عليه في كليته، وأنه ليس محدداً إلا بوجهة نظره: إن وجهة النظر هذه هي ما يجب فهمه ووضعه في مكانه. وإنني لأقول بكل إرادة، وأنا أتذكر سبينوزا عندما كان يتكلم عن الصفات الإلهية، بوصفها 'غير متناهية في الجنس'، إن التحليل النفسي هو تأويل كلي لجنس من الأجناس. وهو بهذا المعنى يعد، هو ذاته، حدثاً في ثقافتنا.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن ما ينقصنا هو وحدة نظر التحليل النفسي هذه، وذلك عندما نقدمه بوصفه فرعاً من علم النفس الذي امتد بالتدريج، من علم النفس الفردي إلى علم

النفس الاجتماعي، وإلى الفن، وإلى الأخلاق، وإلى الدين. ونجد بكل تأكيد أن النصوص العظمى للثقافة، تتراكم في القسم الأخير من حياة فرويد: 'مستقبل الوهم' كان في عام 1927، 'توعك في الحضارة' عام 1930، 'موسى والتوحيد' ما بين عام 1937 وعام 1939. ومع ذلك، فليس المقصود هو اتساع متأخر لعلم النفس الفردي فوق علم اجتماع الثقافة. فلقد كتب فرويد، منذ عام 1908، 'الإبداع الأدبي والحلم المستيقظ. 'هذيان وأحلام' في 'غراديفا جونسون' في عام 1907 'وذكريات الطفولة' لليوناردودي فنشي في عام 1910. و'الطوطم والتابو' في عام 1913، و'بواعث حالية حول الحرب وحول الموت' في عام 1915، و'الغربة المقلقة' في عام 1919، و'ذكريات الطفولة' في 'التخيل والواقع لغوته' في عام 1919. و'موسى لميكل آنجلو' في عام 1914، و'علم النفس الاجتماعي وتحليل الذات' في عام 1921 ،و 'العصاب النفسي الشيطاني في القرن السابع عشر' في عام 1923 ،و'ديستويفسكي وقاتل أبيه' في عام 1928 . وإن كبرى التدخلات في ميدان علم الجمال، وعلم الاجتماع، وعلم الأخلاق، والدين، ،هي إذن، تدخلات معاصرة بدقة لنصوص مهمة، مثل: 'في ما وراء مبدأ اللذة'، 'الأنا والهذا'، وخصوصاً لنصوص عظمى مثل: 'علم النفس الواصف'.

ويهدم التحليل النفسي في الحقيقة الحواجز التقليدية، مهما كانت المنهجيات التابعة لعلوم أخرى غير التحليل النفسي تبررها على كل حال. فهو يطبق على هذه الميادين المختلفة وجهة النظر الموحدة لهذه 'النماذج': النموذج النموذجي، والنموذج الاقتصادي، والنموذج الوراثي (عدم الوعي). وإن وجهة النظر هي التي تجعل من التأويل ذي التحليل النفسي تأويلاً كلياً ومحدوداً: كلياً لأنه ينطبق حتماً على كل الإنسانية، ومحدودة لأنه لا يمتد إلى أبعد من نموذجه (أو من نماذجه). فنحن نجد، من جهة، أن فرويد قد رفض على الدوام التمييز بين ميداني علم النفس وعلم الاجتماع، كما أكد دائماً التساوق العميق بين الفرد والجماعة، وإنه لم يحاول أن يثبت هذا على الإطلاق بوساطة أي تأمل كان حول 'الكائن' النفسي أو 'الكائن' الجماعي. إنه جعله ظاهراً فقط؛ إذ كان يطبق في كل مرة النماذج الوراثية نفسها والنموذجية الاقتصادية. ولم يزعم فرويد، من جهة أخرى، على الإطلاق أنه يعطي تفسيراً شاملاً، ولكنه يحمل إلى نتائجه القصوى تفسيراً بوساطة الأصول، ووساطة اقتضاء الغريزة الجنسية: إنه كان يقول إنني لا أستطيع أن أتكلم عن كل شيء في الآن ذاته. وإن مساهمتي لتعد متواضعة، وجزئية، ومحدودة. ولا تعد هذه التحفظات اشتراطات أسلوبية، ولكنها تعبر عن قناعة الباحث الذي يعلم أن تفسيره يعطيه، من زاوية رؤيته، هدفًا محدودًا، ولكنه مفتوح على كلية الظاهرة الإنسانية.

1. التأويل الثقافي

يجب على الدراسة التاريخية المحضة المهتمة بمتابعة فكر فرويد عن الثقافة، أن تبدأ بـ'تأويل الأحلام'، ولقد وضع فرويد ها هنا، للمرة الأولى وللأبد. إذ أوّل 'أوديب ـ الملك' لسوفكليس، و'هاملت' لشكسبير. وحدة الإبداع الأدبي، والأسطورة، في 'الإبداع الأدبي والحلم

المستيقظ': إن الانتقال غير المحسوس للحلم الليلي إلى اللعب، ومن هذا إلى الدعابة، وإلى التخيل، وإلى الحلم المستيقظ، ومن هذا أخيراً إلى الفولكلور، وإلى الأساطير، ومن ثم إلى الأعمال الفنية الحقيقية، ليجعل المرء يفكر بأن الإبداع يعد جزءاً من الديناميكية نفسها، وأنه يتضمن البنى الاقتصادية نفسها التي تتضمنها ظواهر التسوية والإرضاء المستبدل الذي يسمح بإنشائه على كل حال تأويل الأدب ونظرية العصاب النفسي. ولكن الذي ينقص من أجل الذهاب إلى أبعد من هذا، هو الرؤية الواضحة لنموذجية إجراءات الجهاز النفسي الاقتصادي للاستثمار المضاد، والذي يسمح بإعادة وضع اللذة الجمالية في ديناميكية المجموع الثقافي. وإنه لمن أجل هذا، فإننا في حدود مقال قصير، سنفصل تأويلاً يكون أكثر تنظيماً من كونه تاريخياً، وإننا سنذهب مباشرة إلى النصوص التي تعطي من الثقافة تعريفاً تركيبياً. وإنه انطلاقاً من هذه الإشكالية المركزية ليكون ممكناً تطوير نظرية عامة 'للوهم'، ووضع الكتابات الجمالية السابقة في موضعها، حيث يبقى معناها معلقاً ما ظل الدافع للظاهرة الثقافية غير مرئي. ولذا يجب 'الإغواء' الجمالي و'الوهم' الديني معاً، كما نفهم القطبين المتعارضين لبحث في التعويض هو نفسه يعد وحدًا من مهمات الثقافة.

وسأقول الشيء نفسه في كتابات الأكثر رحابة، مثل 'الطوطم والمحظور'، الذي يعيد فرويد فيه، عن التحليل النفسي، تأويل نتائج علم الأعراق، الذي كان سائداً في بداية القرن، المتعلق بالأصول الطوطيمة للدين وبأصول أخلاقنا الآمرة في المحظورات القديمة، ويمكن لهذه الدراسات الوراثية أن يعاد أخذها أيضاً في إطار أوسع للتأويل النموذجي الاقتصادي. وكذلك أيضًا، فإن فرويد في 'الوهم' وفي 'موسى والتوحيد' يشير هو نفسه إلى مكان هذا التعبير الذي لا يلامس إلا ظاهرة جزئية، وشكلاً قديماً للدين. وليس يتمثل مفتاح إعادة القراءة بشكل نسقي أكثر مما هو تاريخي لعمل فرويد، في تطويع كل التأويلات 'الوراثية' والجزئية للتأويل 'النموذجي - الاقتصادي' الذي يعطى، هو وحده، وحدة المنظور، وتتصل هذه الملاحظة الثانية المسبقة بالأولى، وتؤكدها : تمثل نظرية الوهم نقطة رسو التفسير الوراثي في التفسير النموذجي - الاقتصادي. ويتكرر القديم هنا نسجاً على طريقة 'عودة المكبوت'. وإذا كان الأمر كذلك - ولن نتبينه إلا في التنفيذ - فإن النظام النسقي التالي يفرض نفسه: يجب الذهاب من الكل إلى الأجزاء، ومن الوظيفة المركزية الاقتصادية للثقافة إلى الوظائف الخاصة 'للوهم' الديني و'للإغواء' الجمالي، ومن التفسير الاقتصادي إلى التفسير الوراثي.

1- نموذج 'اقتصادي' لظاهرة الثقافة:

ما هي الثقافة؟ لنقل أولاً، وبشكل سلبي، ليس ثمة مجال لإقامة تعارض بين الحضارة والثقافة. وإن هذا الرفض في الدخول في التمييز إذ يمر بالصيرورة الكلاسيكية ليكون هو بذاته جد مضيء. فلا يوجد، من جهة، مشروع نفعي للهيمنة على قوى الطبيعة يتمثل في الحضارة، كما لا توجد، من جهة أخرى، مهمة نزيهة، مثالية، لتحقيق القيم، تكون هي الثقافة. ويستطيع هذا التمييز، الذي امتلك معنى من وجهة نظر أخرى غير التحليل النفسي، ألا يكون

له معنى منذ اللحظة التي نقرر فيها ملامسة الثقافة من منظور موازنة الاستثمارات الشبقية المضادة.

وإن هذا التأويل الاقتصادي هو الذي يهيمن على كل التأملات الفرويدية حول الثقافة.

وأن الظاهرة الأولى التي يجب النظر إليها من وجهة النظر هذه، هي ظاهرة القسر؛ وذلك بسبب التخلي الغريزي الذي تستلزمه. وإن هذه الظاهرة هي التي ينفتح عليها 'مستقبل الوهم': يلاحظ فرويد أن الثقافة قد ابتدأت مع منع الرغبات القديمة، ومنع ارتكاب المحارم، لحم الإنسان، والقتل. ومع ذلك، فإن القسر لا يشكل الكل الثقافي،. وأن الوهم الذي يقدر فرويد مستقبله، يقوم في إطار مهمة أكثر سعة، ولا يكون التحريم فيه سوى العبارة الأشد قسوة. ويحاصر فرويد قلب هذه القضية بثلاثة أسئلة: إلى أي حد نستطيع أن نخفف حمولة التضحيات الغريزية المفروضة على البشر؟ ويمكن أن يعاد تصالحها مع تضحيات التخلي المحتومة؟ وكيف يقدم للأفراد، بالإضافة إلى هذا، تعويضات مرضية عن هذه التضحيات؟ وليست هذه الأسئلة، كما يمكن أن نعتقد بهذا بادئ ذي بدء، استفهاماً صاغه المؤلف بقصد الثقافة، إنها تكون الثقافة نفسها. وما هو موضوع التساؤل، في الصراع بين المحرم والغريزة، إنما هو هذه الإشكالية الثلاثية: تخفيف الحمولة الغريزية، وإعادة المصالحة مع المحتوم، والتعويض عن التضحية.

وإذا كان ذلك كذلك، فما هي هذه الاستفهامات، إن لم تكن استفهامات التأويل الاقتصادي؟ إننا نتفق هنا مع وجهة النظر التوحيدية التي لا تجمع فقط كل دراسات فرويد حول الفن، الأخلاق، والدين، ولكنها تربط 'علم النفس الفردي' و 'علم النفس الجماهيري'، وتجعل لهما جذوراً في 'علم النفس الواصف'.

وينتشر هذا التأويل الاقتصادي للثقافة على زمنين. ويظهر كتاب 'توعك في الحضارة' جيداً تمفصل هذه اللحظات. ويوجد، أولاً: كل ما يمكن قوله من غير لجوء إلى غريزة الموت. ويوجد، ثانياً: ما نستطيع قوله من غير أن نجعل هذه الغريزة تتدخل. ومن جانب نقطة الانقلاب هذه التي تجعله ينفتح على المأساوي في الثقافة، فإن الدراسة تتقدم بسذاجة محسوبة. ويبدو أن اقتصاد الثقافة يتلاقى مع ما نستطيع أن نسميه 'الغزل' العام: إن الأهداف التي يتابعها الفرد، وتلك التي تحييها الثقافة، تبدو بوصفها صوراً منسجمة حيناً آخر، وذلك بالنسبة إلى غريزة الحب نفسها: 'تجيب سيرورة الثقافة على هذا التغيير للسيرورة الحية المعاني منها بتأثير من المهمة التي تفرضها غريزة الحب، والتي تجعلها أنانكية مستعجلة، كما تفرضها الضرورة الواقعية، أي وحدة الكينونات الإنسانية المعزولة في جماعة توطدها العلاقات الشبقية المتبادلة.

ولقد يعني هذا، إذن، أن 'الغزل' نفسه هو الذي يصنع الرابط الداخلي للجماعة، وهو الذي يحمل الفرد لكي يبحث عن اللذة، ويهرب من الألم - أي الألم الثلاثي الذي يكبده إياه العالم، وجسده، والبشر الآخرون.

هذا وإن التطور الثقافي ليكون، مثل نمو الفرد، من الطفولة إلى سن الرشد، ثمرة غريزة الحب والأنانكية، والحب والعمل. وكذلك يجب القول: إنه ليكون من الحب أكثر مما يكون من العمل؛ والسبب لأن ضرورة الاتحاد في العمل بغية استغلال الطليعة لتعد شيئاً قليلاً، إلى جانب الرابط الشبقي الذي يوحد الأفراد في جسد اجتماعي واحد. وإنه ليبدو، إذن، أن غريزة الحب نفسها هي التي تنشط البحث عن السعادة الفردية، وهي التي تريد أن توحد البشر في مجموعات تكون على الدوام أكثر سعة. ولكن يظهر التناقض سريعاً: إن الثقافة، بوصفها نضالاً منظماً ضد الطبيعة، لتعطي الإنسان القدرة المعطاة قديماً للآلهة. ولكن هذا الشبه بالآلهة يتركه غير راضٍ؛ وعكة في الحضارة، لماذا؟ وإننا نستطيع من غير الريب، بالاستناد إلى هذا 'الشبق' العام، عن توترات معينة بين الفرد والمجتمع، ولكن ليس عن صراع جسيم يصنع مأساة الثقافة. وإننا لنفهم أيضاً أن شيئاً من الجنس الأنثوي يقاوم هذا التحول الجنسي الخاص إلى الطاقات الشبقية للرابط الاجتماعي. ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من هذا بكثير في اتجاه الأوضاع الصراعية، من غير أن نصادف مع ذلك تناقضات جذرية: تفرض الثقافة، وإننا لنعلم هذا، تضحيات في المتعة على كل جنس: تحريم زنى المحارم، كبت الجنس الطفلي، التقنين المتغطرس للجنس في الطرق الضيقة للشرعية والزواج الأحادي، وفرض أمر الإنجاب، إلى آخره.

ولكن مهما كانت هذه التضحيات متعبة، ومهما كانت هذه الصراعات معقدة، فإنها مازالت تشكل تنافساً حقيقياً. ويمكن القول في الحد الأقصى، من جهة، إن الشبق يقاوم بكل قوته الجمودية المهمة التي تفرضها الثقافة عليه، والتي هي التخلي عن مواقفه السابقة. ويقتات الرابط الشبقي للمجتمع من الطاقة المأخوذة من الجنس إلى درجة تهدده بالضمور. ولكن كل هذا لا يعد مأساوياً، وإننا نستطيع أن نحلم بنوع من الهدنة أو من التأليف بين الشبق الفردي والرابط الاجتماعي.

وكذلك ينبعث السؤال: لماذا يسقط الإنسان في أن يكون سعيداً؟

هنا يأخذ التحليل منعطفه: ها هي تنتصب أمام الإنسان قيادة غير معقولة . عليه أن يحب جاره كما يحب نفسه . ومطلباً مستحيلاً . أن يحب أعداءه . وأمراً خطيراً يرجم الحب، ويعطى علاوة للخبثاء. ويفضي إلى ضياع الحذر الذي يطبقه، ولكن هذه الحقيقة التي تتخفى خلف هذا الغباء الأمري، هو غباء الغريزة الجنسية التي تتملص من الجنس البسيط 'إن جزء الحقيقة الذي يخفيه كل هذا، والذي ننكره بإرادتنا، ليتلخص هكذا: لم يعد الإنسان ذلك الكائن السمح، وصاحب القلب المتعطش للحب، الذي نقول عنه إنه يدافع عن نفسه عندما نهاجمه، ولكنه، على العكس من ذلك، كائن يجب عليه أن يحمل على عاتق معطياته الغريزية محصولاً طبياً من العدوانية، فالإنسان هو فعلاً محاولة لإرضاء حاجته العدوانية على جاره، واستغلال عمله من غير تعويضات، واستعماله جنسياً من غير موافقته، وتملك ثرواته، وإهانته، وإنزال الآلام به، وتعذيبه، وقتله،HOMO HOMINI LUPUS (ص47).

إن الغريزة الجنسية التي تشوش علاقة الإنسان بالإنسان، ونطلب من المجتمع أن ينصب قاضياً جهنمياً هي، وقد عرفناها، غريزة الموت، والعداء الأوّلي للإنسان ضد الإنسان.

ولقد تبدل كل اقتصاد الدراسة مع دخول غريزة الموت. فبينما 'الجنس الاجتماعي' يستطيع - إلى حد ما - أنْ يظهر بوصفه الجنس الجنسي، وبوصفه انزياحاً للشيء، أو إعلاء للهدف، فإن انشطار غريزة الحب والموت على مستوى الثقافة لم يعد بإمكانه أن يظهر بوصفه اتساعاً للصراع الذي سنعرفه على نحو أفضل على مستوى الفرد. فالأمر على العكس من هذا، لأن المأساوي في الثقافة هو الذي يستخدم بوصفه كاشفاً مفضلاً إزاء منافسة تظل صامتة وملتبسة على مستوى الحياة، وعلى المستوى النفساني. وبكل تأكيد، فإن فرويد كان قد صنع نظريته عن غريزة الموت منذ عام 1920 (بعيداً عن مذهب اللذة)، وذلك من غير التركيز على الوجه الاجتماعي للعدوانية، وفي إطار بيولوجي واضح، ولكن على الرغم من الدعم التجريبي للنظرية (عصاب التكرار، اللعب الطفولي، ميل إلى عيش الوقائع المتعبة مرة أخرى، إلى آخره)، فإن النظرية تحفظ بسمة للتأمل المغامر. ولقد كان فرويد، في عام 1930، يرى بشكل واضح أكثر أن غريزة الموت تبقى غريزة صامته 'في' الكائن الحي، وأنها لا تصبح ظاهرة إلا في تعبيرها الاجتماعي في العدوانية وفي التدمير، وأنه بهذا المعنى، نقول إن تأويل الثقافة يصبح الكاشف عن منافسة الغرائز الجنسية.

وإننا لنرى أيضاً - في النصف الثاني من الدراسة - ضرباً من إعادة القراءة لنظرية الغرائزية الجنسية، انطلاقاً من تعبيرها الثقافي، وإننا لنفهم على نحو أفضل لماذا كانت غريزة الموت، على المستوى النفساني تمثل استدلالاً لا مفر منه، وتجربة لا يمكن تعيينها: إننا لا نستطيع أن نمسك بها على الإطلاق إلا في فتيلة غريزة الحب: إن غريزة الحب هي التي تستعملها، مبعدة إياها نحو شيء آخر غير الكائن الحي، وإن غريزة الحب هي التي تختلط، إذ تتخذ من السادية شكلاً. وإننا لنفاجئها أيضاً في العمل ضد الكائن الحي، وذلك من خلال الإشباع المازوخي. وباختصار، فإنها لا تخون إلا وهي مختلطة بغريزة الحب، فمرة تكون مضاعفة الشبق الغيري، ومرة تكون محملة الشبق النرجسي، وإنها لا تكون منزوعة القناع وعارية إلا بوصفها مضادة للثقافة.

ويوجد هكذا كشف تدريجي لغريزة الموت، وذلك من خلال المستويات الثلاثة: البيولوجيا، وعلم النفس، والثقافة، وإن منافسها ليكون أقل فأقل صمتاً كلما نشرت غريزة الحب أثرها؛ وذلك لكي توحد الكائن الحي أولاً مع ذاته، ثم لكي توحد الأنا مع موضوعها، وأخيراً لكي توحد الأفراد دائماً في المجموعات الأكثر كبراً. وإن الصراع بين غريزة الحب وغريزة الموت إذ يتكرر من مستوى إلى آخر، فإنه يصبح أكثر فأكثر، ولا يبلغ معناه الكامل إلا في مستوى الثقافة: 'تمثل هذه الغريزة العدائية الهبوط والممثل كرئيس لغريزة الموت، التي وجدناها في العمل إلى جانب غريزة الحب، وإنها لتتقاسم معها الهيمنة على العوالم. ويتوقف من الآن فصاعداً معنى تطور الحضارة - في رأيي - عن أن يكون مظلماً: يجب عليه أن يظهر عند النوع

الإنساني، ويمثل هذا الصراع في النتيجة المضمون الجوهري للحياة. ولذا يجب تحديد التطوير بوساطة هذه الصيغة المختصرة: معركة الجنس الإنساني من أجل الحياة. وإن صراع العمالقة هذا هو ما تريد مربياتنا أن تهدئه صائحات:

EAPOPeia von Himmel!

وليس هذا كل شيء: إذا عدنا إلى الفصل الأخير من كتاب 'وعكة في الحضارة' فسنجد أن العلاقة بين علم النفس ونظرية الثقافة مقلوبة تماماً، ولقد كان، في بداية هذه الدراسة، اقتصاد الشبق المستعار من علم النفس الواصف هو الذي يستخدم مرشداً في توضيح ظاهرة الثقافة.

ثم مع دخول غريزة الموت، فقد أخذ تأويل الثقافة وجدل الغرائز يحيل كل واحد إلى الآخر في حركة دائرية. ومع دخول الشعور بعقدة الذنب، فقد أخذت نظرية الثقافة الآن تطلق علم النفس إحساساً منها بالصدمة. ولقد دخل الشعور بعقدة الذنب فعلاً بوصف 'الأداة' التي تستخدمها الحضارة لكي تجعل العدوانية تهوي في الفشل. ومن هنا، فإن التأويل الثقافي ليذهب بعيداً إلى درجة أن فرويد يستطيع أن يؤكد أن القصد الواضح من دراسته قد كان بالتأكيد تقديم الشعور بعقدة الذنب بوصفه القضية الرئيسية لتطور الحضارة، كما كان القصد هو جعلنا نرى، بالإضافة إلى هذا، لماذا يجب على تقدم الحضارة أن يدفع الثمن بضياع السعادة التي تدين بوجودها تعزيز هذا الشعور: لقد ذكر دعماً لهذا المتصور كلمة هاملت الرائعة:

thus conscience does make cowards of us all...

وهكذا يجعلنا الوعي جبناء جميعاً

وإذا كان، إذن، الشعور بعقدة الذنب هو الأداة الخاصة التي تستخدمها الحضارة لكي تجعل العدوانية تهوي في الفشل، فليس من المدهش أن يتضمن كتاب 'وعكة في الحضارة' التأويل الأكثر تطوراً الذي يعد نسيجه بالأحرى نفسانياً.

ولكن علم النفس المتعلق بهذا الشعور لم يكن ممكناً إلا انطلاقًا من تأويل 'اقتصادي' للثقافة.

وفعلاً، فإن الشعور بعقدة الذنب، من منظور علم نفس الفرد، يبدو أنه ليس سوى أثر للعدوانية المستبطنة، المندمجة، التي أعادت الأنا العليا أخذها ضد الأنا. ولكن اقتصاده كاملاً لا يبدو إلا عندما تكون الحاجة للعقوبة موضوعة في إطار منظور ثقافي: 'تهيمن الحضارة، إذن، على اضطرام عدوانية الفرد الخطيرة؛ وذلك بإضعافه، وبنزع سلاحه، وبجعله مراقباً عن طريق محكمة قائمة في ذاته، أو الحامية الموضوعة في مدينة محتلة' (ص58.59).

وهكذا، فإن التأويل الاقتصادي - وإذا أمكننا أن نقول: التأويل البنيوي للشعور بعقدة الذنب - لا يمكن إلا أن ينشأ إلا في منظور ثقافي. وما دام هذا هكذا، فإنه في إطار هذا

التأويل البنوي فقط يمكن وضع مختلف التأويلات الوراثية وفهمها. وهي تأويلات جزئية كان فرويد قد أعدها في فترات مختلفة. وإنها لتخص قتل الأب البدئي ونشوء الندم. ويحتفظ هذا التفسير، إذا ما نظر إليه وحده، ببعض الأشياء من الإشكالية؛ وذلك بسبب الاحتمال الذي يدخله في تاريخ الشعور الذي يتمثل، من جهة أخرى، مع سمات 'لحتمية قدرية' (ص67). وتنخفض الحدة الاحتمالية لهذا المسار، كما يعيد التفسير الوراثي إنشاءه، منذ اللحظة التي يصبح فيها التفسير الوراثي ذاته ملحقاً بالتفسير البنيوي الاقتصادي: 'إنه لدقيق إذن أن حدث قتل الأب، أو العزوف عن ذلك، ليس حتمياً. ويجب أن نشعر بالضرورة بأننا مذنبون في الحالتين؛ لأن هذا الشعور هو تعبير عن صراع التعارض للنضال الخالد بين غريزة الحب وغريزة التدمير، والموت.

ولقد اشتعل هذا الصراع منذ اللحظة التي فرضت فيها على البشر مهمة العيش المشترك، وما دامت هذه الأمة فقط الشكل العائلي، فإن الصراع سيتجلى بالضرورة في عقدة أوديب، وسيشيد الوعي، وسيولد أول شعور لعقدة الذنب. وعندما تميل هذه الأمة إلى التوسع، فإن هذا الصراع نفسه يستمر كاشفاً عن أشكال تتعلق بالماضي، وتتكثف، وتفضي إلى تركيز على هذا الشعور الأول. ومثلما أن الحضارة تخضع إلى اندفاعة شبقية داخلية تهدف إلى توحيد البشر في كتلة تحافظ عليها العلاقات الوثيقة، فأنها لا تستطيع الوصول إلى هذا إلا عن طريق واحد؛ ذلك بتعميق الشعور بعقدة الذنب أكثر على الدوام. وما كان يُبتدأ بالأب، فإنه يُنهي بالكتلة. وإذا كانت الحضارة هي الطريق الضروري لكي يحدث التطور من العائلة إلى الإنسانية، فإن هذا التعميق يرتبط بلا انفكاك بمجراه، وبوصفه نتيجة لصراع الضدين اللذين نولد معهما، ونتيجة للخصومة الخالدة بين الحب ورغبة' (ص67. 68).

ويبدو في نهاية هذه التحليلات - أن وجهة النظر الاقتصادي هي التي تكشف عن معنى الثقافة. ولكن يجب، في المعنى المقابل أن نقول عن تفوق وجهة النظر الاقتصادية على كل وجهة نظر أخرى، بما في ذلك وجهة النظر الوراثية، تكون كاملة إلا عندما يغامر التحليل النفسي بنشر ديناميكية غرائزه الجنسية في الإطار الواسع لنظرية في الثقافة.

2. الوهم واللجوء إلى النموذج 'الوراثي':

إنه في داخل هذا الفلك الثقافي، والمحدد تبعاً لنموذج النموذج الاقتصادي المستعار من علم النفس الواصف، فإنه لمن إعادة موضعة ما نسميه الفن، والأخلاق، والدين ولكن فرويد لا يجابهها عن طريق موضوعها المفترض، ولكن عن طريق وظيفتها الاقتصادية. وبهذا الثمن فإن الوحدة التأويلية تكون مضمونة.

وإنه لمما يشبه 'الوهم' أن يقوم الدين في مثل هذا الاقتصاد. ويجب على المرء ألا يحتج، ولو كان فرويد العقلاني لا يعترف بما هو حقيقي إلا لما يمكن ملاحظته والتحقق منه، فليس هذا كأنه تنويعة 'عقلانية'، ولا كأنه تنويعة من 'عدم الاعتقاد'، تملكه نظرية 'الوهم' هذه عن المهم: لقد قال إبيقور، كما قال لوكريس منذ زمن طويل: إن الخوف هو الذي صنع الآلهة بادئ

ذي بدء. وتعد هذه النظرية جديدة من حيث هي نظرية في اقتصاد الوهم. فالسؤال الذي يطرحه فرويد، ليس هو ذلك السؤال الذي يطرحه الله، ولكن سؤال إله البشر ووظيفته الاقتصادية في ميزان تجليات الغرائز الجنسية، والإشاعات المستبدلة، والتعويضات التي يحاول الإنسان أن يحتمل الحياة بوساطتها.

يمثل مفتاح الوهم قساوة الحياة. وهي تكاد بصعوبة أن تكون محتملة بالنسبة إلى الإنسان، بالنسبة إلى هذا الإنسان الذي لا يفهم ويشعر فقط، ولكن الذي تجعله نرجسيته الفطرية متلهفاً للغذاء، وما دام هذا هكذا، فإن الثقافة، وقد رأينا هذا، لا تحمل فقط مهمه اختزال رغبة الإنسان فقط، ولكنها تحمل مهمة الدفاع عن الإنسان ضد تفوق الطبيعة الساحقة، ويمثل الوهم هذا المنهج الآخر الذي تستخدمه الثقافة، وذلك عندما لا يكون النضال الفعلي ضد الشرور قد بدأ، في طور عدم النجاح مؤقتاً أو نهائياً.

وحينئذ، فإنها تخلق الآلهة لكي تهزم الخوف، وتصطلح مع قساوة القدرة والتعويض عن ألم الثقافة.

ما الجديد الذي يدخله الوهم في اقتصاد الغرائز الجنسية؟

إنه بشكل جوهري نواة مثالية أو تمثيلية ـ الآلهة. وإنها لتقول بصددها بعض المزاعم ـ الدوغمائيات، أي التأكيدات التي نزعم أنها تمسك بخصوصية الوهم في ميزان الإشباع والوعكات. فالدين الذي يصنعه الإنسان لا يرضيه إلا بتوسط التأكيدات الثابتة بمصطلحات البرهان، أو الملاحظات العقلانية. ويجب على المرء حينئذ أن يسأل نفسه من أين تأتي هذه النواة التمثيلية للوهم.

هنا يدرك التأويل الإجمالي، المنضبط بالنموذج 'الاقتصادي'، التأويلات الجزئية المنجزة تبعاً لنموذج وراثي، وأن اللسان الذي يربط التفسيرات باستخدام الأصل، مع التفسيرات باستخدام الوظيفة، إنما هو 'الوهم' أي اللغز الذي يقترحه، تمثيل من غير موضوع، ولكي يعلل فرويد هذا، فإنه لا يرى مخرجاً آخر سوى تكوين الغباء. ولكن هذا التكوين بقي متجانساً بالنسبة إلى التفسير الاقتصادي: إن السمة الأساسية 'للوهم' كما يكرر، هو الانطلاق من رغبات الإنسان. ومن هنا، فقد نشأت نظرية من غير موضوع، فهل تأخذ فعاليتها، إن لم يكن من قوة الرغبة الأكثر التصاقاً بالإنسانية، فمن رغبة الأمن، التي هي الرغبة الغريبة عن الواقع؟

ويقدم كتابا: 'الطوطم والمحظور' و 'موسى والتوحيد' الترسيمة الوراثية التي لا غنى عنها للتفسير الاقتصادي، فهما يعيدان بناء الذكريات التاريخية التي تشكل ليس فقط المضمون الحقيقي ـ والذي يقوم في أصل الاعوجاج المثالي ـ ولكن المضمون 'الكامن' الذي يعطي الفرصة لعودة المكبوت، وإننا سنرى ذلك عندما سندخل الوجه شبه العصابي للدين.

فلنميز - بشكل مؤقت - بين هذين الوجهين: المضمون الحقيقي، المختفي في الاعوجاج، والذكريات المكبوتة التي تصطنع العودة تحت شكل متنكر في الوعي الديني الحالي.

يستحق الوجه الأول الانتباه: أولاً، لأنه يكيف الثاني، وأيضاً، لأنه يسمح بالإشارة إلى سمة عجيبة للفرويدية. وعلى خلاف مدارس 'إزالة الأسطرة' ، بل أكثر من هذا أيضاً . وبالتعارض مع أولئك الذي يتعاملون مع الدين بوصفه 'أسطورة' مطلية بالتاريخ، فإن فرويد يركز على 'النواة التاريخية' التي تكون أصل المبحث الوراثي للدين.

وهذا ليس مدهشاً: إن التفسير الوراثي عند فرويد يكتسب واقعية من الأصل: من تأتي سعة أبحاث فرويد وعنايتها، التي تتعلق ببدايات الحضارة، كما تتعلق ببداية التوحيد اليهودي. وإنه ليحتاج إلى سلسلة من الآباء الواقعيين الذين قتلهم أبناء واقعيون، وذلك لتغذية عودة المكبوت: 'إنني لا أتردد في التأكيد أن البشر قد عرفوا على الدوام بأنهم في يوم من الأيام قد امتلكوا أباً بدئياً وقتلوه' (موسى التوحيد، ص154).

وتشكل الفصول الأربعة من كتاب 'الطوطم والمحظور'، في نظر مؤلفها نفسه، 'المحاولة الأولى باتجاه التطبيق على بعض الظواهر التي لا تزال غامضة في علم النفس الاجتماعي، وجهات نظر التحليل النفسي ومعطياته' (المقدمة vii). وتكون وجهة نظر الوارثة، هي الغالبة بشكل ظاهر على وجهة النظر الاقتصادية، التي لا تزال غير مصنوعة بوضوح بوصفها نموذجاً. وإن المقصود هو إعطاء بيان عن القيد الأخلاقي، بما في ذلك أمر كانت' الصريح (المقدمة viii)، بوصفه بقاء لمحظورات تتعلق بطوطمية. ويقبل فرويد، تبعاً لاقتراح تقدم به تشارلز داروين، أنه في الأزمنة البدائية، كان الإنسان يعيش في عشائر صغيرة، وكانت كل واحدة منها يحكمها ذكر شديد، يتصرف بسلطة غير محدودة على هواه وبشراسة، ويحتفظ لنفسه بكل النساء، ويعاقب أو يقتل الأبناء المتمردين. وتبعاً لفرضية مستعارة من عند آتكانسون، فإن هؤلاء الأبناء يتحالفون ضده، ويقتلونه، ويلتهمونه، ليس فقط لكي يثأروا منه لأنفسهم، ولكن لكي يتطابقوا معه. وأخيراً، فإن فرويد، إذ يتبنى نظرية روبرتسون سميث، فإنه يقبل أن تخلف الجماعة الطوطمية للأخوة عشيرة الأب. ولكي لا يهلك الأخوة أنفسهم في صراعات لا طائل منها، فإنهم يقبلون على نوع من العقد الاجتماعي، وينشئون محظور ارتكاب المحارم، كما يصنعون ضوابط الزواج الخارجي. وهم، في الوقت نفسه، إذ يكابدون من التناقض الوجداني للشعور البنوي، فإنهم يعيدون إنشاء صورة الأب على شكل بديل لحيوان محظور. وحينئذ تأخذ الوجبة الطوطمية معنى التكرار الاحتفالي لقتل الأب وكانت ولادة الدين، كما كانت قديماً صورة الأب المقتول هي المركز، وإن هذه الصورة نفسها هي التي ستتبعث متخذة شكل الآلهة، بل متخذة - على نحو أفضل - شكلاً تمثيلياً لإله واحد، كلي القدرة، وصولاً إلى عودة كاملة في موت المسيح وفي التوحيد القرباني.

وهنا يتمفصل الكتاب 'موسى والتوحيد' بشكل دقيق مع كتاب 'الطوطم المحظور' سواء كان ذلك على مستوى المشروع أم على مستوى المضمون: إن المقصود، كما كتب فرويد في بداية

الدراستين المنشورتين في مجلة imago (مجلد 3، عدد1،3). هو أن يصنع المرء لنفسه رأياً مؤسساً جيداً حول أصل الأديان التوحيدية عموماً' (موسى والتوحيد،ص22).

ويجب ، من أجل هذا، إعادة تكوين حدث قتل الأب، مع شيء من الاحتمال. وسيمثل هذا القتل بالنسبة إلى النزعة التوحيدية، ما كان يمثله قتل الأب البدائي بالنسبة إلى الطوطمية.

ومن هنا، فقد جاء محاولة إعطاء جسد لفرضية 'موسى المصري'، المتشيع لعبادة آتون، الإله الأخلاقي، الكوني، المتسامح، المبنى هو نفسه وفق نموذج أمير مسالم، إن هذا البطل، بالمعنى الذي يتخذه عند أوتورانك - والذي تعد سيطرته هائلة هنا - هو الذي كان الشعب قد قتله. .

ثم إنه من المحتمل أن تكون عبادة إله موسى قد ذابت في عبادة 'يهوه'، إله البراكين، الذي ربما يكون قد أخفى فيه أصله، كما حاول هكذا أن يصنع نسيان قتل البطل.

ولقد كان الرسل حينئذ صناع عودة الإله الفسيفسائي: مع سمات الإله الأخلاقي، قد انبعث الحدث الصادم، وإن العودة إلى الإله الفسيفسائي ستكون، في الوقت نفسه، عودة للصدمة المكبوتة. وهكذا، فإننا نقف في الوقت نفسه على تفسير الانبثاق على مستوى التمثيلات، كما نقف على عودة المكبوت على المستوى الوجداني: إذا كان الشعب اليهودي قد زود الثقافة الغربية بنموذج الاتهام الذاتي الذي نعرفه؛ فذلك لأن معناه المتعلق بعقدة الذنب يتغذى من ذكرى القتل التي عمل على إخفائها في الوقت ذاته.

إن فرويد غير مستعد للتقليل من الواقع التاريخي لهذه السلسة من الأحداث الصادمة. إنه يتفهم: 'أن الجمهور يحتفظ - مثل الفرد - بانطباعات عن الماضي على شكل آثار تسمح بالتذكر غير الواعي' (مذكور سابقاً . ص44). وتعد شمولية رمزية اللسان (ص150. 153)، بالنسبة إلى فرويد، برهاناً على الآثار التي تسمح بتذكير الصدمات الكبرى للإنسانية، تبعا للنموذج الوارثي، أكثر بكثير من التحريض على سبر أبعاد أخرى للسان، وللتصور، و الأسطورة. ولذا، فإن أعوجاج هذه الذكرى ، ليعد الوظيفة الوحيدة للتخيل الذي تم سبره . وأما ما يخص هذه الشركة ذاتها، التي لا تقبل الاختزال إلى أي تواصل مباشر، فإنها تربك فرويد بكل تأكيد، ولكن يجب أن تكون مسلماً بها، إذا أردنا أن نتجاوز 'الهوة' التي تفصل علم النفس الفردي من علم النفس الجماعي، 'والتعامل مع الشعوب بالطريقة نفسها التي نتعامل بها مع الفرد العصابي وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلنتخلّ، إذن، عن التقدم خطوة واحدة في الطريق الذي نتابعه، سواء كان ذلك في ميدان التحليل النفسي، أو كان ذلك في ميدان علم النفس الجماعي. فالشجاعة هنا لا غنى عنها' (ص153). ولقد يعنى هذا، أننا لا نستطيع أن نقول، إذن، إن المقصود هنا هو فرضية إضافية: إن فرويد يرى فيها واحداً من الروابط التي يتضمن تماسك النسق: 'ثمة تقليد لا يتأسس إلا على النقل الشفاهي، وهو لا يشتمل على السمة المستحوذة الخاصة بالظاهرة الدينية' (ص155). ولذا، فإنه لا يمكن عودة المكتوب إليه إلا إذا حدث حادث صادم.

وصولاً إلى هذه النقطة، فإننا نميل إلى القول إن فرضيات فرويد التي تتعلق بالأصول هي تأويلات إضافية لا تُدخل على التأويل 'الاقتصادي' وهماً، وهو الشيء الأساس الوحيد، وهذا ليس شيئاً : إن التأويل الوراثي في الواقع هو الذي يسمح بإتمام النظرية الاقتصادية 'الوهم'. فالنظرية الاقتصادية تدمج نتائج الاستثمار المتعلقة بالأصول. وإن هذه الاستثمارات لتسمح بالإشارة إلى سمة لم توضح بعد، أي أنه الدور الذي تؤديه عودة المكبوت في تكوين الوهم. وأن هذه السمة هي التي تصنع من الدين 'العصاب الاستحواذي الشامل للإنسانية'. وما دام هذا هكذا، فإن هذه السمة لا تستطيع أن تظهر قبل أن يكون التفسير الوراثي قد اقترح وجود تماثل بين الإشكالية الدينية والوضع الطفولي. ويُذكّر فرويد أن الطفل لا يبلغ سن الرشد إلا عن طريق مرحلة، إلى حد ما متميزة، من العصاب الاستحواذي الذي يُضفي في معظم الأحيان، ولكن الذي يكتسب أحياناً مداخلة المحلل.

وكذلك، فإن الإنسانية كانت قد أرغمت، في عصر قصورها الذي مازلنا لم نخرج منه، أن تتصرف لكي تتخلى عن الغريزة الجنسية، وذلك من خلال عصاب يصدر عن الموقف المتعارض للغرائز الجنسية إزاء صورة الأب. وثمة نصوص كثيرة لفرويد، ولتيودور ريك، تُطوّر هذا التماثل للدين وللعصاب الاستحواذي: لقد لاحظ من قبلُ كتاب 'الطوطم والمحظور' هذه السمة العصابية للمحظور: وإننا لنلاحظ في الحالتين هذياناً مماثلاً للعصاب، مع الاختلاط نفسه للرغبة وللذعر.

وتشترك عادات الاستحواذ العصابي، ومحظوراته، وأعراضه بغياب الحافز نفسه، وبقوانين التثبيت نفسها، وبالانزياح، وبالعدوى، وبالاحتفالية الناتجة عن الممنوعات (مصدر سابق، ص46). ويضفي نسيان المكبوت في الحالتين على المنع سمة الغرابة نفسها، وعدم الإدراك، ويبعث رغبات الانتهاك نفسها، ويثير الرضا الرمزي نفسه، كما يثير ظواهر الاستبدال نفسها، وظواهر التسوية، وظواهر الاستفار نفسها، وإنه ليغذي أخيراً المواقف المتناقضة نفسها إزاء المنع (ص54). وفي عصر لم يكن فيه فرويد قد أقام بعد نظرية الأنا العليا، ولا نظرية غريزة الموت، فإن الوعي 'الأخلاقي' (الذي ما زال يؤوله بوصفه الإدراك الداخلي لرفض بعض الرغبات) يكون ممارساً بوصفه فرعاً 'لتبكيت الضمير المحظور' 9ص97. 101). 'وكذلك، فإننا لنغامر بهذا التأكيد، فإذا لم يكن من ممكناً أن نكتشف أصل المعرفة الأخلاقية في العصاب الاستحواذي، فيجب علينا أن نتخلى عن كل أمل في اكتشافها إلى الأبد' (ص98). ولقد كان تضاد الجذب والدفع في ذلك العصر، إذن، يقوم في المركز من كل مقارنة، ولقد كان فرويد، بكل تأكيد، مندهشاً من الفوارق بين المحظور والعصاب، فلقد لاحظ أن 'المحظور ليس عصاباً'. ولكنه شكل اجتماعي' (ص101). ولكنه اضطر إلى اختزال الانزياح بتفسير الوجه الاجتماعي للمحظور عن طريق تنظيم العقاب، وتفسير تنظيم الخطاب عن طريق الخوف من عدوى المحظور (ص102). وإنه ليضيف أن الميول الاجتماعية نفسها تشتمل على خليط من العناصر الأنانية والجنسية (104) وهذا ما يطوره على كل حال كتاب

'علم النفس الجماعي وتحليل الأنا' (وخصوصاً الفصل حول 'الكنيسة والجيش'). وفي هذه الدراسة التي يعود تاريخها إلى 1921، ثمة اقتراح لتأويل 'شبقي' كامل أو 'جنسي' للتعلق بالرئيس، ولتماسك الجماعات على أساس استبدادي، وعلى بنية تراتبية.

ولقد ركز، قدر ما هو ممكن، كتاب 'موسى والتوحيد' على هذه السمة العصابية للدين: إن الفرصة الرئيسة فيه قد أعطيت لفرويد بوساطة 'ظاهرة الكمون' في تاريخ اليهودية: أي التأخر في انبعاث دين موسى، المكبوت في عبادة يهوه. وإننا نتفاجأ هنا بتشابك النموذج الوراثي والنموذج الاقتصادي: ثمة، حول نقطة من النقاط، تناسب بين قضية عصاب الصدمة وقضية التوحيد اليهودي: ويعد هذا التماثل تاماً إلى درجة أننا نستطيع تقريباً أن نتكلم عن الهوية' (111). وإن ترسمية تطور العصاب، ما إن تصبح مقبولة (الصدمة المبكرة، الدفاع، الكمون، انفجار العصاب، العودة الجزئية للمكبوت (123)، حتى يتعهد التقارب بين تاريخ النوع الإنساني وتاريخ الفرد بالباقي: 'يكابد النوع الإنساني، هو أيضاً من سيرورات ذات مضمون اعتداء جنسي، وإنها لتترك آثاراً دائمة على الرغم من أن معظمها كان قد أزيح أو وقع في النسيان. وإنها لتصبح، بعد فترة طويلة من الكمون، نشطة، مع ظواهر تتقارن، بنية وميلاً، مع الأعراض العصابية'(123).

وهكذا، يصبح التوحيد اليهودي بديلاً للطوطمية في تاريخ عودة المكبوت. فلقد جدد الشعب اليهودي، بالانطباق مع الشخصية موسى ، البديل السامي للأب، الاتفاق البدئي.

ويعد قتل المسيح تعزيزاً آخر لذكرى الأصول، بينما 'باك' فُيحيي موسى. وأخيراً، فإن دين القديس بولس يُتم عودة المكبوت هذا، ويقوده إلى مصدره ما قبل التاريخي بإعطائه اسم الخطيئة الأصلية: ثمة جريمة أُرتكبت بحق الله، وأن الموت وحده هو الذي يستطيع أن يكفر عنها. ويمر فرويد سريعاً إلى استيهام' الاستغفار الذي يقوم في المركز من 'الكيريفما' المسيحي (ص132). ويرى أنه يجب على المخلص أن يكون المذنب الرئيس، وزعيم عشيرة الأخوة، وعين البطل المأساوي المتمرد الموجود في التراجيديا الإغريقية (ص134- 136):'يتواري خلفه الأب البدئي للعشيرة البدائية، وحقيق أنه مغير الوجه، ولقد أخذ، بوصفه ابناً، مكان أبيه' (ص138).

يؤكد هذا التماثل مع الصدمة العصابية تأويلنا للفعل المتبادل، في عمل فرويد، بين مبحث أسباب الأمراض وتفسير النصوص القديمة للثقافة، وإن الدين ليفسح المجال لقراءة جديدة للعصاب. مثل معنى عقدة الذنب المرتبط به، إذ يغطي في جدلية غرائز الحياة والموت، ويلتقي النموذج 'النموذجي' اختلاف الهيئات، الهذا- والأنا، والأنا العليا)، والنموذج 'الوراثي' (دور الطفولة ومبحث تكون الأنسال) في التأويل الأقصى لعودة المكبوت (ص145).

يسمح، أخيراً، هذا التأويل الاقتصادي للوهم بإنشاء الإغواء الجمالي إزاء الوهم الديني.

ولقد كانت حدة فرويد إزاء الدين لا مثيل لها، كما نعلم مقدار تعاطفه مع الفنون. ولم يكن هذا الفارق في اللهجة مجانياً: لقد كان له سببه في الاقتصاد العام للظواهر الثقافية؛ فالفن بالنسبة إلى فرويد هو الشكل غير الاستحواذي، وغير العصابي، للإرضاء المستبدل: لا تصدر فنية الخلق الجمالي عن عودة المكبوت.

لقد ألمحنا، في بداية الدراسة، إلى المقال الذي كرسه فرويد، منذ عام 1908، في مجلة imago، 'للخلق الأدبي والحلم المستيقظ، وإلى المنهج المماثل الذي يستخدمه: لقد كانت النظرية العامة للاستيهام تقوم من تحت هذا المنهج، وثمة اختراق كان يسمح بمعرفته وهو يسير باتجاه ما يجب أن يصبح في ما بعد نظرية للثقافة، وإن فرويد ليسأل نفسه، إذا كان الشعر قريباً جداً من الحلم المستيقظ، أفلا يكون هذا لأن تقنية الفنان تسعى إلى الإخفاء بمقدار ما تسعى إلى تبليغ الاستيهام؟ ثم إنه ألا يسعى إلى تجاوز الرفض الذي يثيره استدعاء جد مباشر للنوع المنضوي تحت إغواء لذة محض شكلية؟

إن الفن الشعري المستدعى (دراسات في التحليل النفسي التطبيقي، 81) ليبدو لنا الآن بوصفه القطب الآخر للوهم، ولقد كتب يقول: إنه يفتننا 'بوساطة نفع لذة جمالية يقدمها لنا في تمثيل هذه الاستيهامات'. ويعد كل تأويل للثقافة في السنوات 29- 39 متضمناً في السطور التالية: إننا نسمي 'مكافأة الإغواء'، و'لذة المقدمات'، مثل هذه الفائدة من اللذة التي عرضت علينا بغية السماح بتحرير المتعة العليا الفائضة عن مصادر نفسية أكثر عمقاً. وإنني لأعتقد أن كل لذة جمالية، يبدعها الخالق فنياً، تمثل هذه السمة من لذة المقدمات، ولكن المتعة الحقيقية للعمل الأدبي تأتي من أن روحنا تجد ذاتها بذاتها مرتاحة من بعض التوترات؛ وربما لأن الخالق يضعنا مباشرة لكي نتمتع من الآن فصاعداً من استيهاماتنا الخاصة من غير حيرة ولا عار، فإنه يساهم مساهمة واسعة في هذه النتيجة، (مصدر سابق ص81).

ولكن ربما يترك التمفصل المستقبلي بين النزعة الجمالية والنظرية العامة للثقافة نفسه لكي تدرك على نحو أفضل في 'موسى' 'لميكيل آنجلو'. وإننا لا نفهم في أي مكان بشكل أحسن ما هي المعوقات المبطلة ظاهرياً التي يقبلها هذا التأويل. وفي الواقع، فإن التأويل - الذي هو ثمرة لمعاشرة طويلة للروائع، وللعديد من المخططات الإجمالية المنقوشة، فإن فرويد قد حاول إعادة بناء أوضاع الجسم المتتابعة المكثفة في الحركة الحالية لموسى - في هذه الدراسة يصدر، مثل تأويل الأحلام، انطلاقاً من التفاصيل. وإن هذا المنهج التحليلي على نحو خاص ليسمح بتركيب عمل الحلم وعمل الإبداع فوق بعضهما، وكذلك تأويل الحلم وتأويل العمل عوضاً عن البحث، إذن، في مستوى من العمومية أكثر سعة، فإن طبيعة الرضا الذي يولده العمل الفني - وهي مهمة ضاع فيها كثير من المحللين النفسانيين - تجعل المحلل يحاول أن يحل اللغز العام للنزعة الجمالية عن طريق خفايا العمل والمعاني التي يبدعها هذا العمل. وإننا لنعرف الصبر

والدقة في هذا التأويل: هنا، كما هو الأمر في التحليل الحلم، فإن الحدث المحدد والأصغر في الظاهر هو الذي يحمل الأهمية، وليس الانطباع الذي يخلفه المجموع. فوضع سبابة اليد اليمنى للرسول - من هذه السبابة التي هي وحدها على اتصال مع مجرء اللحية، بينما يحمل باقي اليد نفسه إلى خلف - والوضع المقلوب للألواح، هو قريب من أن يتملص من ضغط الذراع.

فالتأويل يعيد بناء تسلسل الحركات المنافسة التي عثرت في هذه الحركة الواقفة على ضرب من الاتفاق غير المستقر، وذلك في فتيل وضع هذا الجسم اللحظوي، وكأنه متجمد في البحر. خلق رفع موسى في حركة من الغضب يده إلى لحيته، مخاطراً بترك الألواح تقع، بينما كانت نظرة يشدها بغضب إلى الطرف مشهد الشعب الوثني. ولكن ثمة حركة معاكسة، تقمع الأولى، ليحييها الوعي الحاد لمهمته الدينية، هو الذي جعل اليد ترتد إلى الخلف. فما هو القائم تحت أعيننا، هو ما تبقى من الحركة التي حدثت، والتي ذهب فرويد إلى إعادة بنائها بالطريقة نفسها التي بنى فيها التمثيلات المعاكسة، والتي تولد صيغات تسويات الحلم، والعصاب، والهفوات، والمزاح، ولقد اكتشف فرويد، إذ كان يحفر تحت هذه الصيغة من التسوية، في ثخانة المعنى الظاهر، بالإضافة إلى التعبير المثالي عن صراع تم تجاوزه، وأهل للاحتفاظ بقبر البابا، لوماً خفياً لعنف المتوفى، وكأنه تحذير الذات لذاتها، إن تفسير 'موسى' الذي وضعه 'ميكيل آنجلو' ليس إذن قطعة مضافة؛ إنه يقوم فوق المسار الوحيد الذي ينطلق من'تأويل الأحلام'، ويمر عبر 'علم أمراض الحياة اليومية' و 'المزاح'. إن هذا التجاور المعرض للخطر ليسمح بطرح سؤال الثقة منذ الآن: هل لدينا الحق في أن نخضع إلى المعالجة ذاتها العمل الفني الذي هو، كما يقال خلق دائم وتذكير بأيامنا بالمعنى القوى للكلمة، والحلم الذي هو، كما نعلم، إنتاج عابر عقيم لياليناً؟ وإذا كان العمل الفني يدوم ويستمر، أفلا يكون هذا لأنه يحمل دائماً معانٍ تغني ميراث قيم الثقافة؟ وقد نرى أن الاعتراض ليس عديم الفائدة؛ فهو يمنحنا الفرصة لكي نمسك بأهمية ما خاطرنا بتسميته تفسير النصوص القديمة لثقافة.

هذا وإن التحليل النفسي للثقافة يصلح، ليس لأنه يفارق قيمة المنتجات الحلمية للأعمال الفنية، ولكن لأنه يعرف هذا الفارق، ويحاول أن يكشف عنه من وجهة نظر اقتصادية. ونصدر كل قضية الإعلاء عن هذا القرار بوضع تعارض للقيمة، معروف جيداً، تحت وجهة نظر موحدة للتكوين الشبقي ومقتصرة.

وإن تعارض القيمة بين ما هو 'إبداع' وما هو 'عقيم' وهو تعارض ترى فيه الظاهراتية الوصفية معطى أصلياً - ليحدث مشكلة بالنسبة إلى 'الاقتصادي' بعيداً لتعارض القيم هذا عن أن يكون غير مقدر ، فإنه هو الذي يكون مرغماً أن يحيل بعيداً، أو إذا أردنا، أن يحل عن جانبه، إلى الديناميكية التوحيدية، ويفهم أي توزيع للاستثمار، وللاستثمار المضاد، يكون قادراً على توليد المنتجات المعارضة للعرض، على مستوى الحلم والعصاب، والمعارضة للتعبير على مستوى الفنون، وعلى مستوى الثقافة عموماً.

ولهذا فإنه لمن الضروري على التحليل أن يعبر كل الأسباب التي نستطيع أن نفصلها ضد تمثل ساذج بين الظواهر ذات تعبيرية ثقافية وظواهر ذات عرض مبتعد سريعاً عن نظرية الحلم والعصاب، ويجب عليه أن يرجع باختصار كل موضوعات التعارض بين نظامي الإنتاج، والذي تستطيع النزعة الجمالية عند (كانت، وشيلينج، وهيجل، وألان) أن تزوده بها، وبهذا الشرط فقط، فإن تأويله لا يحذف، ولكنه يحجز، ويشتمل على ثنائية العرض و التعبير. وكذلك حتى بعد تأويله، فيبقى أن الحلم هو تعبير خاص، ضائع في وحدة النعاس، التي ينقصها وسيط العمل، واندماج المعنى في مادة صلبة، واندماج تواصل هذا المعنى بالجمهور وباختصار، فإنه ينقصها القدرة على جعل الوعي يتقدم نحو فهم جديد لنفسه بالذات. وتكمن قوة التعبير للتحليل النفسي تحديداً في نقل هذه القيم الثقافية المتعارضة للعمل الإبداعي وللعصاب إلى سلم وحيد. وإن القوة التعبيرية، تتصل في الوقت نفسه بوجهات نظر أفلاطون حول الوحدة الأساس للشعرية وللجنس، كما تتصل بوجهات نظر أرسطو حول استمرارية التطهير والتنقية، وإنها لتتصل كذلك بوجهات نظر جوته حول الإيمان بالشياطين.

ربما يجب الذهاب إلى أبعد من هذا؛ فما يزعم التحليل أنه يتجاوزه، ليس التعارض الظاهراتي للحلم وللثقافة فقط، ولكنه يتجاوز التعارض الداخلي نفسه للنزعة الاقتصادية. وثمة اعتراض ثان سيسمح لنا بصياغة هذا الموضوع.

ويمكننا فعلاً أن نعترض بأن تأويل 'موسى' الذي قام به ميكيل آنجلو، وكذلك التأويل 'أوديب الملك' لسوفوكليس أو 'هاملت' لشكسبير، إنه إذا كانت هذه الأعمال إبداعاً، فذلك لأنها ليست إسقاطاً بسيطاً لصراعات الفنان، ولكنها رسم إجمالي لحلولها. وسنقول إن الحلم ينظر إلى الوراء، نحو الطفولة، ونحو الماضي. بيد أن العمل الفني يكون عملاً متقدماً على الفنان نفسه، وهذا رمز مستقبلي بين التولي الشخصي ومستقبل الإنسان، وليس عرضاً تراجعياً لصراعاته غير المحلولة. ولهذا، فإن الفهم الذي يقوم به الهاوي لا يعد انبعاثاً لصراعاته الخاصة، وإنجازاً عارضاً لرغباته التي تستدعيها المأساة فيه، ولكنه مساهمة في عمل الحقيقة التي تنجز نفسها في روح البطل التراجيدي. وهكذا، فإن إبداع سوفوكليس لشخصية أوديب، لا يعد فقط تجلياً بسيطاً لمأساة طفولته، ولكنه اختراع لرمز جديد لألم الوعي بالذات، وإن هذا الرمز لا يكرر طفولتنا، ولكنه يسبر حياتنا الراشدة.

ويتجه هذا الاعتراض مباشرة، للوهلة الأولى، ضد بعض ما أعلنه فرويد نفسه، مثال ذلك ما أعلنه حول 'أوديب' لسوفوكليس و'هاملت' لشكسبير، وذلك في 'علم الأحلام'.

ولكن ربما يكون هذا الاعتراض حاسماً، إلا ضد صيغة لا تزال ساذجة لتفسير النصوص القديمة الناتج عن التحليل الذي يصدر عن قبول - هو نفسه ساذج - للإبداع بوصفه وعداً للمعنى بالنسبة إلى وعي يزعم زوراً أنه نفي. وإن هذا الاعتراض أيضاً، مثل الاعتراض السابق، أيكون ميسراً للرفض بصورة أقل مما هو ميسر للتجاوز وللاندماج، من الأطروحة التي يعترض عليها في الوقت نفسه؟ وذلك من منظور أكثر سعة وأكثر نفاذا للديناميكية التي

تتحكم بالسيرورتين؛ ولذا فإن 'التراجع' و 'التقدم' سيكونان سيرورتين أقل تعارضاً بشكل قطبي من أن يكونا وجهين للإبداعية نفسها.

'فكريس' و 'لاونستان' و 'هارتمان' قد اقترحوا تعبيراً شاملاً وتوليفياً: لقد تكلموا عن 'التراجع التقدمي'؛ وذلك للإشارة إلى السيرورة المعقدة التي تصنع النفس بواسطتها معانٍ واعية جديدة، بإحياء صيغات غير واعية عفا عليها الزمان. ويشير التأخر والتقدم بصورة أقل إلى سيرورتين واقعيتين من المصطلحات المجردة المأخوذة من سيرورة واقعية وحيدة، وإنهما ليشيران فيها إلى حدين متطرفين: حد محض للتراجع. وحد لتقدم محض ، فهل هذا، - فعلاً - حلم واحد لا يملك أيضاً وظيفة سببية، ولا يحمل 'نبوياً' مخرجاً لصراعتنا؟ وعلى العكس من هذا، هل هو رمز كبير وحيد، أبدعه الفن والأدب، فلا يغطس، ولا يعاود الغطس في العتيق من الصراعات ومن الدراما الفردية للطفولة أو الدراما الجماعية؟ أليس هذا هو المعنى الفعلي للإعلاء من ترقية المعاني الجديدة باستنفار الطاقات القديمة التي استثمرت بادئ ذي بدء في الصور العتيقة. أليس للصورة الأكثر تجديداً التي يستطيع الفنان، والكاتب، والمفكر أن يولدها قدرة مزدوجة على الإخفاء والإظهار، وعلى ستر القديم، على شكل الأعراض الحلمية، أو العصابية، وعلى كشف الممكنات الأقل كمالاً، والأقل حدوثاً، وكأنها رمز لإنسان آت؟

ويستطيع التحليل النفسي، في هذا الاتجاه، أن يحقق نذره بمواصلة تفسير النصوص القديمة تفسيراً ثقافياً تاماً. وإنه لمن أجل هذا يجب عليه أن يتجاوز التعارض الضروري، ولكن المجرد لتأويل لا يقوم إلا بسبر علم أعراض الحلم والعصاب، والتأويل يزعم أنه يجد في الوعي انبعاث الإبداع، وكذلك يجب أيضاً بلوغ مستوى هذا التعارض وحمله نحو النضج؛ وذلك بغية الوصول إلى جدلية واقعية، حيث سيكون قد تم تجاوز البديل المؤقت الخادع للرجوع وللتقدم.

2 - وضع التفسير الفرويدي للنصوص القديمة

نقول في البداية إن التأويل هو ما يسجله التحليل النفسي في الثقافة، فكيف تفهم ثقافتنا بوساطة التمثيل الذي يبعثه إليها التحليل النفسي؟

فليكن هذا التأويل جزئيًا متحيزاً، وحتى غير عادل إزاء المقارنات الأخرى لظواهر الثقافة، فإن هذا يستحق أن يقال بادئ ذي بدء، ولكن هذا النقد ليس هو الأكثر أهمية: لأنه بفضل ضيقه، فإن التأويل الفرويدي يلامس الجوهري. وكذلك ، ألا يجب أولاً رسم حدود هذا التفسير للنص القديم للثقافة، وذلك لكي يتمكن المرء من بعد من وضع نفسه بصورة أفضل في مركز دائرته، ويتبنى موقع القوة. ومهما تكن الانتقادات شرعية، فيجب عليها أن تخلي السبيل لإدارة المرء في تثقيف نفسه، ولإعطاء النقد نفسه للشك بنفسه بكل العقلانيات، وبكل التبريرات التي تصدر عن التحليل النفسي نفسه. ولهذا، وعلى عكس ما هو شائع في الاستعمال، فإننا سنستند إلى النقد (الجزء الثاني) بغية أن نحافظ فنياً على طريقة التفكير الحر(الجزء الثالث) والعرض الإرشادي للإرادة، والذي طورناه حتى اللحظة (الجزء الأول).

أ. حدود مبدأ التأويل الفرويدي للثقافة

إن ما يجعل كل مواجهة للفرويدية صعبة مع النظريات الأخرى للثقافة، هو أن مبدعها لم يقترح على الإطلاق بنفسه فكرة حول حدود تأويله: إنه يقبل غرائز أخرى غير تلك التي يدرسها، ولكنه لا يقترح الإحصاء الكامل. فهو يتكلم عن العمل، وعن الرابط الاجتماعي، وعن الضرورة، وعن الواقع، ولكن من غير أن يدع المرء يرى كيف يستطيع التحليل النفسي أن يربط نفسه مع علوم أو مع تأويلات أخرى غير تأويلاته، إنه ليكون هكذا: إن تحيره الشديد يتركنا في حيرة مفيدة. وكل واحد يتحمل مسؤولية وضع التحليل النفسي في رؤيته للأشياء.

ولكن كيف نتوجه في البداية ؟ يمكن لواحدة من ملاحظاتنا الأولية أن تقوم بدور المرشد: إن فرويد يفهم مجموع ظاهرة الثقافة. وحتى الحدث الإنساني - ولكنه يصنعها من وجهة نظر. وقد يعنى هذا أنه إلى جانب النماذج - النموذج الاقتصادي، والنموذج الوراثي - وليس إلى جانب المضمون المؤول، يجب البحث عن مبدأ التأويل الفرويدي للثقافة.

فما هو الأمر الذي لا تسمح هذه النماذج بفهمه؟ إن تفسير الثقافة بثمنه العاطفي لذة وألماً وبأصوله النسلية وكينونته الوراثية، ليعد بكل تأكيد جد مضيء، وسنقول بعد قليل إن المرمى الهائل لمثل هذا الجهد يقيم علاقة قربى بالنسبة إلى الأساس منه مع ماركس ونيتشه، وذلك لإزالة القناع عن الوعي 'الزائف'، يجب ألا ينتظر المرء من هذا المشروع غير نقد من النوع الأصيل. ويجب على المرء خصوصاً ألا يطلب منه ما يمكن أن نسميه نقد الأسس. فهذه مهمة منهج آخر: وكذلك يجب ألا يطلب منه تفسير للتعابير النفسية في النص القديم - للحلم في العمل الفني، وللأعراض المرضية في العقيدة الدينية. ولكن أن يطلب منه منهجاً فكرياً، يطبق على السلوك الإنساني في مجموعه، أي على الجهد بغية الوجود، وعلى الرغبة في الكينونة، المعاصرة لهذه الرغبة، وعلى العديد من الوسائط التي يسعى الإنسان بها لكي يمتلك التأكيد الأكثر أصالة. الذي يسكن جهده ورغبته.

وتتمثل المهمة الأكثر استعجالاً للأنثروبولوجيات الفلسفية اليوم في تمفصل الفلسفة الفكرية وتفسير النص القديم للمعنى. ولكن 'بنية الاستقبال' التي يمكن أن يكتب فيها علم النفس الفرويدي الواصف ، وكذلك نماذج أخرى لتفسير النصوص القديمة الغريبة على التحليل النفسي، تحتاج في معظمها إلى بناء، وليس هذا هو المكان الذي نحاول هذا الأمر فيه. وكذلك فهل من الممكن ملاحظة بعض المناطق الحدودية، في داخل هذا الحقل الواسع، متخذين من نظرية الوهم محكاً كنّا رأينا معناه المركزي عند فرويد.

تتجلى فائدة المتصور الفرويدي للوهم في وسم الكيفية التي تشيد فيها التمثيلات التي تجعل الألم محمولاً، والتي 'تواسي'، وليس فقط التي تشيد على التخلي الغريزي، ولكن انطلاقاً من هذا التخلي: إن الرغبات وحركاتها الاستثمارية والمضادة للاستثمار هي التي تصنع جوهر الوهم كله. وإنه بهذا المعنى قد استطعنا القول إن نظرية الوهم هي نفسها نظرية اقتصادية من طرف إلى طرف. ولكن الاعتراف بهذا المعنى أيضاً التخلي؛ لكي يبحث فيه عن

تأويل شامل لظاهرة القيمة، التي تستطيع وحدها أن تكشف عن فكر أكثر بالنسبة إلى ديناميكية التصرف.

وكذلك، فإننا لم نحل لغز السلطة السياسية عندما قلنا إن العلاقة بالزعيم تستنفر استثماراً شبقياً كاملاً ذا سمة لواطية، وإننا لم نحل أيضاً لغز 'سلطة القيم' عندما فرزنا في قتيل الظاهرة الأخلاقية صورة الأب، والتطابق مع هذه الصورة الذي هو استيهامي بمقدار ما هو واقعي؛ وشيئاً آخر يكون أساس الظاهرة، مثل السلطة أو القيمة، وشيئاً آخر يكون الثمن العاطفي للتجربة التي نقوم بها، سواء كان لذة، أو كان ألم العيش الإنساني.

إن هذا التمييز بين قضايا الأساس، وقضايا الاقتصاد الغريزي، هو تمييز مبدئي بكل تأكيد: إنه على الأقل يرسم حداً للتأويل الذي يتحكم به النموذج الاقتصادي، فهل سنقول إن هذا التمييز سيبقى جد نظري، ولن يؤثر في أي وقت من الأوقات على متصور التحليل النفسي ، وبدرجة أقل على عمل المحلل النفسي؟ ويبدو لي، على العكس من ذلك، أن هذه الحدود لتحليل النفسي تبدو بشكل جد عملي في المفهوم الفرويدي 'الإعلاء'، الذي هو في الواقع مفهوم غير نقي، خليط، ويركب من غير مبدأ بين وجهة نظر اقتصادية ووجهة نظر أخلاقية. وأما في الإعلاء، فإن الغريزة الجنسية تعمل على مستوى عالٍ هذا على الرغم من أننا نستطيع أن نقول إن الطاقة المستثمرة في أشياء جديدة هي عين الطاقة التي كانت، من قبل، مستثمرة في موضوع جنسي. ولا تكشف وجهة النظر الاقتصادية إلا عن هذا التتابع في الطاقة، ولكنها لا تكشف عن جديد القيمة الذي وعد به هذا التخلي، وذلك الترحيل. وإننا لنخفي المشكلة استحياء، إذ نتكلم عن الهدف، وعن الموضوع الاجتماعي المقبولين: لكن المصلحة الاجتماعية هي معطف من الجهل نرميه على مشكلة القيمة التي يلعب الإعلاء بها.

وهكذا فإن معنى الوهم الديني نفسه مشكوك فيه. ولقد قلنا ذلك، ففرويد لا يتكلم عن الله، ولكنه يتكلم عن إله البشر.وليس ما يستوجب على علم النفس أن يحل جذرياً قضية 'الأصل الجذري للأشياء'، وذلك لكي يكون الكلام كما يتكلم ليبنتز. ولكنه مسلح جيداً لكي يزيل قناع التمثيلات الطفلية القديمة التي نعيش هذه القضية من خلالها. ولا يعد هذا التمييز فقط تمييزاً مبدئياً، فهو يخص عمل المحلل النفسي. وليس هذا الملل لاهوتياً، ولا هو مضاد للاهوتي، فهو بوصفه محللاً، مصاب بالعمه، وهذا يعني أنه غير كفؤ، وأنه لا يستطيع أن يقول، بوصفه محللا، إذا كان 'الله' ليس سوى استيهام الله. ولكنه يستطيع أن يساعد مريضه كي يتجاوز الأشكال الطفلية والعصابية للاعتقاد. وعلى هذا أن يقرر - أو أن يعترف - إذا لم يكن دينه سوى هذين الاعتقادين الطفلي والعصابي اللذين اكتشف التحليل انبعاثهما؛ وإذا لم يصمد اعتقاده: الطفلي والعصابي لهذا الامتحان النقدي، فهو غير جدير بالاتباع، ولكن حينئذ لا يكون ثمة شيء قد قيل لا من أجل الإيمان بالله ضده، وإني سأقول، بلسان آخر: يجب أن يموت الدين لكي يلد الإيمان، وذلك إذا كان يجب أن يكون الإيمان شيئاً آخر غير الدين.

فأن يرفض فرويد شخصياً هذا الضرب من التمييز، فلا قيمة لذلك؛ ففرويد هو Aufklarer، رجل من القرن التاسع عشر. وأن عقلانيته، كما يقول هو نفسه، وجحوده، ليسا ثمرة لتأويل الوهم الديني الذي يريده أن يكون شاملاً، ولكنهما الافتراض المسبق لذلك، فإنْ يغير اكتشاف الدين، بوصفه وهماً، شروط الوعي تغييراً عميقاً، فإن هذا لا يكون مشكوكاً فيه، وإننا سنقوله بكل القوة المرغوب فيها في ما بعد. ليس للتحليل النفسي منفذ إلى قضايا الأصل الجذري؛ وذلك لأن وجهة نظره اقتصادية واقتصادية فقط.

وسأحدد أيضاً - وبشكل أكبر قليلاً - ما يحدث، في نظري، الضعيف في التأويل الفرويدي للظاهرة الثقافية في مجموعها، وللوهم على نحو خاص: إن الوهم، بالنسبة إلى فرويد، تمثيل لا يتناسب معه أي واقع: إن تعريفه إيجابي. وإذا كان ذلك كذلك، أفلا توجد وظيفة للخيال الذي يتملص من التناوب الإيجابي للواقع وللمؤقت؟ لقد تعلمنا، بالتوازي مع الفرويدية، وبشكل مستقل عنها، أن الأساطير والرموز تحمل معنى يخرج عن إطار هذا التناوب. وثمة تفسير آخر للنص القديم، متميز من التحليل النفسي، وأكثر قرباً من ظاهراتية الدين، يخبرنا بأن الأساطير ليست حكايات خرافية، أي حكايات 'مغلوطة'، وأن 'الواقعي'. فهذا التفسير القديم للنص يفترض مسبقاً، إزاء كل نزعة وضعية' أن 'الحقيقي'، وأن 'الواقعية' لا يختزلان إلى ما يمكن أن يتم اختباره عن طريق الرياضيات أو التجريب، ولكنه يخص أيضاً علاقتنا بالعالم، وبالكائنات، وبالكائن؛ وإن هذه العلاقة هي التي تبدأ الأسطورة بسيرها، سائرة في ذلك على نهج تخيلي.

وإن هذه الوظيفة للخيال التي عرضها جيداً كل من سبينوزا، وهيجل، وشيلينج، وإن كان ذلك بشكل مختلف، وقد كان فرويد جد قريب من الاعتراف بها، وجد بعيد في الوقت نفسه. وما كان يقربه، هو 'ممارسته' للتأويل، وأما ما كان يبعده، فهو ' 'التنظير' لـــــ 'علم النفس الواصف'، أي الفلسفة الضمنية للنموذج الاقتصادي نفسه، فمن جهة إزاء النزعة المادية والبيولوجية المهيمنتين في علم النفس، نجد أن فرويد قد حدد كل نظريته الخاصة بالتأويل، فأن يقوم المرء بالتأويل هو أن يذهب من معنى خفي: يتحرك التأويل كلياً في إطار علاقات للمعنى، ولا يفهم علاقات القوة (الكبت وعودة المكبوت) إلا بوصفها علاقة للمعنى (رقبة، إخفاء، تكثيف، انزياح).

ولم يساهم أحد سوى فرويد بقطع فتنة الحدث ومعرفة إمبراطورية المعنى، ولكن فرويد تابع في تسجيل كل مكتشفاته في الإطار الوضعي نفسه الذي تهدمه بالأحرى. ولقد كان للنموذج الاقتصادي في هذا الخصوص دور جد غامض: إنه دور كشفي، عن طريق سبر أعماق هو أمكن من النفاد إليها. وهو دور محافظ. عن طريق الاتجاه الذي شجعه لتسجيل كل علاقات المعنى' بلغة الهيدروليك العقلي. ولقد هشم فرويد، عن طريق الوجه الأول، وجه الاكتشاف، الإطار الوضعي للتفسير. وأما عن طريق الوجه الثاني، وجه التنظير، فقد عزز هذا الإطار، وسمح 'للطاقة الذهنية' الساذجة التي كانت تعيث في المدرسة فساداً بالوجود.

سيكون من مهمة أنثروبولوجيا الفلسفة أن تقطع هذا الغموض في داخل علم النفس الواصف الفرويدي، وأن تنظم معاً مختلف أساليب تفسير النص المعاصر، وخصوصاً أسلوب فرويد وأسلوب ظاهراتية الأساطير والرموز، ولكن هذه المهمة لن تستطيع أن تنظم هذه الأساليب المختلفة في ما بينها إلا إذا جعلتها تابعة لهذا التفكير الأساس الذي أشرنا إليه سابقاً.

يحكم هذا الحد لمبدأ النموذج 'الاقتصادي' بدوره مبدأ النموذج 'الوراثي'. وكما رأينا ذلك، فإن فرويد يفسر وراثياً ما ليس له حقيقة وضعية. ويأخذ الأصل التاريخي مكانه (بالمعنى التناسلي، وبالمعنى التطوري للكائن الفرد) من الأصل الأخلاقي، أو من الأصل الجذري، وإني لأفسر بهذا العمى لكل وظيفة أخرى للوهم، الذي لن يكون اعوجاجاً للواقع الإيجابي، الغياب الكي للفائدة، عند فرويد، بالنسبة إلى كل ما ليس تكراراً بسيطاً لشكل عتيق أو طفلي، وإلى حد ما، ما ليس 'عودة للمكبوت' فقط، وهذا مدهش في حالة الدين: إن كل ما أمكن إضافته إلى العزاء البدائي، وتعطيه الآلهة المصممة على صورة الأب، إنما هو من غير أهمية. وإذا كان هذا هكذا، فمن ذا الذي يستطيع أن يحسم إذا كان معنى الدين يكمن بالأحرى في عودة الذكريات المرتبطة بقتل أب العشيرة، وليس في التجديدات التي يبتعد الدين بها عن نموذجه البدائي؟ وهل يكمن المعنى في تصحيح القديم عن طريق الجديد؟ لا يستطيع أن يقرر في هذا الامر تفسير وراثي، ولكن الذي يستطيع أن يقرر هو الفكر الجذري، مثل فكر هيجل مثلاً في 'دروس حول فلسفة الدين'. وما دام هذا هكذا، فإن هذا الفكر ينطبق على تقدم التمثيل الديني، وليس على التمثيل الديني، وليس على وجهه التكراري.

ويرتبط هذا الشك المتعلق بحق النموذج الوراثي ارتباطاً وثيقاً بالسؤال السابق لحدود النموذج الاقتصادي: يمكن فعلاً للخيال الأسطوري الشعري ، في وظيفته القائمة على السبر الأنطولوجي، أن يكون أداته لهذا التصويب المجدد، الموجه في الاتجاه المعاكس لتكرار العتيق؛ ولذا فإنه يوج د تارخ تقدمي للوظيفة الرمزية، وللخيال، وهو لا يلتقي التاريخ التراجعي للوهم بوصفه 'عودة للمكبوت' فقط، ولكن هل نحن في وضع نستطيع معه أن نميز بين هذين التاريخين، بين هذا الإعلاء وهذا الانكفاء، بين هذا الإبداع وهذا التكرار؟

وهذا ينقصنا يقيننا، فنحن نعلم أن تمييز الحدود هذا، وإن كان له ما يدعمه، فإنه لا يتميز بدوره من التبريرات ومن العقلانيات التي يزيل التحليل النفسي قناعها. ولهذا السبب نحتاج أن نترك نقدنا معلقاً، وأن نهب أنفسنا من غير دفاع لشك الوعي بنفسه عن طريق المحلل النفسي؛ إذ ربما يبدو في نهاية هذا المسار، أن 'مكان' التحليل النفسي، في قلب الثقافة المعاصرة يبقى، ويجب أن يبقى غير محدد، مهما طال الزمن، ما دامت معرفته لم تستوعب بعد، وذلك على الرغم من حدوده، ربما بفضل حدوده. وإن المجابهة مع تأويلات أخرى للثقافة، ليست من الخصوم، ولكنها متقاطعة، ستساعدنا للقيام بهذه الخطوة الجديدة.

2. ماركس، نيتشه، فرويد:

لم يعد مشكوكاً فيه أن عمل فرويد بالنسبة إلى وعي الإنسان الحديث، يساوي في عمل ماركس أو عمل نيتشه؛ فالقرابة بين هؤلاء الثلاثة من نقاد الوعي 'المزيف' واضحة. ولكننا لا نزال بعيدين عن تمثيل هذه الشكوك الثلاثة ببدهيات الوعي بالذات، وبعيدين عن دمج هذه التمارين من الشك في ذواتنا؛ فنحن لا نزال متنبهين لاختلافاتهم، أي لا نزال في النهاية يقظين للحدود التي تفرضها الأحكام المسبقة لعصرهم على هؤلاء المفكرين الثلاثة، وإننا لا نزال خصوصاً - ضحايا الفلسفة الكلامية التي يحسبهم فيها ورثتهم: لقد نفى ماركس إلى الاقتصاد الماركسي وإلى نظرية الوعي المنعكس؛ وإن نيتشه قد سحب إلى جانب النزعة الإحيائية، وإن لم يكن ذلك، فإلى المنافحة عن العنف؛ وأما فرويد فقد أقام في طب الأمراض العقلية، وتزيا بزي غريب لنزعة تضميد جنسي تبسيطي.

وإني لأعتقد أن معنى الإنسان الحديث المأخوذ من هؤلاء المفسرين الثلاثة بالنسبة إلى عصرنا، لن نستطيع أن يستقيم إلا بالاقتران معاً.

فلقد قام ثلاثتهم، بادئ ذي بدء، بالهجوم على الوهم نفسه، على هذا الوهم المكلل باسم فاتن: إنهم هاجموا وهم وعي الذات. ويعد هذا الوهم ثمرة لأول نصر، كما يُعد دحرًا لوهم سابق: إنه وهم الشيء. ويعلم الفيلسوف الذي تربى في مدرسة ديكارت أن الأشياء مشكوك فيها، وأنها ليست كما تبدو ولكنه لا يشك بأن الوعي ليس هو كما يبدو لذاته؛ إذ فيه يلتقي المعنى والوعي بالمعنى. فمنذ ماركس، ونيتشه، و فرويد، ونحن نشك فيه، فبعد الشك بالشيء، دخلنا في الشك بالوعي.

ولكن أساتذة الشك الثلاثة هؤلاء ليسوا أساتذة مذهب الشك؛ إنهم بكل تأكيد ثلاثة من عظماء 'الهدم'، ومع ذلك، فإن هذا نفسه يجب ألا يضللنا، وإن الهدم؛ كما يقول هايدجر في:'Sein und Zet'، لحظة من لحظات كل تأسيس جديد. 'منهدم' العوالم الخلفية يعد مهمة إيجابية، بما في ذلك هدم الدين، بما أنه، تبعاً لكلمة نيتشه، 'أفلاطونية بالنسبة إلى هيمنة جديدة للحقيقة، ليس فقط عن طريق نقد 'مهدم'، ولكن عن طريق اختراع فن التأويل.

ولقد انتصر ديكارت بالشك على الشيء عن طريق بدهية الوعي. أما هم، فقد انتصروا بالشك على الوعي عن طريق تفسير المعنى، ويعد الفهم، انطلاقاً منهم، تفسير للنصوص القديمة: لم يعد البحث عن المعنى، من الآن فصاعداً، تهجمية لوعي المعنى، بل إنه صار في تفكيك التعابير. وما يجب مواجهته إذن، ليس شكاً ثلاثياً، ولكن مكراً ثلاثياً، فإذا كان الوعي ليس كما يعتقد أنه كائن، فإن علاقة جديدة يجب أن تتأسس بين مظهر الشيء وواقعه. فالفئة الأساس للوعي، بالنسبة إلى ثلاثتهم، هي العلاقة 'المخفية - الظاهرة' أو، إذا كنا نفضل، هي 'تصنُّع - تجلٍّ'.

فليعاند الماركسيون في نظرية 'الانعكاس'، وليناقض نيتشه نفسه إذ يجزم بخصوص النزعة 'المنظورية' لـ 'إرادة القوة' ، وليؤسطر فرويد مع 'رقابته، ومع 'حاجبه'، ومع 'تكراته': إن

الجوهري ليس بهذه الارتباكات، ولا في هذه الطرق المسدودة، إن الجوهري هو أن الثلاثة يبدعون مع ما يمتلكون من أدوات، أي أحكام العصر المسبقة وضدها، وعلم وسيط للمعنى، ولا يختزل إلى الوعي المباشر للمعنى.

وما حاوله الثلاثة جميعاً، بطرق مختلفة، هو جعل مناهجهم 'الواعية' للتفكيك تكتفي بالعمل 'غير الواعي' للتشفير الذي يعزونه إلى إرادة القوة، وإلى الكائن الاجتماعي، وإلى النزعة النفسية غير الواعية. فلكل مكر مكر ونصف. ولقد تمثل ذلك بالنسبة إلى فرويد في اكتشاف 'علم الأحلام': يتخذ المحلل إرادياً المسار المعاكس للمسار الذي اتخذه الحالم من غير أن يريد، أو من غير أن يعلم، في 'عمل الحلم'.

ومنذ هذه اللحظة، فإن ما يميز كلاً من ماركس، فرويد، ونيتشه في الوقت نفسه هو منهج التفكيك والتمثيل الذي يصنعونه لأنفسهم عن سيرورة التشفير التي يعيرونها إلى الكائن غير الواعي. وليس من الممكن أن يكون الأمر غير ذلك، والسبب لأن هذا المنهج، وهذا التمثيل، يغطي بعضهما بعضاً، ويتحقق بعضهما من بعض.

وهكذا، فإن معنى الحلم عند فرويد. وبشكل عام أكثر، معنى الأعراض وصياغات التوافق، بصورة أكثر عموماً أيضاً، معنى التعابير النفسية في مجموعها. لا ينفصل عن 'التحليل' بوصفه تكتيكاً لتفكيك الشفرة. ويمكننا أن نقول، بهذا المعنى غير المتشكك، إن هذا المعنى الذي رفعه التحليل عالياً، بل هو الذي خلقه، وإنه، إذن، نسبي إزاء مجموع الإجراءات التي تؤسسه. ويمكننا أن نقول هذا، ولكن بشرط أن نقول العكس: إن تماسك المعنى المكتشف لا يرضي الفهم فقط عن طريق معقولية أعظم من فوضى الوعي الظاهر، ولكنه يحرر الحالم أو المريض، وذلك عندما يصل هذا إلى معرفته، وإلى استحواذه، وباختصار عندما يصبح الحالم المعنى 'بوعي منه هذا المعنى، الذي لم يكن يوجد حتى الآن إلا خارجه، 'في' لا وعيه، وثم 'في' وعي المحلل.

وإن هذا المعنى الذي لم يكن معنى إلا بالنسبة إلى الآخر، فإنه ما إن يصبح معنى من أجل ذاته على نحو واع حتى يريد المحلل أن يقوم بتحليله. وثمة قرابة تكتشف بالمناسبة نفسها أيضاً بين ماركس، وفرويد، ونيتشه: فنحن نقول إن هؤلاء الثلاثة يبدأون بالشك المتعلق بأوهام الوعي، وإنهم ليتابعون بحيلة تفكيك الشفرة. وهؤلاء الثلاثة إذ هم بعيدون عن أن يكونوا مشتعين 'بالوعي'، فإنهم يتطلعون إلى توسعه. فما يريده ماركس، هو تحرير التطبيق العملي (praxis) عن طريق معرفة الضرورة، ولكن هذا التحرير لا ينفصل عن 'امتلاك الوعي' الذي يرد بانتصار على خداع الزائف. وما يريده نيتشه، هو زيادة قدرة الإنسان، وإنشاء قوته. ولكن ما يريده بقوله إرادة القوة يجب أن تغطيه وساطة أرقام 'الإنسان الأعلى'، 'وعودة المكبوت' و 'الديونيسوس'. وهذه أمور من غيرها، فإن هذه القوة لن تكون سوى العنف من جانب. وأما ما يريده فرويد، فهو أن المحلل، إذ يتبنى المعنى الذي كان غريباً عنه، فإنه يوسع حقل وعيه، ويحيا 'بصورة أفضل. وإنه ليكون أخيراً أكثر حرية. وإذا أمكن، فأكثر سعادة، وتتحدث أولى

التحيات الموجهة إلى المحلل النفسي عن 'الشفاء بوساطة الوعي' . وإن الكلمة دقيقة . بيد أن هذا مشروط بالقول إن التحليل يريد أن يستبدل الوعي الوسيط الذي يهذبه مبدأ الواقع، بالوعي المباشر الكاتم. وهكذا، فإن الشاك نفسه الذي يصف ذات بأنها 'صعلوك فقير' خاضع لثلاثة أسياد: الهذا، والأنا العليا، والواقع أو الضرورة، ليعد أيضاً المفسر الذي يجد ثانية منطق مملكة عدم المنطق، والذي يتجرأ، استيحاء وخفر لا مثيل لهما بأنها دراسته حول 'مستقبل الوهم'؛ وذلك باستدعاء الإله اللوغوس، ذي الصوت الضعيف، ولكن الذي لا يتعب، الله ليس القدير، ولكن الفعال على المدى الطويل فقط.

3. دوى التفسير الفرويدي للنص القديم في الثقافة.

هذا ما أراد أن يفعله هؤلاء المفسرون الثلاثة من أجل الإنسان المعاصر، ولكننا لا نزال بعيدين عن تمثل اكتشافاتهم، كما لا نزال بعيدين عن فهمنا لأنفسنا تماماً عن طريق التأويل، التأويل الذي يقدمونه لنا عن أنفسنا. ويجب على المرء أن يعترف بأن تأويلاتهم لا تزال تعوم على بعد منا، وأنها لم تجد مكانها الدقيق؛ إذ بين تأويلهم وفهمنا، لا يزال البعد واسعاً. وأكثر من هذا، فنحن لسنا إزاء تأويل موحد يجب علينا أن نتمثله معاً، ولكننا إزاء ثلاثة تأويلات، عدم الاتفاق بينها أكثر ظهوراً من القرابة، وما زالت لا توجد أي بنية للاستقبال، ولا أي خطاب متتابع، ولا أي أنثروبولوجيا فلسفية يكون كل واحد منها قادراً على دمج الآخر، وعلى دمج تفسير النص القديم لدى ماركس، ولدى نيتشه، ولدى فرويد في وعينا؛ ذلك لأن تأثيراتهم الصادمة تتراكم، وقدراتهم على الهدف تتجمع، من غير أن تترابط تفسيراتهم، فيحتضنهم وعي موحد جديد. ولهذا يجب الاعتراف أن معنى التحليل النفسي، بما أنه حدث داخلي في ثقافتنا الحديثة، يبقى معلقاً، ويبقى مكانه غير محدد.

1. مقاومة ضد الحقيقة

إذا كان هذا هكذا، فإنه لمن الملاحظ أن التحليل النفسي يكشف بنفسه عن طريق ترسيماته التأويلية الخاصة عن هذا التأخير، وعن هذا التعليق لوعي الحدث الذي تمثله بالنسبة إلى الثقافة: إن الوعي، كما يقول التحليل النفسي، 'يقاوم' فهم نفسه. ولقد قاوم 'أوديب' أيضاً ضد الحقيقة التي يعرفها كل الآخرين. وقد كان يرفض أن يعرف نفسه في هذا الرجل الذي كان هو ذاته يلعنه. فمعرفة النفس هي المأساة الحقيقية، وهي مأساة من الدرجة الثانية. وأما مأساة الوعي . مأساة الرفض والغضب . فتضاعف مأساة البدء، مأساة الكينونة بوصفها كذا، مأساة ارتكاب المحارم، ومأساة قتل الأب. وإن فرويد ليتكلم بجلاء عن هذه 'المقاومة' ضد حقيقة في نص مشهور، وغالباً ما يستشهد به 'أنه' صعوبة التحليل النفسي (1917). وأنه ليقول فيه إن التحليل النفسي هو آخر 'الإهانات الشنيعة' التي 'تكابدها النرجسية، وحب الإنسان لنفسه عموماً نتيجة للاستثمار العلمي حتى الآن'. كانت هناك بادئ ذي بدء، الإهانة الكونية التي عاقبه بها كوبرنيك، وذلك بهدم الوهم النرجسي الذي يكون تبعاً له بيت الإنسان مرتاحاً في وسط الأشياء. ثم كانت الإهانة البيولوجية، وذلك عندما وضع

داروين نهاية لادعاء الإنسان بأنه كائن مقطوع عن مملكة الحيوان. وأخيراً، جاءت الإهانة النفسانية: إن الإنسان - الذي كان يعلم من قبل - ليس سيد الكون، ولا سيد الأحياء، قد اكتشف أنه ليس سيداً حتى لنفسه. فالتحليل النفسي يتجه بخطابه إلى الأنا: 'أنت تعتقد أنك تعرف كل ما يجري في روحك، منذ اللحظة التي يكون فيها ذلك مهما بما فيه الكفاية، وذلك لأن وعيك يعلمك إياه حينئذ. وإنك عندما تبقى من غير معلومة عن شيء قائم في روحك، فإنك تقبل، باطمئنان تام، بأن ذلك الشيء لا يوجد فيها. بل إنك لتذهب إلى الزعم بأن 'النفس' متطابقة مع 'الوعي'، أي أنك تعرف هذا، وإن هذا ليكون على الرغم من البراهين الأكثر بداهة بأنه يجب أن تحدث في حياتك النفسية أشياء كثيرة يمكنها ألا تتكشف إلى وعيك. فدع نفسك إذن تستعلم حول هذه النقطة'. 'وإنك لتتصرف كما لو أنك ملك مطلق يكتفي بمعلومات يعطيه إياها أصحاب الرتب العالية في البلاط، فلا ينزل إلى الشعب لكي يسمع صوته. فادخل إلى ذاتك عميقاً، وتعلم أولاً أن تعرف نفسك، وحينئذ ستفهم لماذا ستقع مريضاً، بيد أنك ربما تتجنب أن تصبح كذلك' (دراسات في التحليل النفسي التطبيقي.145- 146).

'دع نفسك إذن تستعلم حول هذه النقطة، ادخل إلى ذاتك عميقاً، وتعلم أولاً أن تعرف نفسك': هكذا يفهم التحليل النفسي اندماجه الخاص في الوعي المشترك، وذلك على هيئة تثقيف أو توضيح، ولكنه تثقيف يواجه مقاومات النرجسية البدائية الملحة، أي هذا الشبق الذي لا يستثمر نفسه كاملاً على الإطلاق في الأشياء، ولكن الأنا تحتفظ به لنفسها. ولهذا، فإن هذا التثقيف للأنا يعاش بالضرورة بوصفه إهانة، جرحاً في شبق الأنا.

ويضيء موضوع الإهانة النرجسية بضوء حاد كلما جئنا على قوله حول الشك، والمكر، وتوسع حقل الوعي: إننا نعلم الآن أن المهان ليس هو الوعي، ولكنه ادعاء الوعي، بل إنه شبق الأنا. وإننا لنعلم أن ما هو مهان، إنما هو - على وجه التحديد - أفضل وعي، وهو المعرفة العلمية. هذا ما يقول فرويد بعقلانية. ولنقل بشكل أوسع، الوعي قد انزاح عن تمركزه على ذاته، وفك انشغاله المسبق، ونقله كوبرنيك نحو الكون الواسع، كما نقله داروين نحو العبقرية المتحركة للحياة، وذلك كما نقله فرويد نحو الأعماق المظلمة للنفس. وإن الوعي ليزداد هو نفسه، إذ يتمركز حول آخره: الكون، البيو، النفس، وإنه ليجد نفسه ضائعاً. إنه ليجد ذاته، مثقفاً ومستنيراً، ضائعاً مع ذلك، ونرجسياً.

2 ردود الفعل 'المباشرة' للوعي المشترك

إن هذا الإنزياح بين التأويل الثقافة، الذي يحمله التحليل النفسي، والفهم الذي يستطيع الوعي المشترك أن يأخذه من هذا التأويل، ليفسر - إن لم يكن كلياً، فجزئياً على الأقل - حيرة هذا الوعي المشترك. ولقد قلنا في الأعلى إن التحليل النفسي ليجد مكانه بصعوبة في الثقافة: إننا لنعلم الآن أننا لا نأخذ وعياً بمعناه إلا من خلال التمثيلات المبتورة التي تحييها مقاومات نرجسيتنا.

إن هذه التمثيلات المبتورة هي التي نلتقيها في مستوى 'التأثيرات' القصيرة وردود الفعل 'المباشرة'. ويكون مستوى التأثيرات 'القصيرة، مستوى التصميم. ومع ذلك ـ فإن الأمر ليس من غير فائدة أن يقف المرء لحظة على هذا المستوى: لقد شمل التحليل النفسي خطر الحكم عليه، مدحاً أو ذماً، في هذا المستوى من التصميم: منذ اللحظة التي قام فيها فرويد بمحاضراته، وبنشر كتبه، وبالتوجه إلى غير المحللين، ولقد عمل على وضع التحليل النفسي في الميدان العام. ومهما كان، فثمة شيء كان قد قيل، وإنه ليفلت منذ البداية من العلاقة البين شخصية المحددة للطبيب ومريضه. ومن هنا، فإن انتشار التحليل النفسي خارج الإطار العلاجي ليعد حدثاً ثقافياً هائلاً. وقد جعل علم النفس الاجتماعي من هذا الأمر بدوره موضوعا للتحقيق العلمي، وللقياس، وتفسير.

لقد نفذ التحليل النفسي إلى الجمهور بادئ ذي بدء، بوصفه ظاهرة كلية لكشف المستور. وبهذا أصبح جزءاً مخبوءاً صامتاً من الإنسان عاماً. لذا، 'فنحن' نتكلم عن الجنس، و'نحن' نتكلم عن الشذوذ، وعن الكبت، وعن الأنا العليا، وعن الرقابة. وبهذه المناسبة، فإن التحليل يعد حدثاً 'للنحن'، وموضوعاً 'للثرثرة'، ولكن تواطؤ الصمت يعد، هو أيضاً، حدثٌ 'للنحن'، وإن الخبث ليس أقل ثرثرة من الكشف، في ساحة عامة، عن سر كل واحد أصبح هو سر بولبيشنييك.

ولم يعد أحد يعلم ماذا نفعل بكشف هذا المستور؛ لأن سوء الفهم الكلي يبدأ ها هنا. فعلى مستوى المؤثرات 'القصيرة'، فنحن نريد أن نستخلص مباشرة من التحليل النفسي أخلاقاً مباشرة، ، وإننا حينئذ لنستخدم التحليل النفسي بوصفه نسقاً من 'التبرير' من أجل مواقف أخلاقية لم تكابد في أعماقها شل التحليل النفسي، بينما أراد التحليل النفسي أن يكون على وجه التحديد تعبئة لفضح كل التبريرات. وهكذا، فإن بعضهم يطلب من التحليل النفسي أن يقر تربية من غير قيود ـ ذلك لأن العصاب إنما يأتي من الكبت ـ وأنهم يميزون في فرويد المنافح الخفي، المستتر عن الإباحية الجديدة، وأما الآخرون فإنهم إذ يستندون إلى نظرية مراحل النضج والاندماج، وإلى نظرية الشذوذ والتراجعات، فقد استنفروا التحليل النفسي لصالح الأخلاق التقليدية: ألم يحدد فرويد الثقافة عن طريق التضحية بالغرائز الجنسية؟

إنه لحقيق، بالنسبة إلى المقاربة الأولى، أننا قد نتردد حول هذا الذي أراده فرويد فعلاً، وإنه لمن الممكن أن نكون مشدودين إلى تحليل نفسي 'وحشي' للتحليل النفسي: ألم ينافح فرويد جماهير عن 'برجوازية' النظام الأحادي في الزواج، بينما كان ينافح سراً عن 'ثورية' الانتعاظ؟ ولكن الوعي الذي يطرح هذا السؤال، ويحاول أن يغلق فرويد في هذا التعاقب الأخلاقي، إنما هو وعي لم يتجاوز الامتحان النقدي للتحليل النفسي.

إن الثورة الفرويدية هي ثورة تشخيص الأمراض، وثورة الوضوح البارد، وثورة الحقيقة المجمدة، ويمكن القول مباشرة عن فرويد لم يكن يبشر بأي شيء أخلاقي: 'إنني لا أحمل أي عزاء'، وهكذا كان يقول في نهاية 'ستقبل الوهم'. ولكن بعض الرجال حاول أن يتثمن جهده

بالتبشير. فهو عندما يتكلم عن الانحراف والانكفاء، فإنهم يتساءلون إذا كان هذا الذي يصف ويشرح هو العالم، أو هو البرجوازي الآتي من فيينا، الذي يبرر نفسه. وهو عندما يقول إن الإنسان يقوده مبدأ اللذة، فإنهم يشككون - لكي يلوموه أو لكي يمتدحوه - بأنه يسرب تحت التشخيص الموافقة على نزعة إبيقورية غير معلن عنها، بينما هو يضع النظر غير المرضي للعلم على التصرفات الماكرة للإنسان الأخلاقي. وإليكم سوء الفهم: يصغى إلى فرويد، وكأنه رسول، بينما هو يتكلم بوصفه مفكراً غير رسولي: إنه لا يتحمل أخلاقاً جديدة، ولكنه يغير وعي هذا الذي يبقي المسألة الخلافية مسألة مفتوحة، وإنه ليغير الوعي بتغيير معرفة الوعي، وبإعطائه مفتاح بعض حيله. ويستطيع فرويد أن يغير أخلاقنا على المدى البعيد؛ لأنه ليس أخلاقياً على المدى القريب.

3. هل فرويد مفكر مأساوي؟

إن الوعي المشترك، إذ يصحح ردود فعله السطحية، فإنه يقدم لنفسه هيمنة التحليل النفسي في العمق. ولقد رأينا أن الطريق القصير لا يفضي إلا إلى سوء الفهم، وإلى التناقضات: إنها تناقضات الأخلاق المباشرة المستخلصة من التحليل النفسي. وأما الطريق الطويل، فإنه سيكون طريق تحويل الوعي بالذات عن طريق الفهم غير المباشر لعلامات الإنسان. فإلى أين سيقودنا هذا الطريق الطويل؟

إننا ما زلنا لا نعرف. ويعد التحليل النفسي ثورة غير مباشرة: إنها لا تغير الأخلاق، إلا إذا غيرت نوعية النظرة، وغيرت فحوى كلام الإنسان عن نفسه. وهي إذ تكون أولاً عملاً للحقيقة، فإنها لا تدخل في الفلك الأخلاقي، إلا من خلال مهمة الصدق التي تقترحها.

لقد كنا نستطيع أن نعرف من قبل بعض خطوط القوة التي كان يمارس على طولها وضع الوزن على وعينا، بوصفنا بشراً حديثين، وما أسميه في هذه اللحظة الفهم المباشر لعلامات الإنسان.

ونحن إذ نضع أنفسنا في امتداد هذا الجهد العام لكشف المستور الذي يمارسه التحليل النفسي الأكثر بدائية في التصميم، وإننا نستطيع أن نقول إن التحليل النفسي يجعل المرء يقظاً إزاء ما يسميه فرويد نفسه 'قساوة الحياة'، وإننا لنقول إنه لمن الصعب أن يكون الواحد إنساناً: إذا كان التحليل النفسي يبدو أنه يدافع مرة في صالح'تخفيض' التضحية بالغرائز الجنسية عن طريق إطلاق الممنوعات الاجتماعية، ومن أجل القول بهذه التضحية، يفضل خضوع مبدأ اللذة لمبدأ الواقع، فليس هذا لأنه يعتقد بعمل 'دبلوماسي' مباشر بين السلطات التي تتصارع. فهو ينتظر كل شيء من تغير الوعي، الذي يصدر عن فهم أكثر تواضعاً، وأكثر تمفصلاً للمأساة الإنسانية، من غير انشغال باستخلاص نتائج أخلاقية على نحو جد سريع.

لا يقول فرويد، كما يقول نيتشه، إن الإنسان 'حيوان مريض' إنه يوضح أن الأوضاع صراعية حتماً. فلماذا؟ إن هذا ليكون، أولاً، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك

طفولته بهذا الطول، وهو الذي، بسبب هذا، يبقى طويلا في وضع غير مستقل. وقد قيل بطرق متعددة إن الإنسان 'تاريخي'. ولقد قال فرويد: إنه يكون بادئ ذي بدء، وإنه ليكون خلال زمن طويل، وهو يكون أيضا على نحو سابق للتاريخ، وإن كل هذا ليكون بسبب قدره الطفولي. فالصور الكبرى - سواء كانت واقعية أم استيهامية - للأب، وللأمن وللإخوة والأخوات، وللأزمة الأوديبية، وللخوف من الإحصاء، فإنه لا شيء من كل هذا سيمتلك معنى بالنسبة إلى كائن لن يكون بشكل أساس فريسة لطفولته. وهي مشكلة تخص. كيف يصبح بالغا. فهل نحن نعرف فقط ما سيكون عليه شعور البالغ بعقدة الذنب؟

إنها مأساة القدر الطفولي، وهي أيضاً مأساة التكرار، وإن مأساة التكرار هذه هي التي تصنع قوة كل التفسيرات الوراثية التي تملكنا في الأعلى عن حدودها المبدئية. وليست هذه نزوة منهجية، ولكنها احترام للحقيقة التي كان فرويد يعود بها بلا كلل إلى البداية. ولذا، فإن الطفولة لن تكون قدراً، إذا لم يأخذ شيء ما الإنسان إلى الخلف بلا توقف. ولا يوجد أحد أكثر من فرويد حساسية إزاء مأساة التخلف هذا، وإزاء أشكاله المتعددة: عودة المكبوت، وميل للشبق نحو العودة إلى مواقف تم تجاوزها، ومشكلة عمل الحداد، وغياب حركية الشبق. ويجب ألا ننسى أن التأملات حول غريزة الموت قد ولدت في جزء كبير منها من هذا الفكر حول الميول للتكرار، الذي لم يتردد فرويد من تقريبه إلى ميل العضوي نحو عدم العضوي: يتآمر تاناتوس مع العبقرية القديمة للنفس. مأساة تناقضات الشبق: إننا نعلم منذ الدراسات الثلاثة التي اتجهت نحو الجنس أن طاقة الشبق ليست بسيطة، وأنها لا تمتلك وحدة موضوع، ولا وحدة هدف، وأنها تستطيع أن تتفكك، وأن تأخذ طريق الفساد والانكفاء: لا يستطيع تعقد الترسمية الفرويدية للغرائز - التمييز بين شبق الذات والشبق الغيري، وإعادة تأويل السادية والمازوخية بعد إدخال غريزة الموت - إلا أن يعزز هذا الشعور بالسمة التائهة للرغبة الإنسانية. وهكذا، فإن صعوبة العيش هي إذن - وربما خصوصاً - صعوبة الحب، وصعوبة نجاح الحياة العاشقة.

وليس هذا كل شيء: تفترض كل هذه الحوافز أن التحليل النفسي لم يفعل شيئاً سوى كشف المستور الجنسي. ولكن التحليل النفسي إذا كان يقترح بالإضافة إلى كونه يسبر الأساس الغريزي للإنسان، معرفة 'مقامات' الوعي لكشف المستور، وفضح التبريرات والعقلانيات التي تعبر هذه 'المقاومات' من خلالها. وإذا كان الأمر حقيقة، فإن هذه 'المقاومات' تنتمي إلى الشبكة نفسها التي تنتمي إليها الممنوعات والتطابقات التي تصنع موضوعاتية الأنا العليا. وليس من المبالغة أن نقول إن للمأساوي مقرين، وليس مقرا واحدا: من جهة الهذا، ومن جهة الأنا العليا. ولذا، فإنه لمن أجل هذا تنضاف إلى عقبة البلوغ وعقبة الحب، عقبة أن يعرف المرء نفسه، وأن يحكم على ذاته بطريقة حقيقية. وهكذا، فإن مهمة الحقيقة هي مهمة مقترحة علينا في نقطة مركزية من نقاط صعوبة العيش. فإذا عدنا إلى حكاية أوديب، فإن المأساة الحقيقية ليست لأنه قتل أباه وتزوج أمه من غير أن يريد، فهذا كان قد حصل في السابق. ولكن المأساة هي

قدره الذي يقوم خلفه. وأما المأساة الحالية، فهي أن الإنسان الذي لعن إنسانا آخر من أجل هذه الجريمة قد كان هو نفسه، ويجب الاعتراف بهذا. وتقضي الحكمة أن يعرف المرء نفسه، ولأن يتوقف عن لعن ذاته. ولكن سوفوكليس العجوز، كاتب 'أوديب في كولون' كان يعرف أن أوديب، وإن أصبح عجوزاً، لم ينته من الغضب ضد ذاته.

وإننا لنفهم حينئذ لماذا يكون من العبث أن نطلب من التحليل النفسي أخلاقاً مباشرة، من غير أن نغير وعينا مسبقاً: إن الإنسان متهم ظلماً.

ربما يكون فرويد هنا أكثر ما يكون من نيتشه: هذا هو الاتهام الذي يجب اتهامه به. وعلى كل حال، فإن هيجل، إذ انتقد 'الرؤية الأخلاقية للعالم' في 'ظاهراتية الروح'، فقد قال ذلك قبل نيتشه: إن الوعي الذي يصدر الأحكام هو وعي ازدرائي منافق: يجب أن يكون اكتماله الخاص معترفاً به، كما يجب ذلك على تعادله مع الوعي المحكوم عليه؛ وذلك لكي تكون 'مغفرة الذنب' ممكنة، بوصفها معرفة المرء بذاته التي تتصالح. ولكن فرويد لا يتهم الاتهام. فهو يفهمه، وهو إذ يفهمه، فإنه يجعل البنية والحلية علانيتين. وتتمثل إمكانية الأخلاق الأصلية في هذا الاتجاه، حيث تتنازل فظاظة الأنا العليا إلى قسوة الحب. ولكن يجب عليه أن يتعلم مسبقاً - بزمن طويل - أن تطهير الرغبة ليس شيئاً غير تطهير الوعي الحاكم.

ليس هذا هو كل ما يجب تعلمه قبل المجيء إلى الأخلاق؛ فنحن لم نفد بعد من هذا التعليم المسبق للأخلاق. وإنه لمن الممكن فعلاً أن يعيد المرء تأويل كل ما قلناه في الأعلى حول الثقافة، وذلك في ضوء هذه الملاحظات حول المأساة المضاعفة للهذا والأنا العليا.

ولقد رأينا المكان الذي تحتفظ به فيها مفاهيم 'الوهم'، 'والإشباع المبدل' و 'الإغواء'، وتنتمي هذه المفاهيم، هي أيضاً إلى الدائرة المأساوية التي تعرفنا على مواطن انتشارها. وفي الواقع، فإن الثقافة قد صنعت من كل الإجراءات التي يفلت من خلالها الإنسان، على طريقة المتخيل، من الوضع الذي لا مخرج له للرغبات التي لا يمكن حذفها، ولا يمكن إشباعها. وإنه لينفتح بين الإشباع والحذف طريق الإعلاء، وهو طريق شاق في ذاته. ولكن لأن الإنسان لم يعد في مستطاعه أن يكون حيواناً، وهو ليس إلهياً، فإنه يدخل في هذا الوضع المعقد، وحينئذ فإنه يبدع 'الهذيان والأحلام'، مثل بطل 'gradiva de jensen'. وإنه ليبدع أيضاً أعمالاً فنية وإلهية. وإن الوظيفة الأسطورية الكبرى التي حملها برجسون لنظام المجتمعات المغلقة، فإن فرويد يحملها لنهج الاختيار والوهم الذي يصنعه الإنسان ليس فقط فوق تخلياته، ولكن مع الغرائز الجنسية نفسها لتخلياته. وهذه فكرة عميقة جداً: بما أن مبدأ الواقع يقطع الطريق على مبدأ الرغبة، فإنه يبقى أن الإنسان، يعتني بفن إعلاء المتعة. وأنه ليروق لنا أن نكرر، أن الإنسان كائن لا يستطيع الإعلاء. ولكن الإعلاء لا يحل المأساوي، بل يجعله يقفز ثانية: إن العزاء بدوره - أي التصالح مع فن احتمال الألم الذي يكبد هنا الجسد، والعالم، والآخر به - لم يكن قط مسالماً. وإن قرابة 'الوهم' الديني مع العصاب الاستحواذي، لتكون هنا لكي تؤكد أن الإنسان لا يخرج من فلك الغرائز، ولا يرتفع - لا يُعلي نفسه - إلا لكي يجد ثانية - على شكل

أكثر مخاتلة، في تمويهات أكثر احتيالاً ـ مأساوي الطفولة نفسه، حيث تعرفنا على المأساوي الأول . وإن الفن وحده هو الذي يبدو من غير خطر، وإن فرويد هو الذي يدعه ليظن ذلك على الأقل. وقد كان ذلك، بلا ريب؛ لأنه عرف فقط الأشكال المثالية، والقدرة على التخفيف عن طرق التعزيم الناعم للقوى المظلمة. ولا يبدو أنه يشكل في العنف، وبقدر الاعتراض، وبالسير، وبالحفر تحت الأرض، وبالانفجار الفضائي. ولهذا السبب فإن الفن يبدو أنه القوة الوحيدة التي لم يشملها فرويد بشكه. وفي الواقع، فإن الإعلاء يفتح دائرة جديدة للتناقضات وللمخاطر. ولكن ألا يتمثل الالتباس الأساس للخيال في كونه يخدم سيدين في الوقت نفسه: الكذب والواقع؟ فهو يخدم الكذب؛ لأنه يخدع إيروس باستيهاماته (كما نقول إننا نخدع الجوع). وهو يخدم الواقع؛ لأنه يجعل العين تعتاد النرجسية.

وأخيراً، فإن المعرفة الواضحة للسمة الضرورية للصراعات هي التي . إن لم تكن الكلمة الأخيرة ـ تكون الكلمة الأولى لحكمة تدمج تعليم التحليل النفسي. ولقد جدد فرويد بهذا الشأن ليس مصادر المأساة فقط، ولكن 'المعرفة المأساوية'نفسها، بما أنها تصالح مع الحتمي. وليس مصادفة أن فرويد-الطبيعي، والحتمي، والعلماني، ووارث عصور التنوير- لم يجد في كل مرة، لقول الجوهري، إلا لغة الأساطير المأساوية: أوديب ونارسيس، إيروس، أنانكيه وتاناتوس. وإن هذه المعرفة المأساوية هي التي يجب على المرء أن يتمثلها لكي يصل إلى عتبة جديدة للأخلاق التي نعرض أن نشتقها من عمل فرويد بوساطة استدلال مباشر، ولكنها ستحضر خلال زمن طويل بوساطة تعليم غير أخلاقي للتحليل النفسي. هذا، وإن الوعي الذي يقدمه التحليل النفسي للإنسان الحديث ليعد صعباً، وإنه مؤلم بسبب المهانة النرجسية التي يفرضها: لكن الوعي بهذا الثمن يتصاهر مع التصالح الذي نطق أخيل بقانونه: 'بوساطة الألم، والفهم' (agamemnon البيت 177).

ومن جانب هذا التصالح، فإن النقد المجمل بادئ ذي بدء، والتكرار الداخلي الذي انطلقنا منه، يجب أن يسيرا معاً مباشرة، ويبقى الفكر حول التأويل الفرويدي معلقا، كما يبقى معلقاً المعنى العميق لهذا الهرم الكبير لوعي الذات، الذي كان قد دشنه كل من ماركس، ونيتشه وفرويد [1].

---

[1] عن كتاب :Le confli des interetations.

2 لقد التقى فرويد في عدد من المرات حدود النظرية: إنه يسأل نفسه من أين يأتي في 'موسى والتوحيد' التقدم اللاحق لفكرة الله. هذا التقدم الذي يبدأ مع منع عبادة الله تحت شكل مرئي؟ إن الاعتقاد بكلى القدرة للفكر (مرجع سابق. ص170) الذي يتعلق بالتثمين الذي يعطيه الإنسان لتطور اللغة. ليبدو أن يسجل نفسه في سجل آخر غير ذلك الذي يحكم النماذج الوراثية ونماذج النموذج الاقتصادي، وكذلك فإن فرويد لا يذهب بعيدا في هذا الاتجاه . وكذلك أيضا، فإن انتقال التركيز من الأمومة المرئية، إلى الأبوة التي هي ظنية، ليوحي بأن كل شيء لم يقل حول الأب عندما استدعينا التباين بين الحب والخوف. وهذا أيضا: هل تفسير سعادة التخلي بشكل شامل باللجوء، من جهة، إلى فكرة تصاعد الحب الذي تجيب الأنا العليا/ الوارثة للأب، بوساطة عن التخلي ن الإشباع الغريزي، وباللجوء، من جهة أخرى، إلى فكرة تصاعد النرجسية التي تضاف إلى الوعي بفعل له الجدارة (174، 178)؟. ولماذا يتم البحث عن معنى الدين فقط من جهة التخلي عن الغرائز الجنسية؟ ولماذا لا يراعى الدين أيضا ميثاق الأخوة ومعرفة المساواة في الحقوق بالنسبة إلى كل أعضاء قبيلة الأخوة؟ لا يعد كل شيء هنا تخليدا لإرادة الأب، وعودة للمكبوت، ولكنه انبثاق لنظام جديد.

فاعلية برنامج علاجي معرفي – سلوكي في خفض حدة أعراض الاكتئاب

مناقشة أطروحة دكتوراه الأستاذة صباح السقا

أ.د. محمد أحمد النابلسي

جامعة دمشق – كلية التربية

20 آذار / مارس 2005

تقدم هذه الأطروحة اقتراحات توفيقية عبر اختصاصية، بهدف تكامل التقديمات العلاجية، وتضافر جهودها، لتخفيف معاناة المرضى، ولدعم مستوى اللياقة النفسية في المجتمع، عبر علاج شريحة اجتماعية هامة ممن يتعرضون للاضطراب المزاجي.

عبر النتائج التي توصلت إليها الباحثة، وعبر الدراسات الداعمة لهذه النتائج، تقدم هذه الأطروحة نموذجاً للوساطة بين الطب النفسي، وبين العلاج النفسي والسلوكي – المعرفي خصوصاً، حيث التنافس بين هذه الفروع لا يزال قائماً في العيادات العربية، في حين تخطته العيادات الأجنبية إلى التعاون والتكامل. إذ تؤكد نتائج الدراسة على أفضلية الجمع بين العلاجين الطبي والنفسي للحالات الاكتئابية.

المعطيات المتوافرة

لقد وفقت الباحثة في عرضها للدراسات السابقة المتوافرة حول موضوع رسالتها. حيث بيَّن العرض الزمني لهذه الدراسات مختلف التطورات الحاصلة في المجال على الصعد التالية:

1- تطور إمكانيات العلاج الدوائي بظهور مضادات الاكتئاب الحديثة.

2- تنامي الميل لاعتماد العلاج الدوائي والنفسي المشترك، مدعوماً بالنتائج الفاعلة.

3- تطور قدرات وتجارب العلاج النفسي، ومعها تطور إمكانيات توصيف الأعراض وتشخيص الحالات.

4- التصنيفات الحديثة للحالات الاكتئابية. وفق الدليل العالمي العاشر للأمراض، والدليل الأميركي الرابع للاضطرابات العقلية.

5- الاختبارات النفسية الحديثة والمعربة لتشخيص الاكتئاب.

6- النظريات الباحثة في تفسير أسباب الاكتئاب، وتصنيفه وفقها.

7- التطورات اللاحقة بالإمكانيات التشخصية للحالات الاكتئابية.

8- الجديد في مجال العلاج المعرفي – السلوكي للحالات الاكتئابية.

ولنا على هذا القسم النظري الملاحظات التالية:

1- اعتماد الباحثة تواريخ صدور الترجمات والطبعات الأخيرة من المراجع، وهي مخالفة للتواريخ الأصلية، مما قد يسيء للترتيب الزمني للتطورات البحثية في المجال.

2- إيرادها إمكانية العلاج الجراحي للاكتئاب نقلاً عن مرجع عربي منشور في العام 2001 في حين تم التخلي عن هذا العلاج منذ الخمسينيات.

3- المواقف النظرية المختلفة لغاية التناقض في الدراسات السابقة المعروضة.

4- ضعف مراجع الطب النفسي، بالمقارنة مع مراجع علم النفس.

أهمية الدراسة / الوساطة عبر الاختصاصية

تعيد الأطروحة طرح إشكالية العلاج الدوائي للاضطرابات النفسية. فعندما يعتمد الطبيب العلاج النفسي الدوائي لمريض لم يسبق له تناول مثل هذا العلاج، فإنه يجد نفسه في موقف دقيق، فالعلاج الدوائي يعني شرعية تصنيف حالة لا معاوضة نفسية على أنها مرض نفسي فعلي، بما يترتب على ذلك من تغيير في التاريخ الصحي للمريض. ومن هنا تفرض الأخلاقيات تريث الطبيب قبل اعتماده للعلاج الدوائي. ففي الفترات المبكرة للامعاوضة النفسية يجب توجيه الجهود نحو دعم إمكانيات التكيف لدى المريض، بما في ذلك تعزيز إدراكه لتوازنه، وقدرته على الاستمرارية، ولجم التنظيم المرضي بهدف الحؤول دون هيكليته. إلا أن هذا لا يعني الدعوة إلى ترك المريض لإمكانياته التكيفية الذاتية. وإذا ما نحن انطلقنا من مبادئ نظرية التعلم، فإننا عاجزون عن تحديد أي الحالتين التاليتين هي الأكثر شيوعاً.

1- أن يؤدي التريث في استخدام الدواء إلى ترسيخ الأحاسيس المرضية وفق مبادىء نظرية التعلم عن طريق الإرتكاس الشرطي، مما يؤدي إلى تكرارية معاودة الأعراض والمرض.

2- إن عوامل الشدة والقلق والحزن هي من المستلزمات الإنسانية، وهي على علاقة بالطموح والتقدم الإنسانيين. ومن هنا فإن اللجوء إلى العلاج الدوائي يؤثر على قوة الأنا وقدرتها على التحمل والمواجهة.

وهذه المناقشة الأخلاقية تستتبع مناقشة أخلاقية للعلاج النفسي الموجه لعلاج العوارض، مثل العلاج السلوكي والمعرفي. فهل يمكن الاقتصار على العلاج العوارضي مع تجاهل الهيكلية الإمراضية؟.

وبهذا نعود إلى السؤال عما هو أفضل: العلاج النفسي، أم الدوائي؟.

إن الجواب الموضوعي على هذا السؤال يواجه عثرات ومعوقات عديدة، إذ تغيب الدراسات التجريبية المنضبطة حول نتائج العلاج النفسي، في حين تكثر مثل هذه الدراسات حول العلاج الدوائي، بما في ذلك التقويم الموضوعي للآثار الجانبية للأدوية، وإمكانية ومحاذير الجمع بينها وبين الأدوية الأخرى من نفسية وغير نفسية. ومع ذلك فإن هنالك ميلاً حديثاً لمراجعة نتائج الدراسات حول فعالية الأدوية. لكن هؤلاء المشككين يرون أن بديل العلاج الدوائي هو العلاج بدون أدوية نفسية، وليس العلاج النفسي.

إن مناقشة هذه الإشكالية تقتضي تخلي كل معالج عن موقف الدفاع عن أسلوبه العلاجي المعتمد، بما يساعد على تحديد أدق لأخطاء العلاج الدوائي وآثاره الجانبية. كما يحدد نواحي القصور في العلاج النفسي، سواء لجهة نقص الخبرة والتدريب، أو لجهة عدم تغطية العلاج النفسي لكامل معاناة المريض. والأطروحة التي بين أيدينا تقدم الاقتراحات للبحث عن هذه الأجوبة المطروحة عن طريق العلاج المشترك بين مختلف الفروع المعنية.

إجراءات البحث

1- **عينة الدراسة:**

تناولت الدراسة عينة مؤلفة من 28 مريضاً مكتئباً. وهي عينة كافية لمتابعة أثر العلاج النفسي، إلا أنها غير كافية لمتابعة آثار العلاج الدوائي. لكن الباحثة عوضت ذلك من خلال التشاور مع الطبيب النفسي لاختيار حالات علاج دوائي بعينها، حتى تمكنت من استخلاص عينة تتفق وفرضيات دراستها، بحيث توافرت لدى العينة الشروط التالية:

- أن يكون الاكتئاب عصابياً.
- استبعاد الأسباب العضوية.
- عدم تناول علاج مضاد للانهيار قبل شهر على الأقل.
- ملكية مستوى تعليمي معين (الإعدادية).

وبالنظر إلى هذه الشروط، أمكن للباحثة اعتماد عينة اكتئابية تعالج بالعلاج النفسي بدون دواء. وهي مسألة غير متاحة في الحالات الاكتئابية الأخرى، إلا أننا نلاحظ تجاهل الباحثة لعامل السن ، وهو عامل مؤثر في مختلف اضطرابات المزاج.

2- **أدوات القياس والتقويم:**

استخدمت الباحثة مجموعة من المقاييس والإستمارات الخاصة بالعلاج المعرفي – السلوكي، وهي:

1. مقياس بيك للاكتئاب.
2. قائمة الأعراض كما وضعها رضوان في سوريا.
3. استمارات وجداول خاصة بالعلاج المعرفي – السلوكي.

4. استمارات التقويم الذاتي.

5. بطاقة دراسة الحالة.

3- مراحل تطبيق الدراسة:

توزع تطبيق الدراسة على خمس مراحل، هي: 1-التدرب على العلاج المعرفي – السلوكي. 2-التطبيق القبلي لأدوات التقويم. 3-تطبيق البرنامج العلاجي. 4-التطبيق البعدي لأدوات التقويم. 5- تطبيق قياس المتابعة.

نتائج البحث

تم تقويم نتائج البحث باعتماد الخطوات التالية:1-تحليل نتائج الاختبار البعدي وتفسيرها. 2-نتائج اختبار الفرضية الأولى. 3-نتائج اختبار الفرضية الثانية. 4-نتائج اختبار الفرضية الثالثة. 5- نتائج اختبار الفرضية الرابعة. 6-نتائج اختبار الفرضية الخامسة. 7- نتائج اختبار الفرضية السادسة. 8-نتائج اختبار الفرضية السابعة. 9-نتائج اختبار الفرضية الثامنة. 10-نتائج اختبار الفرضية التاسعة. 11-حساب فاعلية البرنامج. 12-مدى تحقيق أهداف البحث. 13-مقارنة النتائج بالدراسات السابقة.

مناقشة نتائج البحث ومقترحاته

توصل البحث إلى إثبات الفرضيات الست الأولى، وهي نتائج موضوعية. ولم يثبت البحث الفرضية السادسة حول وجود فوارق ذات دلالة إحصائية بين مجموعة العلاج الدوائي ومجموعة العلاج النفسي. وتبرر الباحثة ذلك بعدم التزام المتعالجين بتناول الدواء. وهو امتناع يندرج في إطار أخطاء الوصفة الطبية، ولا يمكن الإستناد إليه لرفض الفرضية.

هذا وتقدمت الباحثة بجملة اقتراحات نوافقها عليها، ونقترح إضافة المقترحات التالية إليها، وهي التالية:

1- تطبيق البرنامج العلاجي النفسي (المعتمد في هذه الدراسة) في حالات الاكتئاب غير العصابية، مترافقاً مع العلاج الدوائي، حيث تبين الدراسات الحديثة فعالية العلاج النفسي في هذه الحالات.

2- تطبيق أدوات التقويم والقياس المعتمدة في هذه الدراسة على الحالات الاكتئابية المقاومة للعلاج الدوائي، لقدرة هذه الأدوات على تصويب التشخيص في حال عدم دقته، ذلك أن دعم التشخيص الطبي النفسي بتطبيق الاختبارات النفسية بات خطوة معتمدة في العيادات العالمية.

3- ضرورة إجراء دراسات متابعة للانتكاسات الاكتئابية لدى مجموعات مرضى يتلقون أدوية مشتركة، مع اعتماد خطوات الدراسة الحالية على كل مجموعة منهم.

مناقشات مؤتمر دولي في جدة:
الأخطاء الطبية وعلاقتها بالإعاقة وبرامج التدخل المبكر

د. هبة عطية لـ«الشرق الأوسط»: أكثر من 10٪ من أطفال العالم يعانون من إعاقات والنسبة في المجتمعات العربية أكثر...

تعرف منظمة الصحة العالمية الإعاقة بأنها حالة من عدم القدرة على تلبية الفرد لمتطلباته الطبيعية في الحياة، ومن بينها خدمة النفس الذاتية، العلاقات الاجتماعية، الأنشطة التعليمية، والاقتصادية، والمرتبطة بعمره وجنسه، وذلك نتيجة الإصابة، أو العجز في الوظائف الفسيولوجية والنفسية. وللعام الثالث على التوالي، ينظم مستشفى الملك فيصل التخصصي، ومركز الأبحاث في جدة، وتحت رعاية الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز، أمير منطقة مكة المكرمة، المؤتمر الدولي الثالث لإعاقات النمو عند الأطفال، وقد شارك في هذا المؤتمر نخبة من الباحثين والمختصين من داخل المملكة، ومن خارجها، لمناقشة الجديد في هذا المجال.

بذلك صرح المدير العام التنفيذي لمستشفى الملك فيصل التخصصي، ومركز الأبحاث في جدة، الدكتور طارق بن عبد الله لنجاوي، مؤكداً أن المؤتمر يهدف بشكل عام إلى التوجيهات والاستراتيجيات التنموية في مجال الإعاقة، ومناقشة مشكلات الإعاقة في العالم العربي، الأخطاء الطبية وعلاقتها بالإعاقة، وبرامج التدخل المبكر، الصحة النفسية لدى الطفل المعاق، التوجيه الأسري لذويهم إضافة إلى العديد من المواضيع الأخرى المهمة التي روعي عند اختيارها تزويد المشاركين بآخر المستجدات في مجال المعلومات الإكلينيكية الخاصة بالأطفال المعاقين في مختلف المراحل العمرية. نسبة عالية.

وأوضحت استشارية التخاطب في مستشفى الملك فيصل التخصصي، ومركز الأبحاث في جدة، ورئيسة اللجنة المنظمة للمؤتمر الدكتورة هبة عطية، أن نسبة الإعاقة التي يعاني منها أطفال العالم وفقاً لتقارير منظمة الصحة العالمية تتعدى 10 في المئة، وهم يعانون من إعاقات مختلفة تؤثر سلباً في حياتهم وطريقة تفاعلهم مع البيئة المحيطة بهم. أما بالنسبة للدول النامية ومجتمعاتنا العربية، فقد دلت البحوث والتقارير الدولية أن نسبة الإعاقات المختلفة بين الأطفال قد تفوق النسبة التي ذكرتها منظمة الصحة العالمية بكثير.

وعن حجم الإعاقة في المملكة، تقول الدكتورة هبة عطية إن آخر الدراسات التي قدمت في هذا المؤتمر تشير إلى أن الإعاقة الجسدية تشكل 33.6٪ من حجم الإعاقات في المملكة، والإعاقات السمعية 10.7٪، والنظرية 29.9٪. وتبلغ إعاقات النمو والتخاطب 13.4٪، والإعاقات العقلية 9.7٪ من إجمالي حجم الإعاقات في المملكة. ويعود ذلك إلى أسباب وعوامل عديدة من أهمها:

❖ عوامل حيوية مرتبطة بالجوانب الصحية، وناتجة عن تعرض الطفل للأمراض المختلفة قبل وأثناء الحمل و الولادة، ومنها أمراض سوء التغذية، والأمراض المعدية، واضطرابات التمثيل الغذائي، والأمراض الوراثية، وغيرها مما يؤثر في صحة الطفل.

❖ عوامل بيئية مرتبطة بالحالة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وبالممارسات المتبعة في بيئة الطفل، مثل التلوث البيئي، سوء المسكن، وانخفاض المستوى الاجتماعي للأسرة بشكل عام.

❖ مسببات الحوادث، وهي قد تكون بسبب الإهمال المقصود أو غير المقصود، أو نقص الوعي في البيئة، كحوادث السير، وحوادث المنزل، وحوادث العنف ضد الأطفال.

وعن الإجراءات الوقائية للحد من الإعاقة، تواصل الدكتورة هبة عطية أنها لا تقتصر على التقليل من احتمال حدوث الإصابة فحسب، ولكن تشتمل على إجراءات تحول دون تطور الإصابة إلى حالة من العجز. كما أنها تهدف إلى الحد من الآثار السلبية الناتجة عن حالات العجز، وإلى إتاحة الفرصة للطفل للتفاعل المثمر مع البيئة ضمن أقصى حدود قدراته، وبأقل درجة ممكنة من المحددات التي قد تعوقه.

مستويات الوقاية

تواصل د. هبة عطية الحديث قائلة: إن الوقاية من الإعاقة ممكنة، وهي على مستويات:

- **المستوى الأول:** في هذا المستوى تهدف الوقاية إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع مسببات الحوادث، والإصابات المؤدية إلى حدوث الخلل، سواء من الناحية الصحية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية المختلفة، وذلك قبل حدوثها، بحيث يكون الهدف في هذا المستوى الحفاظ على سلامة الطفل في حيز بيئته من التعرض لعوامل الإصابة.

- **المستوى الثاني:** في هذا المستوى تحرص الإجراءات الوقائية على الكشف عن الإصابة حال وقوعها، والتدخل المبكر لها لمنع مضاعفاتها، أو تطورها إلى حالة عجز تعوق الفرد من التفاعل المثمر مع بيئته. ومن أهم الإجراءات الوقائية في هذا المستوى التركيز على البرامج الإرشادية، من خلال البرامج الإعلامية التثقيفية والبرامج المدرسية، والمجتمعية المختلفة التي تكسب أفراد المجتمع المهارات الصحيحة، وطرق الإسعافات الأولية حال وقوع الحوادث، والحد من المضاعفات الناتجة عن الإصابات.

- **المستوى الثالث:** تهدف الإجراءات الوقائية في هذا المستوى إلى خلق توافق وتكيف نفسي للفرد ذي الإعاقة مع البيئة المحيطة به، تقديم البرامج المناسبة والمتكاملة للتدريب والتعليم، وزيادة الوعي من خلال وسائل الإعلام الموجهة لأفراد المجتمع في كافة شرائحه، ثم العمل على وضع التشريعات والقوانين التي تضمن حق الأفراد في العلاج والتعليم والتأهيل.

❖ ❖ ❖

مؤتمر الجمعية النفسية السودانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤتمر الثاني للجمعية النفسية السودانية

تعقد الجمعية النفسية السودانية، عضو الاتحاد الدولي للعلوم النفسية، مؤتمرها الثاني لعلم النفس تحت شعار 'علم النفس التطبيقي و ثقافة السلام' تحت رعاية الفريق عمر البشير، رئيس الجمهورية. ونأمل أن يساهم المؤتمر في ترقية تبادل المعلومات وبلورة الآراء وتعزيز التعاون بين علماء النفس في مختلف المجالات من جهة، وبينهم وبين بقية علماء العلوم السلوكية الذين لهم اهتمام بموضوعات المؤتمر من جهة أخرى وفقاً لمبدأ تكامل العلوم.

التاريخ: 1- 4 آب/أغسطس 2005

المكان: قاعة الشارقة، جامعة الخرطوم، السودان.

البرنامج العلمي:

(1) متحدثون رئيسيون من الخبراء المحليين والدوليين.

(2) أوراق عمل وبحوث محكمة في علم النفس التطبيقي.

(3) تجارب وممارسات في تطبيقات علم النفس.

(4) ملصقات علمية ومعرض مصاحب.

(5) ورش تدريبية متقدمة في علم النفس التطبيقي تسبق المؤتمر.

لغة المؤتمر:

تقدم الأوراق العلمية باللغة العربية، أو الإنجليزية، مع توفير الترجمة الفورية بينهما.

أهداف المؤتمر:

1- تبادل الآراء حول كيفية تعزيز ثقافة السلام.

2- تسليط الضوء على مساهمة علم النفس التطبيقي في الاستجابة للتحديات القومية والعالمية.

3- تبادل المعرفة والخبرات بين الجهات المعنية والمختصين في علم النفس التطبيقي.

4- مناقشة الدور الذي يمكن أن يساهم به علم النفس التطبيقي في مجالات التنمية المختلفة.

5- تبادل الآراء حول تطبيقات علم النفس غير التقليدية .

6- زيادة درجة تأثير علم النفس في البيئة، وتسويق علم النفس كمهنة مساعدة في حل المشكلات.

محاور المؤتمر:

(1) علم نفس السلام وتعزيز ثقافة السلام.

(2) الصفح والمسامحة وبرامج إعادة التأهيل .

(3) جوانب جديدة وغير تقليدية لتطبيقات علم النفس في الميادين المختلفة.

(4) علم النفس التطبيقي والتنمية الاجتماعية والاقتصادية في مرحلة السلام.

(5) قضايا البيئة، والأسرة، والهجرة والنزوح، والعلاج النفسي، وذوي الحاجات الخاصة .

(6) مساهمة علم النفس التطبيقي في بلورة الرأي العام ودراسة الاتجاهات النفسية.

الجهات المعنية بحضور المؤتمر:

(1) أقسام علم النفس في الجامعات .

(2) مستشفيات الطب النفسي، ومراكز الإرشاد النفسي.

(3) مراكز السلام المختلفة الحكومية، والمنظمات غير الحكومية.

(4) المراكز والمعاهد الخاصة.

(5) علماء النفس التطبيقيين في القطاع الخاص.

(6) المؤسسات الإقليمية والدولية ذات العلاقة بموضوع المؤتمر.

معلومات تنظيمية:

1- تقدم الأوراق في محاور المؤتمر في شكل محاضرات شفهية أو ملصقات علمية. ولكن سوف تحدد اللجنة العلمية طريقة العرض وفقاً لعدد الملخصات المقدمة والجلسات المتاحة.

2- الالتزام الكامل بالقواعد العلمية الصارمة في كتابة ملخص البحث، ولايقبل الذي لا يلتزم بها.

3- لا تطبع الملخصات التي تسلم بعد التاريخ المحدد أدناه في كتيب الملخصات، ولكنها تقبل للتقديم الشفاهي، أو في ملصق علمي.

4- يجب ألا تزيد كلمات الملخص على 200 ولا يقبل الملخص الذي يزيد عليها. ويتضمن الملخص: عنوان البحث، واسم الباحث، المؤسسة التي ينتمي لها الباحث، وعنوان الباحث كاملاً، ورقم هاتفه، وعنوان بريده الإلكتروني.

5- يجب أن ترسل ثلاثة نسخ من الملخص مطبوعة ومحفوظة كذلك في قرص مرن (مايكروسوفت) ويجب أن يكتب اسم الباحث وعنوان الملخص على القرص.

6- يجب أن يرتكز الملخص على البحث السيكولوجي التطبيقي أو النظريات أو الممارسة. وسوف تعطى أولوية للأوراق التي تستجيب لتحديات الواقع الراهن وتطبيقات علم النفس

7- تقيم الملخصات بواسطة اللجنة العلمية للمؤتمر، وسيتم إخطار الباحثين الذي تقبل ملخصاتهم للتقديم. وسوف تصنف الملخصات في الجلسات، أو الملصقات، حسب نوع الموضوع المعالج.

8- يجب أن يجهز الباحث الورقة المقدمة شفوياً في شفافيات، أو شرائح، أو وسائط متعددة، يسهل قراءتها على الشاشة بالنسبة للحضور داخل المقاعد المختلفة في القاعة.

9- سوف تجهز غرفة المحاضرات بأدوات العرض (بروجكتارالشفافيات والوسائط المتعددة) كما سوف تجهز لوحات خاصة للعرض بالنسبة للملصقات العلمية.

10- تقدم الأوراق العلمية الشفاهية في 15 دقيقة فقط و5 دقائق أخرى للنقاش. والأوراق التي يزيد تقديمها على 15 دقيقة لا تعطى زمناً للنقاش.

قواعد إخراج الملصق العلمي:

يجب أن يكون مقاس البوستر (الملصق) 180 × 120 سم.

يجب أن تكون الكتابة واضحة بخط اليد أو مطبوعة.

يجب أن يقرأ الملصق بصورة جيدة من مسافة متر.

يجب أن يكون صاحب الملصق متواجداً في الوقت المحدد لعرض ملصقه.

ربما يفضل لطلاب الماجستير عمل ملصقات علمية.

تواريخ هامة:

(1) 30 آذار/مارس 2005 آخر يوم لتسليم ملخصات البحث.

(2) 30 نيسان/أبريل 2005 مراجعة الملخصات، وإخطار أصحاب الملخصات المقبولة.

(3) 30 أيار/مايو 2005 آخر موعد لتسليم البحوث كاملة للجنة العلمية.

(4) 1 آب/أغسطس 2005 دفع رسوم التسجيل للمشاركين من خارج السودان.

رسوم الاشتراك:

1- رسوم السودانيين العاملين في الخارج والمشاركين من الدول الأخرى 200 **دولار أميركي.**

2- رسوم الطلاب من خارج السودان 100 **دولار أميركي** مع إثبات التسجيل كطالب نظامي.

3- تدفع الرسوم عند التسجيل للمؤتمر بالنسبة للقادمين من خارج السودان نقداً في 1 آب/أغسطس 2005، ولا تقبل الشيكات الشخصية، والشيكات السياحية، وبطاقات الائتمان.

4- على المشاركين من خارج السودان تحمل نفقات السفر والسكن والإعاشة. وسعت اللجنة التنظيمية للمؤتمر بإيجاد تخفيض في بعض الفنادق، ويمكن الاتصال مباشرة بهذه الفنادق.

الورش التدريبية ما قبل المؤتمر:

(1) نظرية وتطبيقات الذكاءات المتعددة (بروفسور كبشور كوكو قمبيل).

(2) نشر البحوث السيكولوجية في الدوريات الإقليمية والعالمية (د. عمر هارون الخليفة).

(3) مقاييس الشخصية، وكيفية بناء وتصميم المقاييس النفسية (د. مهيد محمد المتوكل).

(4) كيفية تقديم ورقة في مؤتمر (د. خالد الكردي) .

(5) الإرشاد النفسي للصدمة، وإدارة الضغوط (د. رقية السيد، وأ. سامي عوض).

(6) علم النفس المدرسي، وثقافة السلام (د. عبير عبد الرحمن خليل).

على الراغبين في الورش أعلاه تسجيل أسمائهم لدى الدكتورة مها الصادق حسب العنوان التالي: مركز التقوى للقياس والعلاج النفسي، أم درمان، ص.ب 98، السودان. هاتف مكتب (187)-(531178) -(249). موبايل 912915086-(249)، البريد الإلكتروني: mahaelsadig@hotmail.com

❖ ❖ ❖

جائزة البروفسور مالك بدري في علم النفس

أولاً: الجائزة السنوية والتي تقدمها الجمعية النفسية السودانية .

(1) جائزة واحدة لأفضل خريج في كل أقسام علم النفس في الجامعات السودانية.

(2) جائزة واحدة لأفضل (أ) بحث مقدم في رسائل الماجستير أو (ب) تغطية إعلامية لعلم النفس أو (ج) مراكز علم النفس الخاصة (د) مجالات أخرى .

ثانياً: جائزة كل سنتين تقدم مع انعقاد مؤتمر الجمعية النفسية السودانية.

(3) أفضل (أ) بحث مقدم في رسائل الدكتوراة أو (ب) أفضل الكتب المؤلفة أو المترجمة أو (ج) أفضل الدراسات المنشورة في دوريات محكمة في علم النفس.

(4) جائزة الخدمة الممتازة في علم النفس: تقدم لفرد واحد له إسهاماته المقدرة في تطوير علم النفس محلياً أو إقليمياً أو عالمياً، ويتم اختياره من قبل لجنة الجائزة .

لمزيد من التفاصيل حول جائزة مالك بدري الاتصال بمكتب سكرتارية الجمعية النفسية السودانية .

المراسلات الخارجية:

توجه جميع المراسلات الخاصة بالمؤتمر من خارج السودان على العنوان التالي: د. عمر هارون الخليفة، رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر، الخرطوم، ص.ب 12718، السودان

تلفون/فاكس مكتب: 183-760712 -249 ++

هاتف منزل: 185-324507-249 ++

هاتف موبايل: 912277467 -249 ++

البريد الإلكتروني: okhaleefa@hotmail.com

استمارة مشاركة

التاريخ: 1- 4 آب/أغسطس 2005

المكان: قاعة الشارقة، جامعة الخرطوم، السودان

أرجو أن تصور وتوزع هذه المطوية للمهتمين بعلم النفس التطبيقي

عنوان البحث----------

اسم الباحث (رباعي)----------

المؤسسة:----------

تلفون المنزل:----------

تلفون العمل:----------

الموبايل:----------

الفاكس:----------

البريد الإلكتروني:----------

عنوان البريد:----------

نوع المساهمة (ضع دائرة):

(أ) عرض شفاهي (15 دقيقة). (ب) ملصق (120 x180 سم). (ج) حضور جلسات المؤتمر دون تقديم ورقة. (د) حضور الورش التدريبية (ضع دائرة حول رقم الورشة المناسبة).

(1) نظرية وتطبيقات الذكاءات المتعددة (بروفسور كبشور كوكو قمبيل).

(2) نشر البحوث السيكولوجية في الدوريات الإقليمية والعالمية (د. عمر هارون الخليفة).

(3) مقاييس الشخصية، وكيفية بناء وتصميم المقاييس النفسية (د. مهيد محمد المتوكل).

(4) كيفية تقديم ورقة في مؤتمر (د. خالد الكردي).

(5) الإرشاد النفسي للصدمة، وإدارة الضغوط (د. رقية السيد، وأ. سامي عوض).

(6) علم النفس المدرسي، وثقافة السلام (د. عبير عبد الرحمن خليل).

(هناك رسوم للورش تحدد لاحقاً، وسوف يمنح المشاركون شهادات مشاركة من الجمعية).

محور الورقة (ضع دائرة):

(1) علم نفس السلام، وتعزيز ثقافة السلام .

(2) الصفح والمسامحة، وبرامج إعادة التأهيل .

(3) جوانب جديدة، وغير تقليدية لتطبيقات علم النفس في الميادين المختلفة.

(4) علم النفس التطبيقي، والتنمية الاجتماعية، والاقتصادية في مرحلة السلام.

(5) قضايا البيئة، والأسرة، والهجرة، والنزوح، والعلاج النفسي، وذوي الحاجات الخاصة.

(6) مساهمة علم النفس التطبيقي في بلورة الرأي العام ودراسة الاتجاهات النفسية.

(7) موضوعات أخرى ذات علاقة بالمؤتمر.

يجب أن يسلم الملخص في يوم 30 آذار/مارس 2005 . ترسل الملخصات العلمية حسب عنوان البريد التالي: د. عمر هارون الخليفة، رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر، الخرطوم، ص.ب 12718، السودان، تلفون/فاكس مكتب: 183-760712 -249 ++

هاتف منزل: 185-324507-249 ++

هاتف موبايل: 249-912277467 ++

البريد الإكتروني: okhaleefa@hotmail.com

التوقيع---------- التاريخ----------

معلومات للمؤتمرين القادمين من خارج السودان

يتحمل المشاركون في المؤتمر من خارج السودان تكاليف السفر والسكن والإعاشة. وسعت اللجنة التنظيمية للمؤتمر لإيجاد أسعار مخفضة للسكن في الفنادق التالية:

أولاً: فندق الهولي دي فيلا (الخرطوم شارع النيل)

الغرفة المفردة في اليوم مع الإفطار 175 دولاراً أمريكياً.

الغرفة المزدوجة في اليوم مع الإفطار 220 دولاراً أمريكياً.

بوفية الإفطار 16 دولاراً أميركياً.

بوفيه الغداء 17 دولاراً أميركياً.

بوفيه العشاء 20 دولاراً أميركياً.

عنوان الفندق: الخرطوم، ص.ب 316 شارع النيل، فندق الهولي دي فيلا، السودان.

هاتف: 183-774039-770352-249 ++

فاكس: 183-773961-249 ++

البريد الإلكتروني: hovikha@sudanet.net

البريد الإلكتروني: grandholidayvilla@hotmail.com

ثانياً: فندق المريديان (الخرطوم)

الغرفة المفردة في اليوم مع الإفطار 115 دولاراً أميركياً.

الغرفة المزدوجة في اليوم مع الافطار 135 دولاراً أميركياً.

سعر بوفيه الغداء 15 دولاراً أميركياً.

سعر بوفيه العشاء 15 دولاراً أميركياً.

عنوان الفندق: شارع القصر، الخرطوم، السودان

تلفون: 183-775970-775977-249 ++

فاكس: 183-779069-249 ++

البريد الإلكتروني: marketing@meridienkh.com

ثالثاً: فندق القرين فيلدج (الخرطوم- بري)

الغرفة المفردة في اليوم 89 دولاراً أميركياً.

بوفيه الإفطار 12 دولاراً أميركياً.

بوفيه الغداء 14 دولاراً أميركياً.

بوفيه العشاء 14 دولاراً أميركياً.

عنوان الفندق: الخرطوم، ص.ب 2366 ، فندق القرين فيلدج، السودان

هاتف: 183-280882-280883-249 ++

فاكس: 183-263658-249 ++

البريد الإلكتروني: greenvillagehotel@hotmail.com

رابعاً: فندق صحارى (الخرطوم)

الغرفة المفردة في اليوم مع الإفطار 60 دولاراً أميركياً.

هاتف: 183-796541-797542-249 ++

فاكس: 183-796540-249 ++

خامساً: فندق الخرطوم بلازا (الخرطوم)

الغرفة المفردة في اليوم مع الإفطار 70 دولاراً أميركياً.

الغرفة المزدوجة في اليوم مع الإفطار 100 دولاراً أميركياً.

هاتف: 183-772275-772371-772197-249 ++

فاكس: 183-773917-249 ++

سادساً: فندق قباء (الخرطوم)

الغرفة المفردة في اليوم 42 دولاراً أميركياً.

الغرفة المزدوجة في اليوم 50 دولاراً أميركياً.

العنوان: فندق قباء، ص. 44478، الخرطوم، السودان

هاتف: 183-787718-784423-249 ++

فاكس: 183-784395-249 ++

جميع هذه الفنادق في مدينة الخرطوم، وقريبة من موقع المؤتمر .

هناك سكن مخفض في بعض بيوت الضيافة من يرغب فيه عليه الاتصال باللجنة التنظيمية للمؤتمر .

❖ ❖ ❖

مؤتمر الإمارات (2005)

'الوحدة من خلال التنوع'

3 - 4 آيار/مايو 2005 / الإمارات العربية المتحدة ، العين – نزل الهيلتون
www.arabpsynet.com/Congress/uae2ndCongress.pdf

لمزيد من المعلومات أو الاستفسارات:

السيدة فدوى القرشي : فاكس / 009716 558- 5353
Fadwa.lkorchy@hct.ac.ae
WebSite:http://sacc.uaeu.ac.ae/

السيدة جوليان جونستون: 0097- 6 505- 4145
اللجنة التحضيرية للمؤتمر: 00971 -3 713 -1663
Arabpsynet Congress - " Arabic Edition '
http://www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Cong.Ar.htm

Counseling Arabia Conference 2005
Unity Through Diversity
Date: May 3 and 4, 2005
Location: Hilton Hotel, Al-Ain, United Arab Emirates
www.arabpsynet.com/Congress/uae2ndCongress.pdf
E.mail : Fatima.Aldarmaki@uaeu.ac.ae
Web Site : : http://sacc.uaeu.ac.ae/
Arabpsynet Congress - English Edition
http://www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Cong.Ar.htm

Arabpsynet Congress - " French Edition "
http ://www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Cong.Fr.htm

❖ ❖ ❖

APN INFO :

نأمل من الزملاء الأطباء النفسانيين، وأساتذة علم النفس الذين طلبوا عديد المرات مدهم كلمة عبور لتصفح الارتباطات المحمية بموقع الشبكة تكرم إرسال سيرتهم العلمية حسب النموذج التالي :

http://www.arabpsynet.com/cv/cv.htm

ذلك أنه يتعذر قبول الاشتراكات في الشبكة، وتسليم كلمة العبور دون إرسال السيرة العلمية.

عن رئيس الشبكة العلوم النفسية العربية

سكرتيرية شبكة

❖ ❖ ❖

Envoyer un message au Mailing List :
arabpsynet.info@arabpsynet.com
Envoyer un message au Journal : APNjournal@arabpsynet.com
S'inscrire : subscribe@arabpsynet.com
Désinscription : unsubscribe@arabpsynet.com
Fondateur de la liste : webmaster@arabpsynet.com

-Mise au point nosographique en pédopsychiatrie - Samedi le 7 Mai 2005 à l'hôtel Syphax – Sfax (TUNISIE)

Argument du Congrès

Cher(e) Collègue, Nous avons le plaisir et l'honneur de vous informer que sous l'égide de la Société Tunisienne de Psychiatrie Hospitalo-Universitaire (STPHU), en collaboration avec la Faculté de Médecine de Sfax et l'Unité de Recherche Neuropsychiatrie infanto-juvénile, le Service de Pédopsychiatrie de Sfax organise une journée scientifique consacrée à une mise au point nosographique en psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent et ceci le 7 Mai 2005 à l'hôtel Syphax de Sfax (coordinateurs : Pr. Farhat GHRIBI, Pr. Ag. Yousr MOALLA, Dr. Héla AYEDI).

Le choix de ce thème nous a été dicté par le constat de nouveautés nosographiques introduites au niveau des différentes classifications des troubles mentaux de l'enfant et de l'adolescent (ICD, DSM, CFTMEA).

Tous les psychiatres ainsi que ceux en formation et tous les médecins intéressés sont invités à y participer.

Nous serons très heureux de vous voir parmi nous et prendre part à l'enrichissement des débats lors de cette manifestation.

Dans l'attente du plaisir de vous revoir, je vous prie cher(e) collègue, de croire à l'assurance de mes meilleurs sentiments. Vous êtes cordialement invités à y assister.

الثلاثاء الأسود
خلفية الهجوم على الولايات المتحدة الأميركية

المؤلف: الدكتور محمد أحمد النابلسي.
الناشر: دار الفكر – دمشق 2001.

لقد كان للهجوم على الولايات المتحدة الأميركية في الحادي عشر من أيلول 2001 وقع الصاعقة على المجتمع الأميركي والدولي.

ذلك أنها المرة الأولى التي تتعرض فيها الولايات المتحدة إلى هجوم على رموزها الاقتصادية والعسكرية المتمثلة في مركز التجارة الدولي والبنتاغون وكادت طائرة من الطائرات المهاجمة أن تصل إلى البيت الأبيض لولا أنها أسقطت قبل وصولها إلى واشنطن.

والغريب أن وسائل الدفاع الجوي والاستخبارات الأميركية وقفت عاجزة عن التنبؤ مسبقا بهذه الضربات.

وهذه الحادثة المروعة لم تحدث من فراغ وإنما سبقها توتر أميركي داخلي وتصدير لفوضى سياسية على الصعيد الخارجي.

وقد استطاع الدكتور محمد أحمد النابلسي الخبير بالتحليل السياسي التنبؤ بما جرى نتيجة تحليله لما سبق من تحولات وتغيرات سياسية على الصعيد الأميركي، والدولي.

وهذا الكتاب دراسة بانورامية لمجمل العوامل التي لعبت دورا في الوصول إلى وقائع الثلاثاء الأسود.

السعادة الشخصية
في عالم مشحون بالتوتر وضغوط الحياة

المؤلف: الأستاذ الدكتور عبد الستار إبراهيم

عرض: أ.د عبد الله عسكر

رئيس قسم علم النفس- جامعة الزقازيق

صدر الكتاب عن مؤسسة اليمامة الصحفية في سلسلة كتاب الرياض رقم (132) عام 2005، وهو من الكتب المميزة التي تتناول موضوعاً في غاية الأهمية بأسلوب واضح وسهل يجعل منه مرشداً شخصياً لقارئه، فضلاً عن أنه يفتح أمام المتخصصين آفاقاً معرفية جديدة. وهكذا عودنا د. عبد الستار إبراهيم على الإبحار في محيطات النفس البشرية بقارب شراعي متقن الصنع، يعرف الطريق إلى آفاق هذه النفس البشرية، وما يصارعها من أمواج ورياح وما يعتريها من ضغوط خارجية، تسهم شخصيته في التفاعل معها، ليجد نفسه فريسة للقلق والاكتئاب والهموم، دون أن يعرف أن الخلاص بيده هو. ولهذا جاء عنوان الكتاب ' السعادة الشخصية ' بمعنى أن التفسيرات التي يمنحها الإنسان للظواهر التي تجلب التعاسة ليست في حقيقتها تعيسة، فالسماء الزرقاء الداكنة ليست تعيسة، ولكن المتشائم يرى فيها كآبة، والمتفائل يرى فيها حياة وتأمل، فوفقاً لإدراكنا يكون مزاجنا الشخصي. فنحن لا نستطيع أن نغير المناخ أو الظواهر الكونية المحيطة، بقدر ما نستطيع أن نغير في نظرتنا للأمور.

وصدق الله العظيم إذ يقول ' ولقد خلقنا الإنسان في كبد ' فكيف تكون المكابدة هي الأرض التي نزرع فيها أشجار السعادة كي تتجاوز أشواك التعاسة ؟ هذا ما يدخل بنا إلى آفاق هذا الكتاب القيم الذي يطرح إجابات عن كثير من الأسئلة مثل، ' لماذا ينجح البعض في الحياة، ويفشل البعض الآخر، بالرغم من تكافؤ الظروف العقلية والاجتماعية المحيطة بهم ؟

هل بالإمكان حقاً أن نحقق أحلام الأفراد في تحقيق ما يصبون إليه من سعادة وفاعلية؟

وما الذي علينا أن نفعله كمعالجين نفسيين، أو خبراء في الصحة النفسية، لتخفيف المعاناة البشرية من الآلام التي تعوق تطورهم ؟ وما الصعوبات التي تواجه الفرد لتحقيق هذا الهدف الجليل من أهداف الصحة النفسية ؟ وكيف نعينه على التغلب على هذه الصعوبات ؟' (الكتاب ص 6-7) .

هذه الأسئلة نجد لها إجابات فنية واعية تأتي من تراكم الخبرة المعرفية والعيادية للمؤلف، في الوقت الذي يحجبها العديد من الممارسين عن العامة كي يتربحوا منها من خلال عملهم العيادي، وواضح أن في جعبة المؤلف الكثير والكثير، وما هذا الدليل التشخيصي والعلاجي والوقائي إلا حرف من بحور علمه بالنفس البشرية.

ينبهنا هذا الكتاب إلى الشيوع الوبائي لضغوط الحياة، والتصدي لفهمها، وتحديد أسباب هذا الشيوع وأخطاره، وخاصة الوصول إلى درجات خطيرة من الاضطرابات النفسية والعقلية.

ويقع الكتاب في400 صفحة، وينقسم إلى 19 فصلاً مقسمة على ثلاثة أبواب، حيث يعرض في الباب الأول لعدد من الحقائق والمعلومات والمفاهيم المرتبطة بالضغوط النفسية، وعدد من النماذج والحالات التي تفاعلت مع التوترات النفسية اليومية، حتى وصلوا إلى مستوى من الاضطراب تطلب زيارتهم للعيادات النفسية، والتي قد تتمثل في العديد من الأعراض العضوية، مثل اضطرابات الجهاز الهضمي، والدوري، والحركي، وانخفاض المناعة، وزيادة الحساسية، والإجهاد، والصداع، وما إلى ذلك.. ، والأعراض النفسية، كالتوجس والخوف والقلق، وتقلب الحالة المزاجية، والشعور بالعجز، والغضب لأتفه الأسباب، والضيق، والأعراض الذهنية، مثل نقص التركيز، والعجز عن اتخاذ القرار، وسيطرة الأفكار غير العقلانية. وكذلك الأعراض في السلوك والتصرفات، مثل التوتر الشديد، والإفراط في التدخين، وتعاطي المهدئات والمنبهات، والمشكلات الجنسية، والتعرض للحوادث، وتدهور المستوى الدراسي، وكذلك الأعراض الواضحة في اضطراب العلاقة الشخصية والسلوك الاجتماعي، مثل الاندفاع وتزايد الصراعات الاجتماعية، وعدم الثقة في الآخرين، والانسحاب الاجتماعي، وما إلى ذلك؛ وكذلك انخفاض حاد في معدلات الأداء الوظيفي، والتي قد تعرض الفرد لترك العمل، أو الفصل نتيجة الغياب والمشاكل والإهمال.

ولهذا يحدد الكتاب المصادر الكبرى للضغوط النفسية، والناتجة عن الحياة اليومية، وبيئة العمل، والصراعات النفسية الانفعالية والعاطفية والعضوية، وأبعد من ذلك يزودنا الكتاب بعدد من الاستبيانات والقوائم الخاصة بتحديد مستوى الضغوط التي يمكن أن يخبرها القارئ بنفسه، ويحدد مدى ما يعانيه من ضغوط وتأثره بها.

وبعد أن يتعرف القارئ على الضغوط النفسية، وآثارها، في الباب الأول، يجد دليلاً علاجياً مميزاً ويسيراً في الباب الثاني، وخاصة أسلوب الاسترخاء الذي برع فيه المؤلف كعالم ومعالج، حيث يعرض لأهمية الاسترخاء كأسلوب علاجي مستقل، أو مصاحب لأساليب علاجية نفسية وطبية أخرى، ويعرض للعدد من أساليب التدريب على الاسترخاء، وماله من فائدة عظمى في استراتيجية مواجهة الضغوط، والتعامل معها بشكل يقلل، أو يزيل، الآثار السلبية للضغوط على الجسم والعقل والانفعال والسلوك. وسيجد القارئ كل ما قيل عن الاسترخاء وجدواه وأنواعه، مع باقة متنوعة من التمارين على الاسترخاء العميق، والاسترخاء

بالتخيل، والصور الذهنية المهدئة، والأساليب المختصرة للاسترخاء، وجدوى هذه التمارين، وكيفية تفعيلها وانعكاس أدائها على تحسين مستويات الصحة النفسية بصورة دالة.

ولا ينتهي الأمر عند التدريب على الاسترخاء لمواجهة الضغوط، وتحقيق السلامة العضوية والنفسية، بل يتجاوز الكتاب هذه الأساليب بإضافة الباب الثالث الذي يتوج هذا الدليل الإرشادي والعلاجي القيم بأساليب أخرى تزيد من فاعلية الفرد على مواجهة تحديات الحياة من خلال عدد من الاستراتيجيات والأساليب الهامة، مثل تغيير البيئة ، والابتعاد عن مصادر الصراع المشحونة بالتوتر والضغوط، وسيتعلم القارئ أساليب جديدة في إدارة الظروف الخارجية وضبطها للتخفيف من آثارها السلبية، ولا يعني إدارة الضغوط الخارجية مجرد تجنبها أو الهروب منها، ولكن كيفية معالجتها والتعامل معها. فعالم بلا ضغوط هو عالم الموتى وفقاً لإدراكنا الحسي، ولكن الضغوط بقدر ما هي ضارة، فإنها في الوقت نفسه مفيدة جداً، فبقدر ما يسعى الفرد إلى التخفف من التوتر الحاد بقدر ما هو بحاجة إلى اشتهاء قدر معقول من التوتر، وهذا ما يعلمنا إياه الفصل الثالث عشر برسم الحدود بين ما يمكن تغييره، ومالا يمكن تغييره لتحقيق السعادة الشخصية.

ومن المعروف أن الفرد لا يستطيع أن يضبط ويدير الظروف والضغوط الخارجية، قبل أن يتعلم كيف يضبط ويدير ضغوطه النفسية الداخلية، ولهذا يركز الفصل الرابع عشر على التعامل مع المشكلات الانفعالية المرتبطة بإثارة التوتر والضغط النفسي، وهم ما يطلق عليهم المؤلف بالأعداء الثلاثة ' القلق والاكتئاب والغضب' حيث يتفاعل الإنسان مع ضغوطه الخارجية بانفعالات سلبية، مثل الخوف والذعر والقلق والحزن والتشاؤم، وعدم الثبات الانفعالي، خاصة في تفجر نوبات الغضب، وكلها انفعالات تؤدي إلى تدهور القدرة على الحكم والتعقل في الأمور، وتؤدي بدورها إلى الانسحاب الاجتماعي، والانشغال البدني والعقلي بهذه الانفعالات السلبية، حيث تتباطأ الخطى، وتتوقف حركة الزمان وتتراكم الهموم، مما يؤدي إلى مسالك مضطربة تؤثر على الأداء الأكاديمي والعمل والعلاقات الاجتماعية، وسيجد القارئ سبل عديدة للخروج من مأزق هذه الانفعالات الضارة، ويتعلم كيف يتخلص منها بأسلوب علاجي وإرشادي متقدم.

ولاشك أن انشغال الإنسان بنفسه في حال مهاجمته بأي من الأعداء الثلاثة، القلق أو الاكتئاب أو الغضب، إنما يجعله بمعزل عن التواصل الاجتماعي السليم، حيث تتسع دائرة الاضطراب، ويجد الفرد نفسه منهكاً وهو يدافع ضد هذه الانفعالات الضاغطة، والتي تجعله أكثر عرضة لأتفه الضغوط الخارجية، والتي قد تجعله يشوه المدركات، ويقلب الحقائق، ويضيع منه الطريق إلى الحياة الطبيعية والسعادة، ولهذا يركز الكتاب في الفصلين الخامس عشر والسادس عشر على طبيعة الصراعات الاجتماعية، وأهمية وضع الآخرين في الاعتبار كطوق نجاة للخروج من المأزق الشخصي، وفي ذلك يقول المؤلف ' التواصل بالآخرين من خلال وجود شبكة من العلاقات الاجتماعية يلعب دوراً حاسماً في الإقلال من نسبة الوفيات وإطالة

العمر... (وهو) في صورته الإيجابية يعني وجود شبكة من العلاقات الاجتماعية الدافئة. وهو بهذا المعنى يفتح أمامنا آفاقاً من النمو لا حصر لها. أنظر لحياتك الشخصية، ستجد أن كل ما حصلت عليه من مزايا في الحياة: الصحة، والتفاؤل، والوظيفة التي تشغلها، والترقية التي كنت تصبو إليها، والنجاح الذي حققته أو ستحققه، والراحة التي تحصل عليها بعد عودتك للمنزل، وما تشعر به من رضا أو صحة نفسية أو عقلية. كل ذلك كان بسبب بضعة من الناس أحاطوك بالحب والرعاية والتقبل والتقدير ' (الكتاب ص 264).

ولذلك يعلمنا الكتاب كيف نكسب الأصدقاء، ونؤثر في الناس، كيف نتواصل معهم، ونجعل منهم داعمين ومشجعين لنا، كيف نتعلم أصول الألفة في العلاقات الزوجية، وكيف نتجنب الصراعات التي تسببها الضغوط على الحياة الأسرية، وكيف نتعامل مع الآخرين في ميدان العمل، ونحقق النجاح من خلال شبكة الدعم الاجتماعي التي ننخرط فيها، ندعمها وتدعمنا، ولاشك أن الهموم يخف حملها إذا تشارك الآخرون في حملها معنا.

ومع الإبحار في بحور الآخر، وحمام السباحة الاجتماعي، وأصول هذه السباحة الجيدة، والتواصل والتراحم الاجتماعي، يعلمنا الكتاب في الفصل السابع عشر كيف نتعلم عمل تحالف سوي مع حاجاتنا العضوية والبيولوجية، كي نتجنب التوتر النفسي، واضطراب السلوك، وكيف ندير نظامنا الغذائي، وراحتنا، والعناية بالجسم، التي تعود بالفائدة العظمى على أساليب التفكير والسلوك، وتجعل الفرد أكثر اتزاناً، فحين يكون البدن حليفنا، فلسوف نشق آفاق الحاضر انطلاقاً إلى المستقبل.

ويعبد الفصل الثامن عشر الطريق إلى السعادة، وفي ذلك يقول المؤلف ' إن وراء كل نجاح شخصي، أو تعاسة، يوجد بناء ونمط من التصورات والمعتقدات تدفع لهذا الطريق. أو ذلك.. فالأخطار الحقيقية التي قد تواجهك لن تكون من أمور خارجية، أو عضوية، بقدر ما ستكون من بعض المعتقدات وأساليب التفكير التي تحملها عن نفسك، وعن الآخرين، وعن العالم، والمواقف الخارجية التي تمر بك أو نمر بها. ستعرف أن التفكير قوة دافعة للتقدم والسعادة.. وستتعلم كيف يمكنك أن ' تنمي طاقاتك على التحمل والكفاءة من خلال توجيه نشاطاتك الذهنية والمعرفية... (التي تكشف لك عن نوافذ ومصادر السعادة البشرية التي لم تطرقها من قبل، وأن ترسم لك أهدافاً جديدة مفعمة بالحيوية وطاقة تحقيقها بنجاح ' (الكتاب ص 12 – 13)).

وهكذا نجد هذا الكتاب بمثابة دليل إرشادي وعلاجي يمكن استخدامه كدليل للبرمجة النفسية، أو هندسة النشاط النفسي الذي إذا صيغ بأسلوب منظم يمكن أن يجعل من المراكز الإدارية العقلية العليا قوة شافية تأخذ مساراتها الطبيعية في الحياة نحو السعادة بكل أشكالها، وهو ليس بمجرد كلمات مكتوبة، وإنما يعد دستور عمل للصحة النفسية، مستنداً إلى أحدث التقارير والبحوث العلمية التي لم تأت من فراغ، وإنما من خلاصة تجارب وأبحاث وممارسات عيادية رائدة، وهكذا نتعلم من ذلك المؤلف الموسوعي في النفس البشرية كيف

نفكر وكيف نكون، كيف نسعد، وكيف نستمتع حتى مع الشقاء، لينتهي الكتاب بتقرير حقيقة أن العقيدة الدينية تلعب دوراً إيجابياً في تحقيق الصحة النفسية والاجتماعية، وهذا ما يتطلب جهداً جديداً من هذا العالم المتألق ليرشدنا إلى الطريق السليم في ثقافتنا العربية التي تحمل في لغتها وعقيدتها الكثير من البرامج التي تتجاوز تلك البرامج الغربية في صيانة وصياغة النفس البشرية. وأترك للقارئ الاستمتاع بهذا الإبحار ليكتشف ما تكنه صفحات الكتاب من درر شافية في بيئات مريضة.

❖ ❖ ❖

مصالح الأبدان والأنفس

المؤلف: أحمد بن سهل المكني

تحقيق: الدكتور مالك البدري والدكتور مصطفى العشوي

الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

يذخر التراث النفسي العربي بالإشارات إلى علاقة صحة البدن بصحة النفس. وهي إشارات تشكل إرهاصات أولية لما يعرف اليوم بالطب النفسي – الجسدي (السيكوسوماتيك). ولعل إشارة ابن سينا في تجربة الذئب والحمل هي أهم هذه الإشارات. حيث مات الحمل لخوفه من الذئب المربوط بقربه دون أن يستطيع مطاولته. كما تشكل قصة الأمير العاشق الذي عانى من عوارض جسدية متطورة بسبب ولهه بإحدى النساء، وعادت إليه صحته بعد وصلها له.

إلا أن أهمية كتاب أبي زيد البلخي المعنون: ' مصالح الأبدان والأنفس ' لأحمد بن سهل المكني تتأتى من كونه جامعاً بين ملامح علاقة النفس بالبدن، ومتخصصاً في هذا الموضوع، مما جعله سباقاً في ميدانه. وأخرجه من تصنيف الكتب التراثية التي ناقشت تكراراً مواضيع بعينها.

يلفتك في هذا الكتاب تركيز المؤلف في ذلك الزمان (قبل عشرة قرون) على علاج الجوانب الانفعالية في سياق العلاجات الطبية. مع الاعتماد على المبدأ المعرفي في تعديل السلوك الانفعالي. حتى أنه قسم كتابه إلى قسمين، تناول في الأول الجانب البدني وكيفية تدبيره، ليتناول في الثاني تدبير الجانب النفسي – الصحي. وهذا القسم الثاني يتضمن إشارات لما تزل معاصرة ومهمة للباحثين في مجال الصحة النفسية.

تضمن الكتاب المنشور من قبل مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الفصول التالية:

❖ مقدمة تاريخية: سيرة البلخي وعصره/ د. العشوي: ويتضمن الفصل عرضاً لموقع ومكانة أبي زيد البلخي لدى علماء عصره. مع عرض للأجواء السياسية التي عاصرها.

❖ أبو زيد البلخي عالم نفساني سبق عصره/ د. البدري: وفيها تأكيد البروفسور مالك البدري على أن علماء النفس العرب لو قرأوا هذه المخطوطة لكانوا مؤسسي ورواد علم النفس السلوكي وعلم النفس المعرفي.

❖ تكامل الصحة النفسية والجسدية عند البلخي / د. العشوي: وفيه يعرض الدكتور مصطفى العشوي لتصنيف البلخي للاضطرابات النفسية. ومن ثم تأكيده على الفروق الفردية في تحمل هذه الاضطرابات بين شخص وآخر. مع التأكيد على العلاقة بين هذه الاضطرابات وبين الصحة الجسدية.

❖ عرض المقالة الثانية للبلخي (الصحة النفسية) / د. العشوي: قسم البلخي هذه المقالة إلى ثمانية أبواب هي:

1- الإخبار عن الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس.

2- تدبير صحة الأنفس.

3- تدبير إعادة صحة الأنفس.

4- في ذكر الأعراض النفسانية.

5-في تدبير الغضب وقمعه.

6- في تدبير تسكين الخوف والفزع.

7- في تدبير دفع الحزن والجزع.

8- في الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس.

يقع الكتاب في 180 صفحة من الحجم الكبير، وهو إضافة هامة إلى مكتبة التراث النفسي العربي، خاصة وأنه يتناول موضوع الطب النفس جسدي، حيث ندرة التطرق الى هذا الموضوع في التراث العربي، كما في التراث الإنساني عامة.

❖ ❖ ❖

http://www.arabpsynet.com/pass_download.asp?file=5
Mo) - pdf. Zip Document4.2) Download All Journal

❖ ❖ ❖

محتويات العدد / Contents

رسالة المحرر / Editorial Letter

العدوان المرتد إلى الذات ... عنف آخر - جمال التركي – تونس.

الملف 2 : قراءة سيكولوجية العنف الآخر...

اللعب في الوعي ...و أسلحة الانقراض الشامل : يحيى الرخاوي – مصر.

ظاهرة العنف السياسي : قدري محمد حفني – مصر.

المتغيرات التي طالت الأسرة اللبنانية وأثر الحرب : منى فياض – لبنان.

قراءات : العنف الخفي ، صناعة الجنون ، الاحتلال و ثقافة السلاح، صياغة ثقافة الإرهاب،سيكولوجية البطالة .

أبحاث و مقالات أصيلة / Articles & Original Papers

تأثير التنشيط الذاتي للذاكرة على التحصيل العلمي : زياد بركات - فلسطين.

الجوانب المعرفية عن أمراض الكلى : عبد الخالق نجم عبد الله - رعد رحيم صالح – ليبيا.

معوّقات البحث العلمي في الجزائر : بشير معمرية - الجزائر.

علم نفس الحاسوب ... نحو قراءة تصنيفية : فارس كمال نظمي - العراق.

Multilingualism vs. Arabisation of psychiatry in the Arab USA - countries : Numan M. GHARAIBEH

Les aptitudes de communication des médecins généralistes : A. KORICHI – R. ZAATOUT - ALGERIE

ملخصات: المرأة المصرية و المرض النفسي، المرأة و الإحساس بالألم،العلاج العائلي للفصام،سيكولوجية اللعب.

مؤتمـرات / Congress

المؤتمـر المصـري 21 لعلم النفس : مصـر.

الملتقى الخامس لوحدة الأبحاث النفسمرضية : تونـس.

الملتقى التونسي الإيطالي للتحليل النفسي : تونـس.

th Turkish Scientific Congress of Anxiety : TUNISIA4

مؤتمـر الإرشـاد فـي الـدول العربيـة : الإمـارات.

المستجدات التصنيفية في طبنفس الطفل : تونـس.

المؤتمر الدولي الأول لقسم علم النفس: مصـر.

المؤتمر 2 للجمعية النفسية السودانية: السـودان.

Psy Congress Agenda : 2nd Quartly - 2005

مـراجعـة كتـب / Books Review

مدخـل إلـى سيبرنطقيـا التفكيـر : سليمـان جـار الله.

الوســواس القهــري : محمـد شريـف سالـم - مصـر.

مشاهد من على كرسي الطبيب النفسي: خ. م. فاضل.

Bassam AOUIL : Online Psychological Services

مـراجعـة مـجلات / Journals Review

المجلة العربيـة للطب النفسي : المجلد 15- العـدد 2 – 04

مـراجعـة مواقـع ويـب / Web Sites Review

Islamic Philosophy Online : Numan M. GHARAIBEH

جمعيـات نفسانيـة / Psy Association

The International Association of Muslim Psychologists

جـوائـز دوليـة / International Prizes

جائـزة مؤسســة ابـن رشـد للفكـر الحـر .

الكتاب الذهبي للشبكة / APN Gold Book

انطباعات اختصاصيو وأساتذة علم النفس.

نصوص الشبكة / **APN Texts**

مشروع شبكة العلوم النفسية العربية : جمال التركي.

Slimane JARALLAH .Le projet ARABPSYNET : Trad

مستجدات الطب النفسي / **Psy New Papers**

... BD - MDD - DDD - PPD - SCZ - PMS - PMDD

مصطلحات نفسية / Psy Terminologies

عربية : الحرف ' أ '

English: « A » Letter

Françaises : La lettre «A »

للإطلاع على الأعداد السابقة للمجلة الإلكترونية للشبكة

APN eJournal Mail

APNjournal@arabpsynet.com

❖ ❖ ❖

مدخل إلى سيبرنطقيا التفكير

د. سليمان جار الله - الجزائر

مقدمة الكتاب : البحث في كيفية عمل الجهاز العصبي عموماً، والمخ خصوصاً، في كثير من أنشطته، كالتفكير والإدراك والدوافع، تعتبر من أساسيات توافق الإنسان مع البيئة. كانت وما زالت محل اهتمام العديد من العلماء، ومن تخصصات متعددة، محاولين فك الألغاز التي تحيط مثل هذه الأنشطة المميزة للإنسان. مع تقدم العلوم، بدأت مفاهيمها وحقائقها تتجلى

أكثر. فلقد أماط علم النفس اللثام عن سلوك الإنسان ودوافعه، واستطاع علماء البيولوجيا أن يتعمقوا في معرفة مكونات خلايا الأنسجة المختلفة وعلاقتها ببعضها البعض، ومحاولاتهم لوضع خريطة الجينات، وهم على وشك الانتهاء من رسمها ...

❖ ❖ ❖

الوسواس القهري
(دليل عملي للمريض والأسرة والأصدقاء)

د. محمد شريف سالم

مكتبة دار العقيدة القاهرة – الأزهر، مصر.

مقدمة الكتاب : إذا كنت إنساناً سوياً، ولا تعاني من الوساوس القهرية، فسيبدو هذا الكتاب قليل الفائدة بالنسبة لك، ولكنك ستدرك أن هناك آلاف المرضى الذين يعانون من أفكار وأفعال غريبة. وإن كنت مريضاً، وتعاني من فكرة وسواسية معينة، أو فعل قهري، فلا تستغرب باقي الأفكار والأفعال، فهي لا تعنيك، بل تعني غيرك.

إن هذا الكتاب كتب للجميع حتى يستفيد منه كل من له علاقة بهذا الموضوع، ولعل من نافلة القول أن نقول ...

❖ ❖ ❖

مشاهد من على كرسي الطبيب النفسي

د. خليل محمد فاضل خليل

مصر - مكتبة الأسرة 2003

خطة الكتاب : يخطط الكتاب للمعرفة من خلال البوح الإنساني والمعلومة النفسية، فيتنقل بين حالات عادية معروفة تشخيصياً، وبين حالات حدثت، رصدت ونشرت عالمياً. ومن ثم قسمها المؤلف إلى خمسة فصول تبعاً لتوجهها، وليس ليافطتها العلمية من أجل توليد المعرفة بشكل أكبر.

من خلال الرصد الدقيق للتاريخ الحياتي والمرضي، ومن تفسير أخبار الناس بشكل دقيق، ثم بتأمل الحالة الإنسانية العامة من خلال محاور ثلاثة : المحور البيولوجي، أو الجسدي، أو المخ، والجهاز العصبي، وكيمياء كل هذا، المحور الاجتماعي بكل ما يكتنفه من صراعات

واتجاهات، والمحور النفسي بكل آلياته وتوتراته وتأرجحه بين مساحتي العقل المتوتر والجنون الفعلي : المؤقت والمزمن- المبدع والمرضي. وهكذا تسير خطة الكتاب من أجل هدف واحد هو شرح النفس في حالتها المتحيرة، وفي لوعتها المرتبكة من أجل صحة - وقائية من خلال الفهم العميق والمعرفة الحقة...

❖ ❖ ❖

المجلة العربية للطب النفسي

المجلد الخامس عشر – العدد الثاني – تشرين الثاني/نوفمبر 2004 - الأردن

الأخلاق الطبية من المقاصد الشرعية

عمر حسن كسولا

الملخص : إن القانون الوضعي الأوروبي ينكر الاعتبارات الأخلاقية المرتبطة بالدين، ولذلك فقد فشل في تقديم الحلول المتعلقة بمواضيع طبية حديثة تتطلب اعتبارات أخلاقية، وهذا أدى إلى ظهور اختصاص الأخلاق الطبية، والتي لا يتبناها القانون، ولا هي أخلاق تنبع من الضمير الإنساني. القانون الإسلامي شمولي، ويحوى، مبادئ أخلاقية تنطبق مباشرة على الطب.

هذه الورقة تقترح أن نظرية الأخلاق الطبية في الإسلام يجب أن ترتكز على خمسة مقاصد في القانون، والتي يمكن تسميتها مقاصد، وهذه الأهداف الخمسة هي: حدة الدين، حدة النفس، حدة النسل، حدة العقل، وحدة المال. وإن أي عمل طبي لابد أن يأخذ بأحد هذه الأسباب حتى يعتبر أخلاقياً، وإذا خالف الإجراء الطبي أي المقاصد الخمسة اعتبر لا أخلاقياً.

كما تقترح هذه الورقة أن المبادئ الأساسية للأخلاق الطبية في الإسلام يجب أن تستنبط من خمسة مبادئ من قواعد الشريعة وهي : القصد، اليقين، الضرر، المشقة، والعادات.

إن المقاصد والقواعد الشرعية يجب أن تستعمل بشكل متكرر، فالهدف من القواعد هو تقديم الأسس الواضحة لحل المواقف والخلاف بين وضمن مختلف المقاصد. إن التحدي أمام الأطباء المسلمين هو أن يحرروا أنفسهم من المبادئ والنظريات الأخلاقية الأوروبية المختلطة والغير منسجمة، وأن يعملوا بجد لتطوير أنظمة محددة لكل المدخلات الطبية (ثوابت الطبابة) وذلك بالعودة للاجتهاد، وهذا الاجتهاد لابد أن يعتمد على المصادر الأولية للقانون، وهي القرآن الكريم والسنة الشريفة. المصادر الثانوية للقانون في الاجتهاد تعتمد على مصادر-

(الإجماع والقياس) وتعتمد أيضاً على مصادر عقلية (الاستشهاد، الاستشعار، والإصلاح) وكذلك مقاصد الشريعة وقواعد الفقه وثوابت الفقه.

في الفترة الأولى من الطب الشرعي (حتى 1400 هجري) كانت تحل معظم القضايا بالإشارة للمبادئ الأولية للقانون، وفي الفترة المتوسطة (بين 1401-1420 هجري) فقد حلت الإشكالات باللجوء للإجماع والقياس والاستشهاد والاستحسان والاصطلاح، أما في الفترة المعاصرة من 1420 هجري، وحتى الآن، فإن التكنولوجيا الطبية قد خلقت العديد من الإشكاليات، و التي يعتمد حلها على أسلوب واسع الأفق، و الذي لا يمكن أن يتوافر إلا في المقاصد الشرعية...

الهجرة وأمراضها النفسية

سليم عنابي – أنور الجراية – محمد بسباس – جمال التركي
الطب النفسي - تونس
البريد الإلكتروني: annabislim@voila.fr

مقدّمة: لا يمكن للمرء أن يعيش حياة سعيدة وآمنة إذا لم تتوافر لديه أدنى متطلباتها، في الشغل والسكن والاستفادة من الثقافة والتوغّل في معانيها .هذه الفوائد ضرورة لا بدّ منها إذا أردنا بناء مجتمع سليم يتطلّع إلى مستقبل زاهر.

فالشّعوب المتطورة هي تلك التي ما انفكت تراهن وتعمل قصد ضمان مستقبل الأجيال اللاحقة، واستطاعت استيعاب العلم الذي مكّنها من السمو وبناء حضارة حديثة(غرسوا فأكلنا ونغرس فيأكلون).

ويهمّنا ممّا سبق إبراز صورة المهاجر الذي يسعى إلى تحسين ظروفه الحياتية دون اعتبار المخاطر التي قد تتوعّده.

إنّ للهجرة خصوصياتها ومميزاتها، فهي تتجاوز كل الاعتبارات، ويرتبط مصيرها بمشيئة الأقدار. فالمهاجر قد يندفع في صراع يومي لا أحد يعلم نهايته، باحثاً عن لقمة العيش والاستقرار والانصهار في حياة هادئة، بيد أنّ هذه الأماني قد تتبخّر في ديار الغربة، ويصبح إذّاك من المستحيل تحقيقها. ويظلّ وضع المهاجر تبعاً لما سبق كالمعّلق بين الأرض والسّماء:معّلقا بين واقع صعب ومرير يعيشه مُكرهاً ابتغاء سدّ الرّمق، ومحاولة إثبات الوجود وقلما يطاله، فيتميّز إذّاك إحساسه بالتّشرّد والانبتات بين الموجود و المنشود.

وفي هذا الوضع الخاص قد تتراكم عقده، وتتعدد أمراضه النّفسيّة، ولعلّ ذلك فقط هو الذي سوّغ لنا تناول هذا الموضوع بالبحث والتّمحيص، محاولين التعرف قدر الإمكان على كل الملابسات التي تكتنفه، خاصّة وأننا كما رأينا سابقاً، فإنّ المهاجر قد يكون عرضة لكلّ هذه الأمراض لأن الهجرة والغربة هي ّالتي مهدت الأرضية لتهشيم نفسيّة المهاجر ودوسها.

وقد ارتأينا أن نبدأ ببسط الظاهرة بتعريف المهاجر والهجرة، ثمّ تعرضنا في الفصول اللاحقة إلى ممهدات ظهور الأعراض النّفسيّة والجسديّة ومظاهرها، معرّجين على الفئات المستهدفة، كالمهاجر وزوجته وأبنائه، وخاصّة من أبناء الجيل الثّاني الذين ولدوا في أرض المهجر.

❖ توطئة

- ما معنى هاجر؟

جذرها ثلاثي، ويعني هجر أي ابتعد ونأى في المكان (ويقول هنا مثلنا العاميّ إنّ كلّ متنقّلة مذبّلة)، ومنها الهجران، وهو الهجر أي الانفصال عمّن كان لنا به سابق وصال، ومنها الهجرة، وهي الموضوع الذي سنشتغل عليه، وتعني الانتقال من بلد إلى بلد آخر، وما يتبع ذلك من انتقال في العادات والتقاليد. ولعلّ ذلك أوّل ما يصدم المهاجر، إذ أنه سيفاجأ بعادات جديدة، وتقاليد غريبة لم يألفها، وربما كان يرفضها بمعيّة مجتمعه في وطنه الأم. ثمّ سيجد أناساً جدداً قد يختلف عنهم إلى حدّ التّباين، وفي بعض الحالات يجد طبيعة أخرى تسهم بطريقة أو بأخرى في إحساسه العميق بوطأة غربته. وإذا عدنا إلى لفظ الهجرة في حدّ ذاته نلاحظ أنه حركة واعية يقوم بها الفرد، إلّا أنّها قد تكون إرادية، أو لاإرادية، أي يكون فيها المهاجر مضطرّاً. وعموماً تكون الحاجة هي الدافع الأساسي للهجرة، وهذه الحاجة قد تكون اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية. وقد لا تكون إرادية إذا كان الدافع سياسياً، كاللجوء السياسي، أو النّفي، وهنا تكون الغربة أعمق وأشدّ وطأة عليه، إذ هي تعتبر في هذه الحال حقّاً مسلوباً منه قد ورثه عن أجداده. وقديماً استعمل لفظ الهجرة مفرغاً من معناه الحالي في بداية الدعوة المحمّدية الحنيفة، ولربّما تفطن الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى أنّ الهجرة تكتنز الوحدة المريرة، والإحساس العميق بالغربة، لذلك سارع إلى مبدأ اقتسام الأرزاق والتّعايش السلمي والمشترك بين المهاجرين والأنصار، بل وحثّهم على التّصاهر.

- من هو المهاجر؟

قبل وصف الأمراض النّفسيّة والجسديّة التي تصيب المهاجر، نودّ طرح بعض الأسئلة التي تعرّفنا على شخصيّة المهاجر ومقوّماتها.

- من هو هذا المهاجر؟
- لماذا المهاجر المغربي بالذات؟
- ما هيّ طبيعة شخصيّة المهاجر المغربي؟

المهاجر المغربي هو الإنسان الذي يغادر موطنه الأصلي، أي أصقاع المغرب العربيّ، قصد استعمال قوّته الجسديّة، أو العلميّة، لكسب قوته في مجال جديد، وأرض جديدة، وعادة ما تكون دولة من دول أوروبّا، وذلك لقربها الجغرافي، أو لارتباط تاريخي حديث(فرنسا، إسبانيا، بلجيكا، إيطاليا، ألمانيا).

إن هذا التّعريف يبيّن مدى أهمية النّظرة التي يوليها المهاجر إلى جسده وعضلاته، كقوّة إنتاجية تضمن له كيانه في أرض المهجر، حتّى أنّها قد تطغى على توازنه النّفسيّ الشامل، وتصبح أية إصابة جسديّة تمسّه كارثة غير محتملة بالنّسبة إليه. من الممكن أيضاً تعريف المهاجز بأنّه ذاك الإنسان الذي يسعى بطموحه إلى حياة أسعد وأكثر رفاهيّة في بلد غير بلده، حيث أن الهجرة تفرض نفسها في بعض الأحيان كوسيلة وحيدة للخروج من الضيّق المادي

الشّديد، لا لإنقاذ الفرد كفرد وحيد فحسب، بل ولإنقاذ أسرته أيضاً من غوائل الفقر والخصاصة بشكل أعمّ.

والمهاجر المغاربي يختلف عن غيره من مهاجري أغلب البلدان العربيّة بأنه يكون عادة من سكّان البادية والقرى أو المدن الصّغير ة، لذا فإنّ خياله، وكذا أساليب الإعلام، قد تنطلق به إلى الظنّ بأن المجتمع الذي سيهاجر إليه هو مجتمع تنعدم فيه المشاكل، ويحلو فيه المقام، ويوفر له كلّ الإمكانيات التي تجعله قادراً على استيفاء حاجيات أفراده والاستيعاب الجيّد، ويحسن فيه قبول الوافدين من كلّ الأصقاع، ولعلّ وسائل الإعلام الأجنبية هي التي رسّخت بصفة مباشرة، أو غير مباشرة، هذا الزّعم،وذلك لغايات أيديولوجية تتلّخص في تحسين صورة الغرب بتقديمه في ثوب المقدس لقيم التسامح الديني، والخالي من التعصّب والعنصرية، والكافل للحريات الاجتماعية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عادة ما نلاحظ أن فئة من بين تلك التي سافرت وتشردت، وذاقت عذاب الغربة ألواناً، تسعى بطريقة ما إلى محاولة إخفاء ودرء النّدم، محاولة جاهدة أن تظهر بمظهر الذي سافر وحقق كلّ الطّموحات والأماني دون التعرّض إلى أيّ حاجز أو مشكلة، وتبدو هذه الفئة غير نادمة، بل على استعداد لإعادة الكرّة إذا توافرت لها الكرّة من جديد. كلّ هذا الشّعور قد ينبع من أغوار أعماق بني آدم، وهو الإنسان(العاقل) وهو المسؤول عن أفعاله، لذلك يجب أن لا يتسرب النّدم إليه، أو بلغة أصحّ يجب أن يستبطنه ويتظاهر بالبهجة، ويتخايل أمام الآخرين متراائياً إلى ذلك بعين الرضا، محاولاً أن يزيّن لغيره من الشّباب الطموح أنّ الهجرة هي حلّ جذريّ لكلّ صعوبة ومأساة، وبها تتحقّق كرامة الإنسان، لأنه عن طريقها سيشبع رغباته المادية والاجتماعية، ويرضي غروره أمام أقرانه.

فأيّ شاب مغاربيّ لا يحاول أن يقول الحقيقة (حقيقة ما يحدث له في الواقع). ولا يحاول أن يظهر فشله في هذا البلد. بل يتبجّح بإعطاء صورة كاذبة عادة ما تتجاوز حدود الواقع الملموس، فيوهم الآخرين بنجاحه، ويسرد لهم وقائع وهميّة زائفة للحياة 'اللذيذة' التي يعيشها في أرض المهجر، ويقارنها بأحواله المعيشية التي كان يحياها في بلده الأصل. فقد يكون محقاً بعض الشيء، لكن ثمّة نسبة صغيرة من الصحّة في ما يقوله، وهي مرتبطة أساساً بوضع اجتماعي معين كان سائداً من قبل. فالنجاحات التي يتحدّث عنها بعض الجماعات لا يربطونها بالظّروف الاجتماعية التي هيأت بزوغها – أي بزوغ تلك النجاحات ... فالمعروف أنه في فترة من الفترات التاريخية، ولقلّة الأيدي العاملة في أوروبا، كان من السّهل على المهاجر المجيء والاستقرار والعمل والكسب، بل إنّ المؤسّسات الأوروبية كانت تسمح للطلبة خلال تلك الفترات بالعمل، رغم أنّ القوانين السائدة لم تكن تسمح أصلاً بذلك إلاّ في الإجازات الرسمية، (إذ أنّ العامل الأوروبّي كان يتمّتع في تلك الفترة بإجازته في فصول الصّيف مثلاً، معوّلاً على تلك اليد العاملة التي تشتغل بدون قوانين تحميها من الطّرد والتّمتّع بضمانات التّرسيم)، إلّا أنهم في الفترة التي كانوا فيها في أمسّ الحاجة إلى اليد العاملة كانوا

يحظّون المغاربة على الهجرة عن طريق مؤسّسات رسميّة، وذلك في نطاق تعاقدات دوليّة، مثلهم مثل الفرنسيين ألّذين استوعبوا عدداً وفيراً من العملة لمؤسّساتهم الصّناعيّة، وكذلك الزّراعيّة، إثر استقلال الجزائر، وانفصالها عن فرنسا، فلمّا بدأت ظاهرة البطالة، وتفاقمت حدّة أزمة النظام الرأسمالي الغربيّ أخذ ت الحكومات الأوروبيّة تطبق القوانين جذريّاً كما هي في الأصل وأحجمت عن إصدار أيّ استثناءات على الطلبة الأجانب، بل أخذت تطبّق القوانين تطبيقاً عسيراً حتى بات، من الصعب في الوقت الحاضر مثلاً، أن يعمل الطالب في شركة ما، أو مؤسسة، أسبوعين متتاليين، بينما لم تكن تلك القيود مطبّقة من قبل.

وإذا عدنا إلى المهاجر نلاحظ أنه لم يتخذ قرار السفر إلاّ ابتغاء تحسين وضعيته الاقتصادية والاجتماعية، لذلك نراه في أغلب الأحيان ينحدر من عائلة متواضعة الإمكانيات وأحياناً وفيرة العدد، فيقنع عائلته أوّلاً بأنه سيسافر من أجلهم، وربما يضحّي بالغالي والنفيس من أجل أن يتمتّعوا هم،أي عشيرته برغد العيش، فيزيّن لهم مآثر الهجرة، والربح الوفير، الذي سيجنونه عبر تضحياته الشّخصيّة. يحدث كلّ ذلك قصد إقناع أهله بشرعية سفره، ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى أقربائه ومعارفه، ويُخرج لهم البلد المراد السفر إليه في أحسن صورة حتى يستطيع التأثير عليهم، ويجعلهم أسخياء إزاءه عند الاقتراض منهم، فيطلقون أيديهم على آخرها -ويصبح في هذه الحالة ذاك المواطن البسيط جهازاً بنكيّاً يحوّل تلك الأم والّتي لا تصرّف في الخارج إلى أوراق نقديّة مطلوبة في كلّ الرّبوع، ولاسيّما بلده الأصلي.

3- لماذا الهجرة ؟

ما أن يّتخذ قرار السّفر حتى تظهر أمام المهاجر الحديث مشاكل عديدة وجديدة، منها كيفيّة حصوله على المال الّلازم للسّفر، ولسدّ تكاليف الأيام الأولى لإقامته في أرض المهجر. وعادة ما يحصل بسهولة على كمّيات هائلة من المال، للأسباب ألّتي سبق ذكرها.

فعندما يتحصّل على ما يحتاجه من زاد ومال، يرى عادة بين يديه لأول مرّة مبلغاً ضخماً لم تسبق له رؤيته من قبل حصل عليه بتضحية من عائلته التي قد تكون باعت ما لديها من متاع، أو استدانت من الأهل والجيران الذين لا يبخلون عليه عادة بهذا القرض على أساس أنه سيعيده من بلد المهجر بالّنقود الأجنبية. وهكذا نرى أن قرار الهجرة، وإن كان يبدو ظاهريّاً قراراً فرديّاً، فهو في الواقع نتيجة لتضحية جماعيّة تربط المهاجر بالتزامات عليه الوفاء بها وتجعله يتبوّأ مركزاً هامّا، وأملاً منيراً، بالّنسبة لعائلته، ولكل من ساعدوه على السّفر. ولن تكون الخيبة هنا والرّجوع فارغ اليدين إلاّ اضمحلالاً وفناء لذاته وكيانه (رجولته) -وهو معنى الخصي في الّلغة الّتحليليّة. فالبحر من ورائهم والعدو أمامهم كما قالها سابقاً المغربي طارق بن زياد-.

فالمغاربيّ، تونسياً كان أو جزائر ياً أو مغربيّاً، عندما يغادر بلده الأم يرى أنه لزاماً عليه أن يرسل إلى أهله وجيرانه وأصحابه مدعّمات نجاحه، من رسائل يدّعي فيها أنه أصبح ذا شأن عظيم، وأنه أضحى يملك بيتاً كبيراً، ويكسب بدون حساب، ويشتغل بدون ملل؛ فعادة لا يستطيع الاعتراف بأنه يتعرّض إلى صعوبات، كأن يتقاسم سريراً يتناوب عليه القوم، أو شّقة

عتيقة، هي بالتأكيد أسوأ من أيّ مخيم للاجئين، فمعظم هذه المساكن غير صالحة للسكن، لكن العربي يقبل التّساكن مع أسرته في تلك الشقق، لأنها رخيصة، ولأنّ الإيجار قد يتيح له أن يقتصد شيئاً من راتبه الشهري الزهيد، ليتباهى به عند عودته أمام ذويه، ممن مكث في بلده الأصل، وهذه العقلية المتميّزة بمغالاة الأنا، والنّرجسيّة، والغرور، هي غالبة عادة لدى العمّال المهاجرين العرب. فإنّهم يصطدمون عادة بغلاء المعيشة ويقتصدون على حساب صحّتهم،حتّى أنّ بعضهم يجلب زاده من الأكل من بلده الأصلي (من كسكسي ومحمصة وبسيسة وزيت...) ويقلّلون من أكل اللّحوم والثمار والخضر، وذلك لغلائها نسبة لما اعتادوه في بلدهم الأصلي، ويقبلون على صنف المنازل التي ذكرنا، والتي تتردى فيها الأوضاع الصحيّة. وبعض المغاربة يصاب بمرض بعد فترة وجيزة من قدومه إلى أرض المهجر نتيجة عيشه السيئ، وقد يعيش وحيداً وألصدمات النّفسيّة التي قد يتعرّض إليها، وعدم تمكّنه من التّأقلم السّريع، وذلك نتيجة عوامل حضاريّة ودينيّة متغيّرة عن البلد الأم تفقده المناعة النّفسيّة والجسديّة، ولكّنه لم يكن على استعداد للتّعبير عنها لذويه، خشية من الشّعور بالفناء (وفقدان الرّجولة) فيعيشها وحيداً فريداً بدون حبيب يشكو إليه، أو صدر رحب يفتح إليه، وذلك ممّا يزيد في هشاشته وصعوبة علاجه من قبل أطبّاء أرض المهجر، الذين لم يكونوا على علم بهذه العوامل المخفيّة في أغوار نفس المهاجر.

ولاشكّ أن هذه الالتزامات سيكون من شأنها أن تجعله يشعر بثقل الواجب الذي ألقى على كاهله. والمهاجر المغاربيّ يتخيّل في بادىء الأمر أن ذهابه إلى أوروبا لن يدوم أكثر من بضعة أعوام، يتمكّن خلالها من جمع ثروة ماليّة توفّر له في ما بعد مستقبلاً آمناً في بلده، ممّا يجعل حياته في أوروبا غير مستقرّة اجتماعيّاً. فالدّوافع الاقتصاديّة هي التي تعطي للهجرة أهميتها وتكيّفها حسب احتياجات المهاجر الماديّة.

وعلى هذا الأساس، فإنّ المهاجرين يكونون عادة من الشبان الذين تسمح لهم صحتهم بتحمّل المشاق البدنية، ذلك لأن انتقاء سلطات بلد المهجر لهم يبنى عادة على أساس قوتهم وقدرتهم العضلية، بغضّ النظر عن قدراتهم الذهنية، حيث أنهم يسَخّرون في أغلب الأحيان للأعمال الشاّقة التي يرفضها الأوروبّيون.

ويشير الدكتور محمد غربال إلى أنّ العامل الأساسي الذي يدفع الشباب إلى الهجرة منذ سنة 1965 هو عامل نفسي، لأنّ هؤلاء المهاجرين الجدد هم من صغار السنّ، ومستواهم العلمي أعلى من مستوى أسلافهم، لذا فهم لا يتعرّضون لمشاكل التأقلم، وسبب هجرتهم يكون في الغالب البحث عن الذات، وهم يتصوّرون أنّ الهجرة ستجعلهم يتفاخرون ويتفوّقون على أقرانهم.

فهكذا نرى أنّهم يكونون غالباً من العزاب، ولكنهم يتزوجون في ما بعد أثناء إحدى إجازاتهم في أرض الوطن. ويغلب أن تبقى الزوجة في قريتها مع أسرته كي تساعد والديه في أعمال المنزل، ويقوم هو بإرسال أكبر جزء من دخله إلى أهله. وترك الزوجة في القرية يرجع

إلى عاملين: أولهما أن مجيء الزّوجة إلى فرنسا يشكّل عبئاً ماديّا كبيراً عليه، وثانيهما خوف المهاجر على زوجته أن تتشبّه بالمرأة الفرنسيّة (في خلاعتها) .

وعلى العكس من ذلك، نرى المهاجر البرتغالي مثلاً يحضر معه زوجته وأولاده، حتى يكونوا له مصدراً آخر للرزق، فكذا يعمل هو وزوجته فوراً، وأبناؤه عندما يصبحون قادرين على العمل.

إنّ المعطيات الإحصائيّة حول المهاجرين في فرنسا صعبة الحصر، ويرجع هذا إلى القوانين المُسنّة من قبل الحكومة ضدّ ممارسة العنصريّة. والنّظر إلى المهاجر حسب جنسيّته الأصليّة قد يكون عاملاً فعّالاً للتّمييز العنصري.

رغم هذا فقد تحصّلنا على المعطيات الآتية الذّكر:

فإحصائية 31 كانون الأول (ديسمبر) عام 1978 إلى أنّ عدد المهاجرين في فرنسا يبلغ 4170353 منهم:

147100 تونسي

299900 مغربي

507300 اسباني

792000جزائري

723000 برتغالي

وإذا أردنا تحليل الفئات التي تهاجر من المغرب العربي إلى فرنسا، يمكننا تقسيمها إلى فئتين مختلفتين، أولهما مجموعة صغيرة من المرضى المصابين بالعدوانية (السّيكوباتية) (Psychopathie) ، والهامشية والفصامية (Schizophrénie)، أمّا الفئة الثانية الكبرى، فهي تشكّل المجموعة السليمة التي جاءت لتحسين حالتها الاقتصادية.

وفي شهر آذار مارس 1999 كان العدد الجملي للمهاجرين 4310000، أي ما يضاهي 7.4 ٪ من عدد السّكان.

إنّ المهاجرين القاطنين تكاثر فيهم عدد النّسوة، كما ارتفع معدّل الأعمار لديهم، فتغيّر من شباب إلى كهول منذ سنة 1999 ويرجع هذا إلى السبب الآتي، وهو أنّ هذه الهجرة كانت في بادئ الأمر مقتصرة على الذّكور، وبفعل 'التجمّع العائلي ' أضحت نسب الرّجال والنسوة المهاجرين متساوية.

وقد تغيّرت جنسيّة المهاجرين حسب الفترات الزّمنيّة:

إذ كانت أساساً إسبانيّة وبرتغاليّة الأصل في الفترة الممتدّة بين الحربين العالميّتين.

ثمّ أضحت من شمال أفريقيا في الخمسينات.

ثمّ تغيّرت في الفترة الفاصلة بين 1990 و1999، إذ أصبحت آسيويّة الأصل بنسبة 35٪، وتركيّة الأصل بنسبة 16٪، إنّ طلب التّجنيس الفرنسي من قبل المغاربة المهاجرين، إن كان منعدماً في الأصل، فقد تطوّر إلى نسبة 61٪ في سنة 2000 إنّ هاته الفئات المهاجرة تقطن أساساً في المدن الكبرى أوفي ضواحيها.

إنّ 2.1 ٪ من الطّبقة الشّغيلة في فرنسا ممثّلة من المهاجرين.

إنّ نسبة الكفاءة المهنيّة متدّنية، ذلك أنّ أغلبيّة المهاجرين يشتغلون في صناعة السيّارات والبناء، أو يعملون في القطاع الثّالث (في تنظيف الشّوارع والطّرقات ومحطّات الأرتال...).

❖ **المشاكل التي يقابلها المهاجر عند وصوله إلى أرض المهجر:**

1- **الأطفال: التعليم- التأقلم –الاندماج**

إذا بدأنا بفئة الأطفال، وهي الفئة الأكثر عرضة للتأثيرات الحضارية الجديدة، فإننا نلاحظ حتماً أنّ تأقلمها في المهجر في غاية الصعوبة.

فجيل الأبناء هم الذين يدفعون الثمن. فالطفل الذي يعيش مع أهله أربع أو خمس سنوات في المهجر، وعند العودة النهائية يلتحق مباشرة بمدرسته في وطنه الأمّ، وهنا لاتوجد مشكلة، أمّا الصبّي الذي أتى مع أهله، ويكون عمره قد تجاوز السابعة، دون أن يتعلم كلمة عربيّة واحدة خلال تلك الفترة، لا تقبله المدارس العربية في وطنه، وحتى وإن قبلته فإنّه سيجد صعوبة كبيرة في الاندماج، فهو إذن أجنبي في فرنسا، وعندما يعود إلى وطنه يصبح أجنبياً أيضاً، أضف إلى ذلك اختلاف أسلوب الحياة الذي عاشه في فرنسا عن أسلوب الحياة في بلدان المغرب، مما يخلق بالتّالي بلبلة في فكره، ويسبب له الكثير من المشاكل النّفسيّة، فكذا يعيش تناقضاً حاداً أيضاً بين الظّروف المعيشية السيّئة التي يحياها مع أهله، وبين الظّروف الجيّدة التي يتواجد فيها مع أقرانه في المدرسة من الفرنسيّين، فهو يقضي معهم كامل النهار، ثم يعود إلى البيت، فإذا به أمام جبل من المشاكل قد تخلق لديه نوعاً من الانفصام في الشخصية، وتسبب له الكثير من المتاعب، وهذا طبعاً إذا اعتبرنا أنه لا يلاقي الاضطهاد من قبل زملائه في المدرسة، فهو إذا نجا من اضطهاد زميله الفرنسي، فمن الصعب أن يتلافى اضطهاد زميله البرتغالي، أو الإسباني، أو البولوني الأصل... وعندما يكبر مع أسرته ولا يتكلم العربية، فهو حتماً سيواجه مشكلة من أخطر المشكلات الاجتماعية، وهي مشكلة الانتماء. وهو معرّض للضياع في المجتمع الغربي الذي يلفظه ويرفضه، وكذلك في المجتمع الذي ينتمي إليه أساساً، فيستمع إليهم ولا يفهم شيئاً.

فظاهرة الهجرة إذن تضعنا أمام مشاكل متعددة وشديدة التّعقيد، وخاصّة تلك الّتي تطرح أمام شباب الجيل الثّاني، الأمر الذي جعل البعض يتحدّث عن المهمّشين، أو فاقدي الحظ، والسّند. فهذه الفئة تجد نفسها مهاجرة رغماً عنها في البلدان المستقطبة، وتجد نفسها غريبة تدريجياً عن وطنها الأم، أو عن موطن أهلها.

إنّ الدراسة النّفسيّة لهذه الفئة من السكان، وخصوصاً شباب الجيل الثاني، تبرز لنا مدى صعوبة البحث، لأنها تعود إلى عدّة عوامل متشابكة: اقتصادية واجتماعية وسياسية.

كما يلاحظ أن الجيل الجديد من أطفال المهاجرين المولودين في فرنسا والقاطنين فيها يتميز بحالات مرضيّة تختلف عن أمراض الجيل السابق. ويرجع ذلك إلى أنه يمثل جيلاً جديداً يقف حائراً بين التّقاليد الثّقافية الأصيلة، والقيم الفرنسيّة الجديدة الطاغية على

المحيط المجاور، فيشتدّ بذلك الصّراع، وتتفاقم التّناقضات، فيصبح الطفل مشتّتاً، الأمر الذي قد يؤدي به إلى المرض النفسي من كآبة واعتزال من جهة، واضطراب السلوك، والتشرد، والعدوانية من جهة أخرى.

وقد أشار الدكتور محمد غربال في هذا الصدد إلى مسؤولية المنظمات الفرنسيّة في رعاية الطّفولة، التي كثيراً ما تعتبر كل أسرة مغاربيّة عاجزة عن تربية أبنائها دون أن تتعرض إلى الأسباب التي تفسر مشاكل هذه التّربية.

وهكذا، فأيّ مشكل تافه يقع في المدرسة أوفي الحي يؤدي إلى ' اختطاف شرعي وقانوني ' للطّفل وإبعاده عن عائلته باحتضانه من قبل هذه المنظّمات، وكأنّ العائلة المغاربيّة قاصرة عن تربية أبنائها على الوجه الأكمل، وكأ ن المبادئ الأخلاقية ترتبط بالدّخل الشّهري للعائلة، حيث يفسّر كل مظهر من مظاهر سلوك الطّفل على أساس أنه شذوذ وميول وعدوانية.

وهكذا أوضحت الإحصائيات التي أجريت في منطقة السان العليا Hauts de seine ، إنّ 50 ٪ من أطفال المهاجرين في المنطقة عزلوا عن أهاليهم بصفة مؤقّتة و20 ٪ وضعوا تحت الرقابة اليومية، بينما لا تتعدّى نسبة العائلات المغاربيّة في هذه المنطقة 3 ٪، وهذا يبين لنا أنّ نسبة المرض عند الأطفال المغاربة تفوق بعشرين أو خمس وعشرين مرّة نسبة عدد الأطفال الفرنسيين، وبخمس مرات نسبة عدد الأطفال البرتغاليين، وتزيد بمرّتين ونصف بالنسبة للأطفال المهاجرين من البلدان الأخرى.

2- **البحث عن العمل والسّكن:**

وممّا يزيد في عب ء المهاجر النفسي مشكلة البحث عن المسكن والتكيف مع هذا المجتمع الاستهلاكي، الذي يختلف تماماً عن مجتمعه الأصلي، حيث يصادف كلّ يوم مشاكل جديدة. فالبحث عن المسكن يشكّل عقبة كبيرة في المدن الكبرى، أما العمّال ّالذين يشتغلون في المزارع، فالمسألة لديهم محلولة، لأنّ صاحب الأرض يؤمّن لهم المأكل والمشرب والمسكن.

وهكذا يبدأ المهاجر تجربة جديدة لا حيلة له فيها، كاضطراره إلى القيام بالأعمال المنزلية التي لم يعتد عليها في قريته، لأنها من أعمال النّساء هناك، إضافة إلى رؤيته المرأة الفرنسيّة في الشّارع برائحتها الذكيّة وعطرها النّفيس تتخايل أمامه، وعلى مرأى من عينيه، مثيرة لعواطفه، ولكنها في الوقت نفسه بعيدة عن مبتغاه ومطامعه، الأمر ّالذي يزيد في كبته النفسي.

أمام كل هذه المشاكل والعقبات يعرض لنا سؤال: لماذا لا يعود المهاجر إلى وطنه فوراً؟

إن العامل ّالذي يمنعه من ذلك هوالشّعور بأنّه أضحى في مأزق، لأنّه من جهة قد أجهد نفسه في سبيل الحصول على الوثائق اللازمة لسفره، ناهيك عمّاتمثله هذه الوثائق من رموز لنفسه، ولأنه من جهة ثانية قد كلّف أهله مصاريف كثيرة، فهو هكذا قد أصبح واقعاً تحت وطأة دَين مالي ودين معنوي، وعودته خائباً تشكّل فضيحة مريعة له –(قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيا)–.

ولقد قامت فرنسا بمجهود كبير للإسهام في تذليل هذه العقبات، إذ خطّطت منذ عام 1969 لمشاريع عديدة، غايتها تسهيل إقامة المهاجرين بإحداث مراكز للتّأهيل اللّغوي والمهني. وقد دخلت هذه المشاريع حيز التّنفيذ سنة 1974 حيث أقيمت مراكز على المستوى القومي في معظم المحافظات للإرشاد الاجتماعي وتعليم اللّغة والتّكوين الحرفي... إلخ.

-بعد أن عرضنا المشاكل النّفسيّة العديدة التي يصادفها المهاجر، والتي قد تضعف كيانه، وتحطّ من قيمته، نرى أنّ العامل الهام الذي يعدّل ذلك كلّه، ويؤثّر في رفع معنويات المهاجر وكرامته، هو المبلغ الشهري الذي يوفّره ويرسله إلى أهله، فهو الذي يثبت قوّة وضعه كمنقذ أمام ذويه ويعطيه صورة مكرّمة لديهم.

وقد لوحظ أن المظاهر المرضية عند المهاجر المغاربيّ إلى فرنسا تعبّر بصفة جلية عن الاختلال الذي يصيب حركيّة وديناميّة شخصيته، وترجع إلى اختلال أساليبه الدفاعية الموجودة أساساً في بيئته الأولى، فهو يعبر غالباً بجسمه عمّا عجز عنه لسانه، ويستعمل في نطاق الحيل الدفاعية اللّاشعورية، العزلة والانطواء لفترة قصيرة، ثمّ الإنكارNégation فالإسقاطProjection وردّ الفعلRéaction formation ، فهو يحمّل البلد وأهله كل الضيق الذي يجتاح نفسه، فالبلد جوه بارد كئيب وممطر، والنّاس، محرومون من القيم الأخلاقية وهم فاقدو الإحساس... إلخ.

ويستعمل ردّ الفعل كحيلة إبدالية لعكس الوضع الذي هو عليه، وهو وضع الكبت النفسيّ خوفا على ذاته من الدمار، فمكانته في مجتمع الهجرة مكانة الضعيف من النّاحيتين المادّية والمعنوية، وحيل ردّ الفعل هي من الحيل النّاجحة لقلب الوضع وإطاحة النّظام القائم بالنّسبة لنفسه،وعلى هذا الأساس نلاحظ تكاثر حالات الذّهان الحادّAcute psychosis التي تتميّز بالاعتقادات الدينيّة المتطرّفة حيث يتخيّل المريض أنّه اختير من قبل الله تعالى لنقاوة سريرته وطهارته، وأنّه مكلّف برسالة سماوية لهداية هذا المجتمع ' الفاسق البذيء' فيستعمل طقوساً ومراسم خاصّة لتطهير نفسه وتطهير الآخرين، وقد يؤدي به هذا إلى حالات التصوف المرضي.

وكمثال على ذلك نعرض قصّة مريض تونسي كان يعمل في مطبعة في بلده (أي في تونس)، ثمّ جاء إلى فرنسا واشتغل في مطعم اقتصر عمله فيه على الطّهي، ثمّ غسل ما تبقّى في الأطباق، وذلك في قبو مظلم لم يكن له فيه اتصال مع غيره من النّاس، ولاسيما الحرفيون إذ كان يدخله في الصّباح الباكر، ولا يبرحه إلّا عند الهزيع الأخير من اللّيل.

فكذا وبمرّ السّنين وبتجدّد اصطدامه بسلوك زملائه الفرنسيين المضاد والمتّصف بالعنصريّة والاستهزاء والسخرية اليوميّة، إذ كانوا يضطلعون بمهمّة توزيع ما لذّ وطاب من الأطباق، والّتي هي في الأصل صنيعة يديه ونتاجه الفردي على الحرفاء وإرجاعها إليه فارغة قصد غسلها. إذ كانوا يتحصّلون يوميّاً عوضه على جزيل الشّكر والثّناء من قبل الحرفاء لاسيّما عندما يتلذّذون بتناول ذاك الكسكسي التونسي الّذي طبخه هو في الخفاء، وكان ماهراً فيه، رجوعاً إلى تراثه، في ذاك القبو المظلم المشؤوم؛ فبعد بضع سنين من العناء الصّبور انطلق

به خياله في البدء بأنه مكّلف من قبل الرسول عليه السلام لهداية الفرنسيين، وتفاقم به الهذيان شيئاً فشيئاً بمرّ السّنين، حتّى وصل به الأمر إلى التّخيل أنّه هو الرسول نفسه، وصنع خاتماً ليبرهن على رؤوس الملأ أنه هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وأصبح يختم به الرّسائل التي كان يبعث بها إلى أهله الماكثين بتونس، وإذاك افتضح أمره ونودي به، وجرى استدعاؤه للعلاج النّفساني الوجوبيّ، قسراً، إذ تغلغل به المرض النفساني، وأصبح مقتنعاً بأنّه محمّد رسول ألله صلى الله عليه وسلّم، وأنّ كلّ من خالفه في رأي هو من المارقين عن الدّعوة النّبويّة....

3- المشاكل التي قد يعيشها المثّقف في أرض المهجر

المثّقف المغاربيّ قد يدور في حلقة مفرغة، لأنّه لم يعثر على ذاته بعد، فوجوده في وطنه أمر بالغ الأهميّة، لأن الغربة عادة ما تمتصّ كلّ طاقته وإمكانياته. فهو مطالب أولاً بتأمين لقمة العيش، وعليه أن يلهث في سبيل ذلك مسّخراً كل إمكانياته ووقته.

ولاشكّ أن ذلك قد يلهيه عن أشياء أخرى كثيرة. فظروف العمل الصعبة لا تسمح له - كما هو شّأن أقرانه من الفرنسيّين الذين يتمّتعون بالسّكنى والإعانة من قبل عائلاتهم- بتطوير معارفه. إذ لا يجد الوقت الكافي للقراءة والمطالعة والكتابة، زد على ذلك هموم الدّراسة إذا كان طالباً.

فمتى يدرس؟ وكيف يدرس، خصوصاً إذا كان ينتسب إلى غير المحظوظين، ولا يتمّتع بالمنح الدراسية؟ والمثل العربي يقول بأنّ الله يطعم كلّ الطيور، لك ن ذلك لا يعني حتماً أن الله يلقي بالحَبّ في عّش كلّ طائر. أمّا إذا كان متزوجاً فإنها الطامّة الكبرى: ذلك أنه مطالب بتوفير الكفاف وسدّ الرمق لكلّ فم، بدءاً بالزوجة والأولاد، وهو طبعاً.

أمّا المشاكل الثقافية فتلخّصها كلمة واحدة اسمها الغربة. فغياب العامل عن الجو النفسي الذي عاش فيه بكل مظاهره الثّقافية والحضاريّة، ولاسيما الانتماء، كلها مجتمعة تفقد العامل توازنه، فيستبدّ به عادة القلق والتوتّر الدائمين. إنه كثيراً ما يبتعد عن القيم التي تعّلمها بين أهله، وهو هنا يصبح عرضة لتيارات من الحضارة قد تسحق هويته تماماً فيتنكّر لأهله ووطنه، وبغياب المؤسّسات الثّقافية العربية التي تخلو منها الساحة يستفحل خطر الضياع الثقافي الذي يتعرّض له العامل.

فماذا عن المشاكل السياسية؟

لقد تربّى العامل على الخوف، ونجد أن بعضهم يشعر أحياناً أنه مطارد، وأنّ هناك من يتعّقبه في الطّريق... لذلك قد يعتقد أنّ مشاركته في أيّ عمل سياسي ستجلب له متاعب لا حصر، لها وهو تبعاً لذلك يتجنّب أخاه المغاربيّ في الغربة، لأنه يخشى أن يؤدي اختلاطه به إلى الانخراط في عمل سياسي قد يهدد مستقبله عند رجوعه إلى بلده الأم. والكثير من العمال المغاربة المهاجرين لا يقبلون على الجلوس في المقاهي العربية والتردد عليها لهذا السبب، ومن الصعب تنمية الوعي العمّالي بالمشاكل الحياتية في الهجرة، إلا متى تمّ تخطيط من قبل الجهات الثقافية العربية المسؤولة، وعلى أعلى مستوى، أو إذا أخذ العمّال على عاتقهم

مسؤولية المبادرة في تأسيس كيانات ثقافية وتجمّعات تتبّنى قضاياهم في المهجر. فدور العمال المهاجرين يبدأ من نقطة تشجيع العمّال أنفسهم على التعبير عن هذه المشاكل والمساهمة بشكل فعلي في حلّها.

فلابدّ من توسيع قاعدة الثقافة العمّالية والقيام بحملات ثقافية، وتعبئة نفوس العمّال ضدّ مشاعر الخيبة واليأس، وهذه مسألة تتطلّب مساهمة كبيرة على جميع الأصعدة...

إذ الهجرة لم تبق شأناً رقمياً أو ملّفاً اجتماعياً أو سياسياً داخل دول المهجر. إنما تحوّل المهاجرون إلى قضيّة وطنيّة هناك. فقد أضحى المهاجرون جزءاً من تلك الدّول، مواطنون يمارسون مواطنتهم مثلما يمارسها ابن البلد في (مستوى الواجبات الخاصّة) وهو ما طرح مشكل إدماجهم الكلّي... وما إذا كانت لديهم حقوق المواطنة الكاملة، كما طرحت مسألة الهويّة، وبات الإسلام الذي ينتمي إليه أغلب المهاجرين يطرح تساؤلا ت سياسيّة، وأخرى تتعلّق بهويّة أوروبا، إلى جانب ما يعرف بقضيّة الجيل الثّالث، هؤلاء المولودون في أوروبا، والّذين لم تعد لهم صلة لهم في بلدان آبائهم وأجدادهم، هل هم مواطنون أوروبيون، أم ينسحب عليهم ما ينسحب على بقية المهاجرين.

إنّ سياسات الحد من الهجرة التي تنتهجها أوروبا تضرب مسألة قضية التنقل في العمق، وهي تعني هنا الحدّ من السفر، مما يجعل التأشيرة والقيود الملحقة بها بمثابة السجن الجديد ونلاحظ أنّ سياسة الحدّ من الهجرة التي شرعت الدّول الأوروبيّة في تطبيقها منذ بضع سنوات وضعت مسألتي التنقل والسفر موضع إشكال، بل إنّ الإجراءات التي أتخذت لمحاصرة الهجرة والمهاجرين ساهمت في الواقع في حصول تحول من هجرة قانونية كانت تتمّ سابقاً بصورة عادية، إلى هجرة لا قانونية، على اعتبار أن تلك الإجراءات شجعت الشباب على الهجرة، وجعلته أكثر إصراراً على الوصول إلى هدفه.

فالتأشيرة لم تعد مسألة إدارية في قنصلية من القنصليات بقدر ما باتت قضية ترتبط بحقوق الإنسان، وهو ما جعل الهجرة تؤدّي إلى نوع من القطيعة بين ضفتي المتوسّط.

إن المهاجرين السريين المغاربة يدفعون باهظاً ثمن هجرتهم، فهم يعانون ويعذّبون، وتنتهك حقوقهم، ويعاملون بقسوة شديدة في الورشات التي يعملون فيها في برلين ومیلانو و سيسيليا وغيرها من المدن الأوروبيّة، فإذا ما احتجّ أو حاول التحرّك دفاعاً عن حقوقه، مثل حقّه في الحصول على راتبه كاملاً، مثل غيره من أبناء البلد المستضيف، يهدد بدعوة الأمن لترحيلهم، وأكثر المهاجرين المضطهدين هم أولئك القادمين من بلدان مسلمة، وهذا يجري تحت ذريعة مكافحة الإرهاب.

العقول المهاجرة طيور قد لا تعود طرحت مسألة هجرة الأدمغة منذ الاستقلال، ولكنها تطرح اليوم بإلحاح نتيجة جاذبية الأجواء الاقتصادية الغربية وهي مسألة تدعو للانشغال، فهجرة الأدمغة تتكلف غالياً.

ذلك أنّ تسارع نسق التحولات التكنولوجية في البلدان الصناعية لم يصاحبه تطور ديموغرافي بنسق مماثل، ولم تبلغ هذه البلدان معدّل تجدد الأجيال، وتعيش مرحلة تهرّم، وهو ما ينعكس سلباً على مستوى تكوين النخب.

وفي هذه الظروف تتوجه هذه الدّول نحو بلدان الجنوب، حيث تتوافر على كفاءات جاهزة، ويحدد المعهد الفرنسي للإحصاء والدراسات الاقتصادية حاجة فرنسا إلى 1.7 مليون مهاجر إلى غاية 2050 لضمان توازن الأجيال والاستجابة إلى حاجياتها في اليد العاملة في قطاع التكنولوجيات الجديدة والتعليم، أي ما يساوي تدفق 30 ألف أجنبي سنوياً.

أصبحت، إذاً، البلدان الغربية جاذبة للأدمغة من الكفاءات القادمة من البلدان الأخرى، وتشهد أفريقيا على سبيل المثال، سنوياً هجرة 20 ألف مختصّ من أطباء وأساتذة جامعيين ومهندسين وخبراء محاسبين، يهاجرون بحثا عن ظروف عمل أفضل، وأغلبهم من شمال أفريقيا. وتشير المعطيات المتوافرة إلى أن هجرة الأدمغة تتكلف غالياً على أفريقيا، ذلك أنها مدعوة إلى دفع مبالغ مالية كأجور للخبراء الأجانب لتعويض مواطنيها.

كما تشير بعض الدراسات إلى أن المئة ألف متعاون أجنبي تكلف أفريقيا أربعة مليارات دولار سنوياً، وهو ما يساوي 35% من حجم الإعانات التي تقدم إلى القارّة.

وكلّ طالب يدرس في أوروبا أوفي الولايات المتحدة أو كندا أو اليابان يتكلف على بلده بعد قضائه لخمس أو سبع سنوات دراسة في حدود Euro 34000 سنوياً. وفي دراسة لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية تبين أنّ كل إطار مهاجر يمثل خسارة لبلده بـــ 184 ألف دولار سنوياً، وهي دراسة لا تأخذ بعين الاعتبار إلّا الذين تقلّ أعمارهم عن 36 سنة. وفي المقابل تستفيد البلدان المستضيفة على مستويين: أولاً بالاستفادة من هذه الخبرة القيّمة للأدمغة المهاجرة، وثانياً بتصدير كفاءاتها.

وتربح الولايات المتحدة الأميركية بين 20 و30 ألف دولار كمصاريف تكوين عند عمل أي إطار أميركي في البلدان النامية. وتتهم البلدان الغربية بإفراغ البلدان المغاربية من أفضل عناصرها، ولكن الحقيقة أن أغلب المهاجرين يختارون الإقامة في البلدان المتقدّمة صناعيّاً للاستفادة من الوضع المهني المرفه.

ونعتقد جازمين أن تحسين ظروف العمل والترفيع في الأجور في البلدان المغاربيّة الأم من شأنه أن يسهّل عودة الأدمغة المهاجرة.

وقد بقيت نتائج عمليات الاستقطاب محدودة، ذلك أن ظروف العمل والأجور المعروضة غير مغرية. ويكمن الحل بالنسبة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) كما هو الشأن بالنسبة للأمانة العامة المهتمة بالمشكلة منذ سنوات في القضاء على ظاهرة هجرة الأدمغة من الجذور.

وتعتقد الأمم المتحدة أنه ليس من المعقول أن لا تسيطر أفريقيا إلا على 0.3 ٪ من البحوث العالمية، وبالتالي إيجاد تكوين في مجال الدكتوراه، وتدعو المنظمة الحكومات إلى

تخصيص موارد مالية هامّة للبحث العلمي في أغلب الدّول المغاربية 0.2 ٪ من الناتج الداخلي الخام.

ويوجد شرط آخر يعتبره البعض أساسياً لعودة الأدمغة المهاجرة، وهو الاستقرار السياسي، لأنه يوفر المناخ الآمن للمهاجرين لممارسة عملهم والإبداع فيه.

وتتوفر المؤسسات الخاصّة على دور أساسي، كذلك في استقطاب الإطارات المهاجرة، بما لها من قدرات على التشغيل وتوفير مناخ طيب للعمل.

فبعد أن كانت الدّول المصنعة تستورد في بداية القرن الماضي عضلات المهاجرين للنهوض ببناياتها الصناعية والاقتصادية، أصبحت هذه الدّول تجنح إلى استقطاب عقول القرن الواحد والعشرين، متخذة من قاموس العولمة والتبادل التجاري والبشري ذريعة لتفسير ظاهرة هجرة الأدمغة.

وقد تكثّفت هذه الظاهرة بالضبط مع مطلع سنة 1998، أي في الوقت الذي كان فيه 'العالم المعلوماتي' يواجه خطر انفجار بنيته التكنولوجية. في ذلك الزمن كانت أبواب كندا، وخاصّة منطقة الكيباك التي تعتمد اللغة الفرنسية، وبلجيكيا وفرنسا وأميركا مفتوحة على مصراعيها في وجه الخرّجين المختصين في مجال هندسة المعلومات، وقد اعتبرت إحدى الشركات الكندية شمال أفريقيا منطقة جديدة في مجال تصدير المهاجرين ذوي الكفاءات. وفي هذا السياق صرّح وزير العلاقات مع المواطنين والهجرة الكندي روبير بيريوم. (ROBERT PEROYAUM) في شباط/فيفري سنة 2000 عزم حكومته على استقبال المهاجرين بنسبة لا تقلّ عن 25 ٪حتى حدود سنة 2003 وخلال ندوة جمعت متخصصي المعلومات حول ظاهرة هجرة الأدمغة خارج أرض الوطن، تمّ التأكيد بخصوص مهندسي تكنولوجيا المعلومات على أنّ أكثر من 60 ٪ من المتخرّجين يغادرون كل سنة بلدانهم، وأنّ الشّغور الموجود في الدّول الأجنبية بإمكانه مثلاً استقطاب كلّ خريجي المعاهد العليا مدّة لا تقلّ عن عشر سنوات. فألمانيا تنتظر حوالي 75 ألف منصب شغل في مجال المعلومات وأميريكا تتوفر على 8500 منصب شغل في هذا المجال، كلّ ذلك يمثل نزيفاً حقيقياً للثروة البشرية الكفؤة، ويصف أحدهم هذه الهجرة ملّخصاً انعكاساتها بقوله ' هذا النّزيف سيحول دون ولوج الدّول المغاربيّة مجتمع المعلومات والمعرفة القائم أساساً على توظيف التّكنولوجيا الحديثة بكلّ تجلّياتها ويشكّل فيها الرأسمال البشري، أي الخيرات التقنية والعلمية العنصر الأساسي '.

أمّا عن أسباب هذه الهجرة، فيرى البعض أنها تعود أساساً إلى مسألة الأجور والتعويضات، حيث أنّ الأجور المعروضة على ذوي الكفاءات في الخارج تضاعف الأجور المعروضة عليهم بمعدّل يصل إلى مرّتين ونصف، وهذا ما يجعل الإطارات المغاربية تحلم بالعيش في الدّول الغربية، حيث الظروف العملية المشجعة، والمستحقات المالية المغرية. ويوعز البعض الآخر أسباب ذلك إلى كون الخبراء المغاربة لا يجدون في بلدانهم مناصب توافق تكوينهم، نظراً لغياب الاستثمار في الميادين التكنولوجية التي هي في حاجة إلى خبرات

وتخصصات هؤلاء الخبراء. بينما يربط بعض المهتمين أسباب هذه الهجرة بغياب التكوين المستمر، خصوصاً وأنّ ميدان تكنولوجيا المعلومات ميدان متجدد باستمرار، ومن شأن من لا يواكب الجديد فيه أن يتخلّف عن الركب. ويميل البعض الآخر إلى تصنيف هذه الأسباب في ثلاثة مستويات:

- **المستوى الأول:** وهو كل ما له علاقة بنظام الأجور والتعويضات في علاقته بمستوى العيش في الدّول المغاربيّة، حيث تتواجد مجموعة من الضروريات التي يفرضها المحيط، وتفرضها طبيعة عمل الطّبيب أو المهندس أو الخبير، مثل المسكن اللّائق، النّقل المريح، ومجالات التّرفيه اللائقة بمستواه...

- **المستوى الثاني:** هو مستوى العلاقات في محيط ا لعمل، إذ يجد المهندس أو الإطار نفسه محاصراً بالتعليمات والخطوط الحمراء مما يكبّل قدراته الإبداعية ويشلّها.

- **المستوى الثّالث:** له علاقة بالمحيط المجتمعي ككل، وفي هذا الإطار تندرج مسألة التفكير في مستقبل الأبناء.

وعلى العموم فإن عوامل الجذب قويّة في هذا النوع من الهجرة، ويكفي أن نقرأ جملة تشكل جزءاً من يافطة تسخرها وكالات الهجرة في جميع أنحاء العالم لإغراء الراغبين في الهجرة إلى الفردوس الأوروبي.

من خلال استقراء السجل التاريخي لظاهرة الهجرة يتبين أن من يجني ثمارها بالدرجة الأولى هي الدّول المستقبلة، فبعد أن استفادت هذه الدّول (ولا تزال) من عضلات العمال المهاجرين لتدعيم بناياتها الصناعية وبناء اقتصادها، تأتي اليوم في عصر الاتصال والمعلومات لتقطف ثمار الأدمغة الراقية والجاهزة، دون أن تتعب في تكوينها وتأهيلها، فتمتصّ الرحيق من الزهور التي أينعت في دول الجنوب، وتوظف لذلك كل وسائل الإغراء والجذب، معتمدة على توفير ما هو غير متوافر في البلدان الأصلية، فتبدي زينتها ونسيجها الحضاري الأنيق والمريح لتستقطب صفوة الشباب، ونخبة من المؤهلين والخبراء الذين شقوا طريقهم بإمكانات بلدهم وضرائب مواطنيهم، ليسهموا بعد أن نضجت عقولهم، وتفتقت مواهبهم وقدراتهم الإبداعية في ارتقاء وازدهار بلدان أخرى، وكأن بلدانهم الأصلية تحولت إلى مجرّد حاضنات لوظائف مؤقتة تتحمل فيها كل آلام الحمل والمخاض، لتأتي بعد ذلك أصابع معينة لتختار مواصفات محددة، وبذلك يتم اغتيال حلم هذه البلدان بغد مشرق، وتسحب منها دعائم النمو، وأسس الاندماج الفاعل في عالم التكنولوجيات الحديثة.

فبأي طاقات فكرية ستثبّت أقدامها في عالم لا يتوقف عن التطور والتغير؟ وبأي رصيد علمي ومقومات اقتصادية ستنخرط في زمن العولمة، وفي زمن تتسع فيه الفجوة الرقمية ؟ وبأي أطر مرجعية وبنيات تكنولوجية تستطيع دخول حلبة المجابهة والمنافسة ؟

وتحيلنا كل هذه الأسئلة إلى جدلية الشباب والتنمية، وتشير المعطيات السوسيولوجية إلى أن المجتمع المغاربي المعاصر هو مجتمع شاب في أغلبية سكانه، ولا شك أن هذه المعطيات دالة ومعبرة، إلا أن هذه الموارد البشرية الهائلة تبقى عادة في مجملها محرومة من فرص المشاركة،

والابتكار والفعل الايجابي في حركة التغيير الاجتماعي. وتشكل البطالة أحد التمظهرات الكبرى للمأزق الشبابي، فبعد أن كان مشكل البطالة في الدّول المغاربيّة – وحتى أواخر السبعينات – لا يمس سوى بعض عناصر الشباب غير المتعلم وغير المؤهل، أصبح هذا الشكل يطال منذ بداية الثمانينات عدداً هائلاً من الشرائح الشابّة من ذوي المستويات والأنماط التعليمية والتكميلية العليا.

ولقد علّمتنا الحضارة العربية والدين الإسلامي الحنيف أنّ الحياة ليست مادّة وكسباً وتطاحناً وسباقاً من أجل الإثراء الفردي مادياً ومعنوياً على حساب الآخرين، حياتنا هي عقيدة ومبدأ، هي مزيج من الروحي والمادّي، هي في النهاية وحدة من المادّة والذكاء...

يتشبّع المغاربيّ بهذه القيم الأصيلة، وتصبح ناموساً من نواميس حياته، وأسّاً ينهل من ماضيه ويعيش حاضره، ويستشرف مستقبله وفي النهاية هي مبادىء تجري في عروقه.

لكنه قد يصطدم في بلده الأم بفلسفة ماديّة تنعدم فيها القيم، وتصبح فيها المبادىء، هي فلسفة، البقاء فيها للأصلح ولعلّه الأقوى، لا تعاطف فيها ولا محبّة، وتزداد تعاسته ووحدته إذا كان من صفوة القوم علميّاً: درس السنوات الطوال بحلوها ومرّها، تكلّف على المجموعة الوطنية أموالا طائلة، فتحصل على شهائد عليا، وظلّ لمدّة ليست بالقصيرة عاطلاً عن العمل، ثمّ يحزم بعد ذلك حقائب السفر وينطلق إلى أحضان الغرب الذي اعترف بشهائده، وقدّر مكانته، فاستقطبه وجازاه (وقد قال الشّاعر التّونسي أبو القاسم الشّابي الذي اختطفته يد المنون وهو في ريعان شبابه:'النّاس لا يكرمون الحيّ بينهم حتّى إذا توارى عنهم ندموا '). وفتح له الأبواب على مصراعيها. فماذا فعلت الحكومات العربية أمام الاغراءات المالية والاجتماعية التي تتعرّض إليها العقول العربية والكفاءات المهنية العالية بالخارج؟

وكيف ينظر للكفاءات العربية بين الدول العربية؟

أين هي البرامج التي تخطّط للاهتمام بالخريجين عند عودتهم إلى أرض الوطن؟ ولماذا لا تستطيع الحكومات العربية أن توّفر لهم المناخ العلمي والأكاديمي الذي يكمن الأمّة من الاستفادة من خبراتهم وتخصصاتهم؟

طبعاً لا يمكن أن نجد إجابات جاهزة لكلّ هذه الاستفسارت، لكن الواقع المرير والمأساوي وما رأيناه في عديد المواقف هو اضطرار المثّقف إلى الرّجوع إلى أرض المهجر، أوالسفر إلى بلدان أخرى عادة ما تكون متقدّمة على المستوى التقنيّ، وتبسط له جميل العرفان لمؤهّلاته(ويقول في هذا النّسق نزار القباني في قصيدة مشهورة ألقيت في الجامعة العربيّة في تونس ومطلعها:

يا تونس الخضراء جئتك عاشقاً وعلى جبينـي وردة وكتـاب

.....

في عصر عهد الكاز يطلب شاعر ثوباً وترفل في الحرير ق...اب).

وما نحن متأكّدون منه هو أنّ هذه الأدمغة (أو المادة الشّحماء) مطلوبة من العلم الغربي، فهي سرعان ما تندمج في المجتمعات الغربية، لأنه مرغوب فيها، ويسهل لها الانتماء لهذا

المجتمع الجديد، وعادة لا تعيّر قيمتها في البلد الأم، إلا عندما يذيع صيتها في بلد المهجر، فغربة العقول قد تفرض نفسها بنفسها، حتّى تذود عن كيانها وكرامتها بفعل النّقلة والهجرة (إذ المكان قد يغيّر قيمة الإنسان). وغالباً ما تسخّر كلّ الإمكانيّات والتسهيلات لجلب هذه الطّاقات العقليّة بأيّ ثمن كان، مهما كان لونها وجنسها وعقيدتها وحسبها ونسبها، لأنها كفاءات عالية وّفرت لها كل الوسائل والإمكانيات المادية الممكنة، وأغرتها بعديد الحقوق، كالجنسية مثلاً... وفي مقابل ذلك لن تخسر شيئاً لأنها ستريح أدمغة وعقولاً جاهزة 'الاستعمال' لم تخسر الكثير في تكوينها ولم تصرف عليها.

❖ تداعيات معضلة الهجرة:

1- الهجرة قضيّة وطنيّة بالنّسبة لبلدان شمال أفريقيا

لا بد من الاعتراف بأنّ مسألة الهجرة لا تقتصر على جوانبها الاجتماعيّة والنقابيّة، بل هي قضيّة وطنيّة وإقليمية وعالمية، وهو ما يستوجب تدخل جميع الأطراف، وطنياً ومغاربياً وأوروبياً، لتعميق التشاور، وتبادل المعلومات وتنسيق المواقف لإيجاد حلول وقائية لمشكلات الهجرة التي أصبحت اليوم، وأكثر من أي وقت مضى محل جدل صاخب، وردود فعل انفعالية، بسبب تنامي حركات اليمين العنصري، وبروز فكر غربي يدعو للصّدام بدل الحوار.

إنّ مشكلات الهجرة والأقلّيات العربية في دول أوروبا، والنّاجمة عن توجه أعداد متزايدة من المهاجرين المغاربة والعرب إلى البلدان الأوروبية، بحثاً عن العمل ليست وليدة اليوم، بل هي ظاهرة قديمة أفرزتها عوامل الترابط التي تجمع بين دول حوض البحر الأبيض المتوسّط منذ عصور، وهي روابط جغرافيّة واقتصادية وحضارية.

وقد عرف المتوسط موجات مكثفة من الهجرة منذ القرن التاسع عشر، تماشياً مع حاجة أوروبا لليد العاملة لبناء نهضتها الاقتصادية، ولابد من التذكير أنّ البلدان الأوروبّيّة تتحمل مسؤولية تاريخية لاعتمادها علاقات غير متوازنة بين ضفتي المتوسط، وبالخصوص بسبب التشوّهات الاقتصادية والاجتماعية التي أصابت المجتمعات المغاربية، نتيجة الهيمنة الاستعمارية، وهو ما دفع بالعديد من أبناء هذه المجتمعات للتوجه نحو أوروبا، والاستقرار فيها.

وقد اكتسبت هذه الظاهرة أبعاداً جديدة بعد دخول نظام التأشيرة حيّز التطبيق في مطلع الثمانينات، ثمّ قيام الإتحاد الأوروبي وإعلان برشلونة المؤسس للشراكة الأورومتوسطية، وهو ما يؤكد أنّ مسألة الهجرة كانت دوماً من أبرز مظاهر سوء التفاهم في العلاقات الأوروبّيّة المتوسطية، وقد تحملت أجيال المهاجرين المتعاقبة وزر هذا التباين الذي كانت له انعكاسات سلبية على ظروفهم الحياتية.

كما عرفت هذه الهجرة في السنوات الماضية تغيرات هامّة في تركيبتها الديموغرافية نتيجة تحولها من هجرة فردية للعمل، إلى هجرة استقرار في بلدان الإقامة، وهو ما أدّى إلى ارتفاع نسبة النساء التي أصبحت تناهز نصف حجم المهاجرين المغاربة.

وإلى جانب الهجرة القانونية التي ترتبط إلى حدّ كبير باتفاقيات ثنائية، فقد تطورت هجرة ثانية في شكل غير قانوني، مما زاد في تأزّم أوضاع المهاجرين وظهور تيارات أوروبية متطرفة، من أبرز خصائصها التعصب العنصري ومعاداة الأجانب. غير أنه منذ انتهاء الحرب الباردة في أواخر الثمانينات برزت نظريات ومفاهيم جديدة تعد بالمساواة واحترام حقوق الإنسان، وبزوال جميع الحواجز أمام المجتمعات الإنسانية، وساد الاعتقاد بأنّ المناخ الدّولي الجديد سوف يلغي كلّ أسباب التوتر بين الشعوب، ويؤسس لعلاقات دولية مبنية على التعاون والاحترام المتبادل. لكن سرعان ما عاد العنصر الثقافي بقوة في شكل ردود فعل تهدف إلى حماية الذات من مخاطر العولمة التي تهدد الخصوصيات الوطنية والهويات الثقافية. وقد مثل هذا الانطواء الثقافي المفاجىء أحد أبرز إخفاقات العولمة التي بشرت الناس بعالم مفتوح تنتفي فيه الحواجز الأيديولوجية والفوارق بين المجتمعات.

وقد زادت أحداث 11 أيلول/سبتمبر في أهمية البعد الثقافي في العلاقات الدّولية، وتحديداً من خلال التركيز على حوار أو صراع الثقافات، بل فوجئ العالم بنظام دولي جديد له بند واحد في جدول أعماله، وهو محاربة الإرهاب الدّولي بأي ثمن، وتحت أي مفهوم، وأصبح العرب على رأس المتهمين في ثقافاتهم وحضاراتهم.

وقد اتسعت الهجمة التشويهية الموجّهة إلى العرب إلى درجة أنّ الإنسان العربي مدان حتى تثبت براءته. ولم يقتصر الأمر على حملات الدعاية والتزوير الإعلامي، بل تمّ الاستنجاد بنظريات صراع الحضارات والتفوق المزعوم للحضارة الغربية لشنّ هجمة واسعة على العرب والمسلمين، وتشويه صورة الجاليات العربية المهاجرة، واتهامها بالإرهاب، من خلال تعمّد الخلط بين الدين الإسلامي والتطرف، مما أدّى إلى تأجيج مشاعر الكراهية، وتكريس صورة نمطية سلبية عن المهاجرين تتعارض مع قيم الحرية ومبادىء حقوق الإنسان التي يتبجح بها العالم الغربي.

فأوروبا اتجهت، وبشكل سريع، نحو وضع قوانين صارمة لمكافحة الهجرة غير المشروعة، والسيطرة على الهجرة بشكل عام. وهناك جدل واسع في بلدان الاتحاد الأوروبي حول مسألة الهجرة والاندماج، وهو جدل صاخب يتداخل فيه الجانب الأمني مع السياسي والثقافي وقد زادته أحداث 11 أيلول/سبتمبر حدّة. وفي الحقيقة لقد شكل هاجس ضغط الهجرة عنصراً أساسياً في بلورة سياسة الشراكة الأورو متوسطية، وخاصة في بعدها المغاربي، إذ اعتبرت أوروبا أن المصاعب الاقتصادية في بلدان شمال أفريقيا تمثل عاملاً دافعاً للهجرة، وبالتالي رأت منذ مؤتمر برشلونة سنة 1995 أنّ المطلوب هو تعزيز علاقاتها مع دول جنوب المتوسط.

غير أنّ ما نلاحظه اليوم هو تواصل تدفق المهاجرين نحو أوروبا، وهذه الهجرة مردّها استمرار انخفاض معدّلات النمو الاقتصادي وانتشار البطالة في العديد من بلدان الجنوب.

وإلى جانب فشل أغلب الأطراف شمالاً وجنوباً في السيطرة على الهجرة بشكل عام، فانّ هناك مشاكل عويصة ناتجة عن فشل الاندماج، وخاصّة في ما يعرف بضواحي كبرى المدن الأوروبّيّة، وهذه المشاكل تعود إلى أسباب عديدة، منها عدم توفق البلدان الأوروبّيّة في بلورة

سياسات عامّة تساهم في الاندماج النفسي، وفي تسهيل الانتماء للمهاجرين، إلى جانب المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، وبالخصوص انتشار البطالة في صفوف الأجيال الجديدة، والتي غالباً ما تؤدي إلى توليد علاقات توتر ذات طابع ثقافي في هذه الأحياء.

وقد ساهمت سياسات الإقصاء والتهميش، وتنامي العنصرية، في جعل العديد من شباب الضواحي ينساق نحو التيارات المتطرفة التي تغذي بدورها العلاقات الصّدامية مع الآخر، وتساهم بالتالي في عرقلة عملية الاندماج المجتمعي للعديد من أفراد الجاليات المهاجرة.

ومن المعلوم أنّ حدّة التوّتر بين الطرفين تزداد كلما ازدادت الأزمة الاقتصادية قوّة في أوروبا، إذ سرعان ما يبدأ البحث عن كبش الفداء الذي يشكل المهاجر نموذجاً جاهزاً له. ولا ننسى أيضا عملية البناء الأوروبي، التي يترتب عليها بالضرورة فقدان بعض أوجه السيادة الوطنية، بما يزيد في هواجس الهوية، ويدفع أجزاء من الرأي العام الأوروبي إلى تحميل المهاجرين مسؤولية المشاكل الناجمة عن توسيع أوروبا، وهيمنة قوى المال على حساب الاستقرار الاجتماعي والنفسي لمعظم شرائح المجتمع، وبالتالي إلى إيجاد صورة نمطية سلبية عن الآخر، ولاسيما المهاجر المغاربي،الأمر ألذي يثير لدى المواطن الأوروبي حالة من الاطمئنان الزائف.

ومن جهة أخرى لم يعد تنامي نفوذ جماعات اليمين العنصري مقتصراً على بعض البلدان الأوروبيّة المعروفة، بل صارت بلدان شمال أوروبا نفسها، والتي لها تقاليد عريقة من الانفتاح والتسامح، تبرز فيها دعوات شعوبية تعادي المهاجرين بدعوى الحفاظ على القيم الوطنية، وهو ما يؤكّد أنّ ما سُمّي بصراع الحضارات، وغيرها من حملات التضليل والتعتيم الإعلامي الذي يستهدف العرب بالدرجة الأولى هي بصدد دفع أوروبا نحو اليمين وأقصى اليمين، وهي حركات غالباً ما تلجأ إلى سياسات صارمة بشأن الهجرة، و إلى اعتماد مقاربات أمنية أكثر مما هي اجتماعية تجاه قضايا الاندماج، مما يزيد من شدّة التوتر بين المجتمعات المستقبلة والجاليات المهاجرة.

إنّ تحدي الاندماج للجاليات المغاربية والعربية في أوروبا يعدّ اليوم من أهمّ محاور العلاقات المستقبلية بين ضفتي المتوسط، وفي اعتقادنا لا يمكن تغيير الصورة النمطية السائدة، ومشاعر الصدام والعداء، طالما أنّ الشراكة بين بلدان الشمال والجنوب لا تزال مقتصرة على جوانبها التجارية والاقتصادية، ومهملة لأهمّ شروطها وهي الجانب الثقافي والاجتماعي والإنساني.

ولقد زادت أحداث 11أيلول/سبتمبر في أهمية العنصر الثقافي الذي ظلّ بعداً مهمّشاً في اتفاقيات الشراكة والتعاون، وهو ما يستوجب إيلاء هذا البعد الأهمية التي يستحقها عبر تكثيف الحوار الثقافي بين المجتمعات المستقبلة للمهاجرين، والهيئات الفاعلة في هذه الجاليات وتنويع مجالات التعارف والتبادل الحضاري عبر المتوسط، وهذا الحوار لا يقتصر على القيم الثقافية فحسب، بل يشمل أيضاً القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويهدف إلى تركيز علاقات إنسانية مبنية على الاعتراف بحضارة الآخر، وعلى التفاهم

والتعايش السلمي بين الشعوب وأبناء الثقافات المختلفة، بعيداً عن كل أشكال الهيمنة والتعصب، بما من شأنه أن يساهم في الاندماج الفاعل والإيجابي للمهاجرين العرب في أوروبا، مع الحفاظ على خصوصياتهم الثقافية. وهذا الاندماج الناجح يسمح للجاليات المهاجرة بأن تقوم بدور جسر تفاهم عبر المتوسط، وقوّة ضغط اجتماعية، وسياسية، تخدم مصالح أبناء الجاليات، وتحسّن من موقعهم الاجتماعي.

ومما لا شكّ فيه أن جمعيات الهجرة والهيئات الفاعلة في أوساط المهاجرين تتحمّل مسؤولية كبرى في تشجيع هذه الحوارات، ومقاومة مظاهر التهميش والانكماش، وحفز المهاجر على الانخراط في العمل الاجتماعي والسياسي للدفاع عن حقوقهم الأساسية، سواء حقهم في العمل، وحقهم في التعليم، وممارسة تقاليدهم الاجتماعية، وحقهم في الانتخاب والترشّح والمشاركة في الحياة العمومية والسياسية، قصد مقاومة نزعات العنصرية وكراهية الأجانب، وفرض حقهم في الكرامة والمساواة والمواطنة التامّة.

ومن الضروري الحرص على توطيد علاقات المهاجرين في الخارج بوطنهم الأم، وتعزيز الإحاطة بهم، ومتابعة مشاغلهم اليومية. فمسألة الهجرة تستدعي تنسيقاً محكماً بين جميع الأطراف المعنية وطنياً وأوروبياً لرسم خطّة شاملة للدفاع عن حق المهاجرين في العمل، وحقهم في التمتّع بالتجمع العائلي، إلى جانب تطبيق حرية التنقل في الفضاء الأوروبي للمقيمين بصفة قانونية وعدم التمييز بين المهاجرين، وأصيلي بلدان أوروبا، في مجال الحقوق الاجتماعية والثقافية.

وبما أنّ الهجرة تظلّ في نظرنا ظاهرة إنسانية عالمية، فإنّ المطلوب تنظيمها وتوفير التشريعات الملائمة لحماية المهاجرين من أشكال المساومة والاستغلال والتهميش. وقد أثبتت الأحداث فشل المقاربات الأمنية، ومحاولات تحصين أوروبا من خلال سنّ ترسانة من القيود والقوانين الصارمة، مثل التلويح في القمّة الأوروبيّة في إشبيليا بتسليط عقوبات على البلدان المرسلة لليد العاملة المهاجرة، بما يؤشر لظهور سياسات أوروبية معادية للبلدان النامية.

2- الهجرة وسياسة المدّ والجزر

من السّهل جداً ملاحظة تردّي وضع المهاجرين من بلدان الجنوب عامّة، والبلدان المغاربيّة خاصّة، والناتج عن تصاعد الحركات العنصرية والمعادية للأجانب، وخصوصاً العرب، والتشدّد في القوانين والتشريعات المنظمة لإقامة المهاجرين وعائلاتهم والتّمسّك بحرمانهم من حقوق المواطنة كاملة، رغم دورهم الحيوي في البناء الاقتصادي والتنمية منذ بداية القرن العشرين، وطالبوا بـــ:

❖ تمكين المهاجرات والمهاجرين من حقوق المواطنة كاملة، بما في ذلك حق الانتخاب والترشّح والتّساوي في الأجر، وما ينعكس على الحيطة الاجتماعية والتقاعد، بإيلاء عناية خاصة وجدّية بالمهاجرات تحميهنّ من الاضطهاد المتعدد الأوجه الذي تعيشنه في بلدانهنّ، أو في بلدان الهجرة.

❖ توفير عناية خاصة بأبناء الجيل الثّالث، وما سيتلوه، بما يسمح لهم بالاندماج مع المحافظة على هويتهم ومميّزاتهم الثقافية والحضارية.

❖ تعميم التشريعات الكفيلة بضمان التجمّع العائلي للمهاجرين في كل دول الشمال.

❖ توطيد العلاقات مع منظمات الهجرة.

فالمهاجرون بدون ' أوراق ' وثائق رسميّة ' يتحيّنون الفرص للحصول على بطاقة إقامة، وكانت أهمّها سنة 1981 حين مكّنت السلطات الفرنسيّة حوالي 130.000 مهاجر من تسوية وضعيتهم، وقد اعتبرت فرنسا أنّ مشكلة الهجرة لن تتكرر، إلا أنّ ما لُقبوه بالتّنزيف تواصل فما بين سنة 1981 و1997 تفاقم عدد هؤلاء العاطلين والمحرومين من الشّغل، والمستغلين أبشع استغلال، وذلك بسبب تواجدهم غير القانوني في أرض المهجر. ففي سنة 1997 تربّع اليسار على الرئاسة في فرنسا، ولوّح بسياسة التّسوية، فتدفّقت هذه الجحافل من كلّ فجّ عميق.

هذه الحرية المؤقتة مكّنتهم من استرجاع كرامتهم البشرية، وفسحت لهم المجال لاكتساب حقوقٍ وضمانات اجتماعيّة لم يكونوا ليحصلوا عليها في الأرض الأم، نظراً لفارق مستوى المعيشة والضّمانات الاجتماعية ومنح السكن والبطالة.

لكنّ كلّ هذه التوقعات أضحت من باب الخيال، إذ لم يزد عدد المنتفعين عن 50 ٪ من مجمل الملفات. ففقدوا الأمل، وهكذا استفحل وضعهم من جديد، وسقط المهاجرون الجدد في المستنقع الذين كانوا يقبعون فيه، ونشطت أفلام المطاردات مرّة أخرى بين المهاجرين وأعوان المراقبة الفرنسيين، لاسيما ما حصل بين إسبانيا والمغرب، إذ مضيق جبل طارق كان نقطة عبور هامّة سهلة الاجتياز. وأصيب المهاجر من جديد بحالة رعب، إذ أصبح مصيره محكوماً بوشاية رخيصة، أو لحظة غفلة قد تكّلفه مستقبله، وهنا تصبح حياته حالة رهيبة من القلق والخوف. وإذا وقع المحظور واكتشف أمره يسّلم مصيره لخالقه، وينطلق هارباً معوّلاً على الصدفة وحدها لتحميه، وقد يكون محظوظاً، فيصادف كنيسة يحتمي بها، والكنيسة عموماً ما انفكّت تحمي وتدافع عن كل من يستجد بها، فهي مكان مقدس تحترمه أيّة سلطة، حتى في البلدان التي تدّعي العلمانية، وهي أيضاً مكان آمن لا يخشى فيه الأجير من أيّ تدخل للسّلطة.

ومنذ سنوات أصبحت الهجرة متداخلة مع السياسة، ذلك أن الساسة أصبحوا يتخذونها بوق دعاية في حملاتهم الانتخابيّة.

فالهجرة في مفهومها الشائع تشّكل نقطة صراع بين الأحزاب، خصوصاً في فترة الانتخابات، محلية كانت أو وطنية، وبقيت في مهبّ التصريحات المتناقضة.

وقد حاول اليسار استغلال هذه النقطة في فرنسا، ووصل بها إلى السلطة سنة 1981 وأطلق عديد الوعود لصالح المهاجرين المغاربة قصد إقناعهم بالتّصويت له في الانتخابات، إلّ لا أنّ وعوده بقيت حبر أ على ورق، أو دعاية سياسية.

وجاء مقترح الرئيس الراحل 'فرنسوا متران' François Mittérrand الذي عرف بسياسة الاندماج، إلا أنه فشل في ما بعد. ثمّ فتح بعد ذلك السيد 'جاك شيراك' ملّف الهجرة، وحاول إرساء سياسة تتماشى مع الواقع الموضوعي لتمكين المهاجرين من الاندماج في النّسيج الاجتماعي من خلال 'عقد الاندماج'. وتعتبر هذه البادرة قفزة فريدة من نوعها في السياسة الفرنسيّة التي سادها ركود صارخ منذ عق ود أصبحت فيها الأحزاب اليمينيّة بمثابة أُطر لها صلاحيتها في تعبيد الطريق المؤدية للاندماج، عكس ما كانت تتفوّه به في السنوات القليلة الماضية، وعلى هذا الأساس صرّح وزير الشّؤون الاجتماعية بأنّ موضوع الهجرة هو من مشمولات وزارته. وفي حديث أدلى به لجريد ة 'ليبيراسيون' (Libération) أوضح فيه الخطوط العريضة للسياسة التي يعتزم توخيها، وركّز على الآليات التي ينبغي توفيرها لهذا الغرض، كما بين أهمّ المحطّات لهذا المشروع، وهي:

أوّلا: تدريس اللّغة الفرنسيّة لمدّة 600 ساعة سنويا للمهاجرين الجدد الذين لا يتقنون اللّغة الفرنسيّة، مع العلم أنّ فرنسا تستقبل سنويا 100.000 مهاجر.

ثانياً: يمكن تمديد مدّة الدراسة إلى سنتين للذين لهم صعوبات.

ثالثاً: تمكينهم من معرفة القوانين والحقوق والواجبات والحقوق المدنية.

رابعاً: المهاجر الذي تتوّافر فيه الشّروط الكاملة، ومنها معرفة جيّدة باللّغة الفرنسيّة، يمكنه إن شاء الحصول على الجنسية الفرنسيّة.

3-سياسة المكيالين تُخلّف الحقد:

إنّ ظاهرة الهجرة هي عنوان لمتغيّرات اجتماعيّة عديدة يساهم في تشكيلها التّفاعل التّاريخي والواقع الاجتماعي، وأشياء أخرى بفعل القرب الجغرافي والاحتكاك الثّقافي بين ضفّتي البحر الأبيض المتوسط.

وبالعودة إلى الجانب التّاريخي، نجد أنّ منطقة المغرب العربي كانت دائمة التّفاعل مع الضّفة الأخرى من البحر المتوسط، وإن كانت العلاقة لم تّتسم في أغلب مراحل التّاريخ بمواسم الودّ والالتقاء الإيجابي... إلا أنها علاقة تقاسمت جميع التّجارب الحضاريّة العابرة للمنطقة، الأمر الذي ساهم في تكوين خليط اجتماعي متداخل، ونمط ثقافي متواصل، وحركة هجرة، أحياناً، بأتجاه الشّمال، وأحياناً أخرى بأتجاه الجنوب، بحسب ما تقتضيه موازين القوّة والضّعف، ولعبة المصالح، وأحياناً حركة التّاريخ.

اليوم تعود قضيّة الهجرة من ضفّة جنوب المتوسط بأتجاه شمال الضّفة، لتشكل همّاً مشتركاً للضّفتين معاً. فجنوب الضّفة يرى أنه من حقّه المغامرة في أتجاه الشّمال بحثاً عن فرص العمل والحياة الأفضل، وتحقيقاً لمستوى معيشي أرقى. وشمال المتوسّط يشاهد في هذه الهجرة خطراً حقيقياً على استقراره الاقتصادي وأمنه العام، ممّا أوجد حالة من التّناقض إلى درجة التصادم في الرؤية، الأمر الذي قد ينتهي في صورته الأخيرة إلى حالة من الشدّ والجذب عندما لجأت دول الاتّحاد الأوروبّي إلى التّشديد في إجراءات الهجرة إليها، وبالتّالي غلق جميع المنافذ أمام المغاربة في الدخول إلى قارّة الأحلام.

هـذا الوضـع أفـرز ظـاهـرة جديـدة، ألا وهـي ظـاهـرة الـهجرة السّـريّة... والـهجرة بـهذه الطّريقة المخالفة لجميع الأوضـاع القانونيّة والطّبيعيّة خلّفت وراءهـا عديد المآسـي تجلّت في الأحزان وفقدان الأرواح البشريّة، وخسـارة أعـداد هائلة من الشّباب في عمر الزهور، أكلتهم أسماك البحر المتوسط، ورمت أمواجه بأجسادهم إلى شواطئه المترامية.

وقد يوجد إحساس سائد بين العرب بأنّ هناك تفريقاً أو تشية من لدن الحكومة في التّعامل بين المغاربة والفرنسيين من جهة، وبين المغاربة والإسبان والبرتغاليين من جهة ثانية. فالمغاربيّ هو مواطن من الدرجة الثّالثة، بينما يحظى الفرنسي في الدرجة الأولى، فيتمتّع بكلّ حقوقه المدنيّة والسياسية والاجتماعية والاقتصاديّة. أمّا الإسبان والبرتغاليون فيصنّفون في الدرجة الثّانية، وهي تؤهّلهم إلى الاستئثار بأغلب الحقوق المذكورة سلفاً. ثمّ نجد المغاربة في ذيل الخانة، فيحرمون مباشرة من جلّ الحقوق.

وعندمـا يكتشـفون أنّ المسـاعدات والضمانـات الاجتماعيّـة التـي يحصلـون عليـها لا تساعدهم على العيش في مستوى عال من الرّفاهيّة، كالفرنسيّين. إذاك يتولّد لديهم شعور حادّ بالحقد والكراهية، وأحياناً يكون هذا الحقد مفسراً لجملة التفاعلات التي تنتابهم، فيعمدون إلى تحطيم واجهات المحلات الزجاجية، وينهبون كلّ ما تصل إليه أيديهم.

ويُفسّر ذلك الحقد بأنّه إسقاط نفسي، وعامل من عوامل هزيمة المغاربة النّفسيّة في مواجهة حرب ضروس لإثبات الذات، وهي حرب لم يستطع المغربي مواجهتها، وخرّ سريعاً صريعاً لاختلال موازين القوى، ولهشاشة بنيته النّفسيّة، ولأنه يجهل عدوّه الحقيقي في هذه الحرب: هل هي حكومته التي لم توّفر له عملاً؟

هل هو الشّعب الفرنسي الذي يساهم في زرع التفرقة، وإقرار الشعور الحاد بالهزيمة والإحباط في صفوف المغاربة، ومحاولة تهميشهم اجتماعيّاً، وإطلاق صفات مخزية من قبيل 'BERBER' و'الإرهابي' التي ألبسوها في أيامنا هذه لباساً طائفياً، وعروبيّاً، فأصبح كلّ من يحمل اسماً عربياً أو يشتبه في أنّ سمرته عربية إرهابيّا...

وإذا تجاوزنا الحكومة الفرنسيّة أيضاً، فهل أنّ الشّعب الفرنسي هو كذلك عدو للمغاربة؟

إذا كان المغاربيّ يجهل عدوّه الحقيقي، فإنّ الصّورة ستكون أكثر قتامة إذا اعتبرنا أنّ كلّ العناصر التي ذكرنا هي أعداء للمغاربيّ: فإذا كانت حكومته والحكومة الفرنسيّة والشعب الفرنسي، وربما أيضاً البرتغاليّون والإسبان، إذا كان كلّ هؤلاء أعداءه، فإنّ وطأة حقده ستزداد حتماً وسيشعر عندها بأنّه وحيد ومعزول ومهمّش، وبأنّ لا طاقة له على مواجهة كل هؤلاء الأعداء مجتمعين، وسيولّد ذلك لديه شعوراً بالعجز والإحباط، وقد يعتكف وينعزل، فيكبر إحساسه بالهزيمة ويصاب بالاكتئاب... وإذا كان العدو مجهول الهويةً، فسيصبح يضرب خبط عشواء، ويصبح الضرب في كلّ مكان مباحاً، خاصّة إذا أدرك أنّ هؤلاء الغرب يستمتعون بعائدات بترول العرب، ويأخذونهم رعاعاً عندهم.

فما هو الجانب الآخر من العملة، الجانب الإيجابي؟

ثمّة عدد من هؤلاء العرب نجحوا في أن يشتغلوا، وأن يشكّلوا نوعاً من الاستقرار الاقتصادي والنّفسي، وهي نسبة ضئيلة، لكنّها موجودة.

4-حملات عداء تلاحق المهاجرين في كلّ مكان

إضافة إلى الواقع السيّئ الذي يتخبّط فيه عدد وافر من أفراد الجالية المغاربيّة المقيمين في إيطاليا، وصعوبة الحياة، فإنّهم قد يذوقون الأمرّين من جرّاء تعسّف سلطات الشّرطة الذي يعيشونه يوميّاً، إذ يبدو أن نهج سياسة رئيس الوزراء الإيطالي الحالي السيدا سيلفيو برلسكوني (SILVIO BERLUSCOUNI) المعادية للهجرة قد بدأت تعطي أكلها.

فالسّلطات الإيطالية لا تمكّن المغاربة من أبسط الحقوق، سواء كان ذلك في الإقامة، أو الشّغل، أوالسكن، وقد أصبح القانون يحمي أرباب العمل، فترك لهم مسؤولية تحديد الأجور، وتقرير الطرد متى شاؤوا ذلك، وبصورة تعسفيّة.

ولا يستطيع، كذلك، العامل المهاجر الحصول على بطاقة الإقامة، إلا إذا كان لديه عقد عمل. وفي هذه الحالة المأساوية لا يمكن له أن يطالب بحقوقه الدنيا خوفاً من عدم تجديد عقده.

وفي خضمّ هذا الوضع، فإنّ السلطات الإيطالية قد تغضّ الطّرف عن حماية المهاجر، وتترك أصحاب العمل لتنفيذ القوانين: قانون الأعراف، وأصبح - تبعاً لذلك - المهاجر فريسة في أيدي المتلاعبين بأبسط حقوق البشر في الحياة والعمل.

فهكذا نرى أن جهاز الشّرطة والمراقبة الحدودية يمثّل قوّة ضغط اجتماعية وأمنية، ليبثّ الرّعب والإرهاب في قلوب شبابنا المهاجرين بدون دعائم رسميّة في إيطاليا، ويجري ذلك من خلال المطالبة المستمرّة بالاستظهار ببطاقة الإقامة في كلّ مكان، وفي أيّ وقت. ولا ننسى إهانات بعض الإيطاليّين في الأماكن العامّة والخاصّة، وقد يبلغ بهم الأمر إلى اقتحام البيوت بدون مبرر، فهي إذا ترتدي صبغة حرب نفسيّة قصد بّث الرعب في أغوار نفوس المهاجرين تشنّها بعض زبانية العصر.

أو لعلّ ما جرّنا إلى التطرّق إلى هذا الموضوع العنصريّ البحت هو تصريحات السيّد س. برلسكوني(BERLUSCONI) التي أدلى بها إبّان أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001 عن حرب الحضارات. ولا شكّ أنّ الحضارة التي تشدّق بها، شرع في تطبيقها على أرض الواقع، مستعينا بأعوان المراقبة الرّدعيّة التي أظهرت بشاعتها في قمع الديموقراطيين والقوى الحيّة المناهضة للعولمة في شهر يوليو تموز 2002، والتي ذهب ضحيتها الشاب ' كارلو جولياني (CARLO JOULIANI) برصاص الشّرطة. ومن تبعات ذلك أن أصبح، هذا'الشاب رمزاً للقوى الديموقراطية الإيطاليّة، وخاصّة منها المناهضة للعولمة.

إنّ مفهوم الحضارة العلمانيّة التي يتغنّى بها الإيطاليون، والتي يفتخرون بانتمائهم إليها، قد تتنافى في الواقع تماماً مع حقيقة ما هو كائن في إيطاليا، وأغلب الدول الأوروبية، فهي ترمي بالشّباب المهاجر في الشّوارع والأزقّة القذرة، وأتون الدعارة، بحثاً عن مكان يقضي فيه ليلته. وإن حالفه الحظّ فقد يتحصّل على غرفة يقيم فيها ثمانية أو تسعة أفراد يتداولون على

نفس الفراش لمدّة الأربع والعشرين ساعة، فكذا يبقى هذا السّرير دائم الدّفء، وذلك بالحرارة الإنسانيّة. أمّا التجمّع العائلي، فهو صعب للغاية، قد يكون مستحيلا، وإذا تمكّن مهاجر من لمّ شمل عائلته تقع محاربته من خلال قانون تعسّف ي، من ذلك مثلاً أنّه يتمّ إبعاد الطفل عن أبويه، والحجة في ذلك هي السكن سقيم اللّياقة، أو عدم توفير اللّوازم الحياتيّة.

وعلى سبيل المثال، فقد تعرّضت المهاجرة ثريا عبد الله (وهي تونسيّة الجنسيّة) لعمليّة سحب رعايتها لابنها البالغ من العمر سبع سنوات، فطالبت بالغوث من أهلها والأصدقاء لاسترجاع ابنها، لكنّها لم تفلح ولم تستطع تكليف محام مقتدر، لأنّه لم يكن بإمكانها تسديد المصاريف اللازمة لذلك.

أمّا عن -حسن- المتزوج من إيطاليّة، فقد اضطر إلى الالتجاء إلى مسكن مهجور، وكان قبل ذلك قد تقدم بعدّة مطالب للحصول على مسكن لائق، لكن دون جدوى، رغم أنّه كان قادرًا على تسديد معلوم الكراء، وكان قد حاول مراراً استرجاع ابنته وابن زوجته، لكن مساعيه ما فتئت إلّا أن تبوء بالفشل.

"ولقد اهتمّ الدكتور دوميزون (Daumezon) بالتأثير النفسي للمظاهر الاستعمارية على المهاجر المغاربي، ونتائج ذلك على واقعه.فهذا الواقع لا يلمسه المهاجر من بلد آخر، كالمهاجر البرتغالي، أو الإسباني، الذي لم يستعمر من قبل الفرنسيين، لذا فإنّه لا يشعر بالفارق التّاريخي والثّقافي بين بلده وبلد المهجر.

ولقد أثرت التّطورات السياسية والاقتصاديّة في السنوات الأخيرة في خلق ضغوط نفسية جديدة على المهاجر. ذلك أنّ هذه التّطورات أخذت امتداداً عنصر ياً بجميع ما يحمله من عواقب، وأصبحت العنصرية جزءاً لا يتجزّأ من الحياة اليومية. وهي ظاهرة تنطلق من رجل الشّارع الذي يشكو من غلاء المعيشة، وبواب المنزل الذي يطلق ملاحظاته اللّاذعة، وحتى بائع البنزين. كلّ هؤلاء يتذمّرون ويجعلون المهاجر هدفاً لتذمرهم، وكأنّه الممثّل الخاص لأمراء الخليج، والمسؤول المباشر عن ارتفاع أسعار البترول، والمشاكل التي نجمت عنه. الأمر الّذي يجعل المهاجر يشعر باضمحلال ذاته وكبريائه، وتحطيم نفسه وغروره، ويبدأ بتفسير سلوك الفرنسيين على أنّه نوع من الاستغلال الذي تعوّدوه عندما كانوا يستعمرون بلده. فقد تظهر لديه الأفكار والتّأويلات الاضطهادية التي تدفعه إلى الانغلاق على نفسه، والانكماش عن المجتمع الفرنسي في بادىء الأمر، ولجوئه إلى مواطنيه، ثمّ قد يّتخذ سلوك المعارض ومواقف الحذر في فترة لاحقة، وينتهي به المطاف إلى اللّجوء إلى حيل دفاعيّة لا شعوريّة، تفرض نفسها عليه، وهي تبتدئ بالانطواء على النّفس، والرّفض والإنكار للقيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة السائدة في المجتمع الذي انتقل إليه.

وقد يلجأ بعضهم إلى حيل نفسية أخرى، مثل تكوين ردود الفعل Reaction formation. وإسباغه صفة الكمال على أصالة محتده، وموطنه(IDEALISM).

والعامل الآخر الّذي يساعد على ظهور المشاكل النّفسيّة هو عدم استقرار المهاجر في عمله الجديد، وعدم وجود صلة بينه وبين عمله في موطنه، الأمر الذي قد يفرض عليه

التّعرّض إلى عملية تكيّف جديدة، مثله مثل من كان فلّاحاً أو راعياً في بلده، يقطن في البادية يستيّقظ عند صياح الدّيك، ويطبق جفونه عند المغيب، واضطرّته الهجرة إلى العمل ليلاً في سلسلة تركيب سيّارات في مصنع صاخب، واقتصر عمله فيه على القيام بحركة واحدة (ش.شبلان" CHARLES CHAPLAIN في فلمه المشهور الأزمنة الحديثة (Modern Times). ويزيد في ذلك التوتر النّفسانيّ الذي ينشأ عند المهاجر الّذي ينتج حرمانه لنفسه من الشّهوات الّتي يراها. أمامه ويكبتها (Repression) وذلك حتّى يوفّر أكبر مبلغ من المال ليرسله إلى أهله –كما عاهدهم بذلك قبل السّفر من بلده: والّتهجّر والّتغرّب – وهذا يّذكرنا بقولة شهيرة لطرفة بن العبد:

– خذ العهد الأكيد عليّ عمري بترك كلّ ما حوت الدّيار –

5-الهجرة السرّية: اجتياز الحدود أو المشي على الصّراط

كان من نتيجة الحملات العدائيّة الّتي لاحقت المهاجرين في بلد المهجر أن برزت ظاهرة جديدة هي الهجرة السّريّة. فما هي مظاهرها؟ وفيم تتجلّى آليّاتها؟

تولّدت هذه الهجرة من الضّغوط المفروضة على الهجرة المشروعة، فهي، إذاً، هجرة خارجة عن القانون. هي إبحار ضدّ التيّار، وتحدّ للقوانين وضوابط الترحال والإقامة، هي خرق لكل الترتيبات الأمنية والسياسية الكابحة لعملية الهجرة، وهي أيضاً حركة تحكمها آليات التحدي والتصدي، وهي حركة احتجاجية تلقائية وفردية ضدّ عوامل الإقصاء والّتهميش، وهي انتفاضة غير محسوبة العواقب في حقول مزروعة بالألغام، قصد البحث عن موطنٍ قدم في الحياة الكريمة، وهي كذلك مغامرة كبرى ومراهنة على الربح أو الخسارة، هي امتداد لتحرّك إنساني عرفته البشرية منذ عهودها القديمة، تحكمت فيه عوامل الطرد والجذب، ولكن هذه المرّة بعد أن غلّقت دول الشمال أبوابها في وجه هذا التحرك.

- ❖ فما هي أصناف المهاجرين السرّيّين؟
- ❖ كيف يتنقلون بين دول المغرب العربي، ومنها في اتجاه أوروبا؟
- ❖ ما هي سمات المهاجر الاجتماعيّة والاقتصاديّة ؟
- ❖ كيف يتم ما يسمّى حاليّا بعمليّة ' الحرقان' ومن يتحكّم فيهم ؟
- ❖ ما هو دور المجتمع المدني في الدفاع عن حقوق المغاربة في التنقل الحرّ؟

هل يمكن الحديث عن جغرافيا لـــــ'الحرقان' في ضوء تنامي الهجرة السرية من دول جنوب الصحراء نحو أوروبا؟

إنّ المهاجرين السريين والقانونيين أصناف متعددة، إذ نجد فيهم الطلبة، وهناك أصحاب الشهائد، الذين يرغبون في الهجرة بحثاً عن فرص عمل، وخاصّة منهم ذوي الاختصاصات العلمية والتقنية، فنجد المهندسين والأطباء المتخصصين في البيولوجيا، وغيرهم، بالإضافة إلى الخرّجين الجدد والنساء والفتيات اللاتي يوظفن كمعينات في البيوت. ونلاحظ أنّ هؤلاء

يتعاطون أعمالاً متنوعة، من بينها السياحة والصناعات التقليدية والبناء والنجارة وخدمات المناولة.

وبما أنّ لكل مجال مقوماته وخصوصياته ف ' للحرقان ' كذلك ثقافته وآلياته.

في البداية نلاحظ أن أعمار 'الحارقين ' تتراوح بين 16 و30 سنة، وأحياناً أكثر.

و' للحرقان ' ستة مقومات:

❖ مبلغ الحرقان الذي يتراوح بين 500 و1200 دينار تونسي، وهو مبلغ دفع الشّبّان في أحيان كثيرة إلى السرقة قصد توفيره.

❖ الدور الأساسي في نشر ثقافة ' الحرقان '.

❖ ضرورة تمتع المهاجر السري بذكاء ملحوظ للخروج من بعض المواقف العصيبة.

❖ ضرورة أن يكون قويّ البنية لمواجهة أعمال ومستجدات قد تطرأ في طريق الإبحار نحو' بلد الغربة '.

❖ سلامة المركب وحداثته لتأمين رحلة السفر.

❖ أن يكون المهاجر لوحده، وبدون ارتباط مع أيّ من أفراد عائلته.

نستنتج أنّ أغلب الذين يعبرون هم من الطلبة وبعض المجازين، وآخرين من حاملي البكالوريا، وعدد هام من ذوي التعليم المتدّني.

فإصرار دول الاتحاد الأوروبي الإبقاء على إغلاق حدودها في وجوه طالبي العمل من المهاجرين، وتشبثها بهذا القرار أكثر من أي وقت مضى، غيّر مشهد الهجرة، وطبعه بطابع مأساوي في أبرز ملامحه: استغلال المهاجرين السريين من طرف المشغلين، واغتصاب حقوقهم وحرمانهم من ظروف العيش الكريم، وجعلهم عرضة للمطاردة والمتابعة، وفريسة للحركات العنصرية الناقمة، هذا إلى جانب الحوادث المروّعة التي عصفت بأرواح العديد من ضحايا الهجرة السرية، وهم في طريق العبور نحو الحلم الوردي، مما صاغ فصولاً قاتمة من المآسي الإنسانية التي لا تتورع عدسات القنوات التلفزيونية الغربية عن نقلها في أبشع صورها، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأشلاء التي يلفظها البحر، أو بالأجساد المنتفخة التي تتقاذفها الأمواج بين الصخور.

وهكذا يتبيّن أن سياسة إغلاق الحدود لم تنجح تماماً في منع الهجرة، ولكّنها قد تكون، عّقدتها، وجعلتها نوعاً من 'التّهريب والتّدبير ' المافيوي '، ففي واقع الاختلالات السّكانية بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، والفروقات الواضحة في مستويات العيش بين بلدان الضفتين لا يمكن للهجرة إلا أن تستمر، لذا فكل زعم بإمكانية تقليص الهجرة إلى الصفر باللجوء إلى الإجراءات الحمائية وحدها قد يعتبر ضرباً من الخيال.

وفي هذا السياق قال الرئيس قبل السباق للحكومة الإسبانية 'فيليبّي غونزاليز (Philippe Gonzalez) لو كنت من شمال أفريقيا وعمري عشرون عاماً لركبت قارباً من تلك القوارب، ولو طردوني لحاولت مرة أخرى ' وجاء في تقرير لصندوق الأمم المتحدة الخاص

بالسكان أن أعداد المهاجرين الذين سيعبرون حدود بلدانهم ستزداد كثرة مع الوقت، وذلك رغم سياسات الحصار وإغلاق الحدود التي تنتهجها البلدان المستقبلة.

إنّ التفاوت بين دول الشمال ودول الجنوب في المعطيات الدّيموغرافية والمعطيات الاقتصادية، ومستويات العيش، يجعل من الهجرة مسألة حتمية لا يمكن التغافل عنها، أو محاصرتها تمام الحصار وكامله بترسانة من القوانين والتّشريعات الكابحة لها، والواقع الّذي يفرض نفسه أن بلدان أوروبا لم يعد في استطاعتها أن تستمر في إنكار التجليات الجديدة التي أصبحت تتخذها ظاهرة الهجرة، بل أصبح يتعيّن عليها أن تعمل على تحليل هذه التجليات ودمجها في سياستها الاقتصادية والاجتماعية، ونجد مثلاً لذلك في توجه الولايات المتحدة الأميركية نحو وضع سياسة للدمج تنطلق من كون المهاجرين يساهمون في الحركة السّكانية في البلد المستقبل، وأنّ هذه الحركة تعين على ازدهار هذا البلد وإشعاعه، وفي سياق هذا الأمر يرى المدافعون عن هذه السياسة أن المشكلات السّكانية ومسألة الهجرة متصلتان أوثق اتصال. وفي هذا السياق يرد المقترح الذي تقدم به الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان للاتحاد الأوروبي خلال الملتقى الدّولي في استكهولم في جانفي/كانون الثاني / يناير 2001 والذي دعا فيه بلدان الاتحاد إلى إعادة تقييم سياستها الخاصة بالهجرة، بحيث تتعامل مع هذه الظاهرة ليس كمشكلة، ولكن كحل للنقص المسجل في اليد العاملة في العديد من بلدان الاتحاد. وحسب تقرير لمنظمة الأمم المتحدة حول الأزمة في اليد العاملة التي ستعرفها أوروبا، نظراً للشيخوخة التي أصابت بنيتها البشرية، فإنه لا توجد طريقة أخرى سوى تشجيع الهجرة لسدّ النقص الذي تعرفه معادلة السكان النشطين وغير النشطين، ففرنسا لوحدها ستكون في حاجة إلى 760 ألف نسمة سنوياً.

إنّ همّ الحكومات الأوروبيّة هو وضع سياسة استراتيجية لمواجهة هذه الهجرة بإحداث تعديلات في القوانين المرتبطة بها، ووضع ترتيبات أمنية لقمعها ومحاصرتها، وتضييق الخناق عليها، والسعي إلى تطوير سياسة مشتركة منسجمة قصد وضع نظام صارم لمراقبة حدود الاتحاد.

وقد تبلور هذا الاتجاه بشكل واضح في القمّة التي عقدها زعماء أوروبا الخمسة عشر، حيث عبّر المسؤول عن جهاز الأمن الخاصّ بمتابعة الهجرة غير المشروعة عن استعداده للتعاون والتنسيق الأوروبي بإرسال عدد من قوّاته البالغة 1450 رجلاً للمشاركة في جهاز الشرطة الأوروبيّة 'أوروبول' وتعزيزه. وانسجاماً مع هذا الموقف أوضح الوزير الفرنسي المكلف بالشؤون الأوروبيّة أنه لا بد من تدعيم جهاز شرطة 'أوروبول' وتوسيع مجال عمله إلى دول أوروبا الوسطى والشرقية المرشحة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

وعلاوة على هذه الإجراءات الأمنية التي تطبع سياسة أوروبا تجاه الهجرة السرية، فقد عمدت أوروبا إلى محاربة هذه الهجرة باستخدام سلاح التشريع والقانون، حيث قامت بعدّة تعديلات على قوانين الهجرة في ظرف وجيز، وقلصت إلى أبعد الحدود الحريات والحقوق التي كان يتمتع بها المهاجرون، وتحرم هذه القوانين الجديدة المهاجرين السريين من حقوق

كانوا يتمتعون بها في ظلّ القوانين السابقة، والتي يعتبر منحها تشجيعاً على تصاعد وتيرة موجات الهجرة السرية، ومن ثمّ فإنّ الحدّ من هذه الحقوق والتقليص منها إلى أبعد الحدود يشكل في نظر الحكومات الأوروبّيّة الحلّ السحري لمشكل الهجرة السرية.

وبموجب هذه القوانين الجديدة، أصبح المهاجرون غير الشرعيين محرومين من التجمع، وحرية تأسيس الجمعيات، والانخراط في النقابات، وحتى من حق الإضراب، وهو ما يعتبر ضرباً في الصميم للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والمواثيق الدّولية المتعلقة بها.

وقد سهلت هذه القوانين الجديدة للهجرة إجراءات الطرد، إذ يمكن لوزارات الداخلية الأوروبّيّة أن تقوم بطرد كل مهاجر سرّي في ظرف ثمانية وأربعين ساعة دون توفير ضمانات قضائية.

وقد عملت الحكومات الأوروبّيّة على تكوين أجواء نفسيّة تهيّء بها المواطنين الأوروبيين. ولقبول مرامي هذه القوانين الجديدة، فقد وظفت ظاهرة قوارب الموت لصالح أطروحتها، مستغلة المنابر الإعلامية الموالية لها، وخاصّة القنوات التلفزيونية التي تمعن في عرض المشاهد المقرفة لجثث وأشلاء ضحايا الهجرة السرية، وبعض الحالات المعزولة من انحراف المهاجرين ووقوعهم في مخالفات قانونية لتأليب الرأي العام ضدّ الهجرة، وقد شنت مثلاً في صيف 2000 حملة ضدّ المهاجرين وضدّ الهجرة السريّة، وكان من نتائجها فتور حماس شريحة هامّة من المجتمع الأوروبي، كانت تؤيّد حقوق المهاجرين، وظهرت أصوات بين صفوف المثقفين وخاصّة الإعلاميين منهم، تبّث تصريحات تضرب في العمق الهجرة السرية.

وعلاوة على التأثير النّفسي الذي اعتمدته الحكومة الإسبانية لتأمين استجابة المواطنين الأوروبيين لسياستها تجاه الهجرة السرية، عمدت إلى أسلوب التهديد والوعد، والوعيد، وذلك من خلال تحميلهم المسؤولية، وفرض العقوبات عليهم في حالة مدّ يد المساعدة للمهاجرين السريين، فكلّ مواطن حمل في سيّارته، أو استضاف في منزله مهاجراً، دون التّأكد من الوثائق التي تسمح لهذا المهاجر بالعمل والإقامة، يتحمّل مسؤولية إرجاعه إلى بلده على حسابه الخاصّ، ويؤدي غرامة للدولة، الأمر الذي جعل أرباب العمل يضطرون إلى طرد العمّال غير الشرعيين، رغم أنهم يعرفون في بعض القطاعات نقصاً في اليد العاملة، وخاصّة القطاع الفلاحي، إلى درجة فساد بعض المنتوجات الفلاحية، كالخضر والفواكه التي لم تجد من يقوم بجنيها في مواسمها، كما كان ذلك في السنين الّتي خلت.

وتظهر المفارقة جلية في انحراف الحكومات الأوروبّيّة عن المبادىء التي صاغتها هي نفسها، كمبادىء حقوق الإنسان، كما حصل في إسبانيا مع القانون الجديد للهجرة الذي يحرم المهاجرين المقيمين فيها بصفة غير شرعية من الحقوق الأساسية المتعلقة بالإنسان، من حيث هو إنسان، كما تتبدّى المفارقة في التناقض الصارخ في المنطق الغربي: فهذا الذي تصطلح عليه ' بالشرّ ' المسمّى بالعالم الثالث يجب أن يفتح اقتصاده وأسواقه للسلع الغربية، وفي الوقت نفسه يجب أن يراقب مواطنيه حتى لا يزعجوا هدوء الغرب.

فهل نجحت هذه الإجراءات في الحدّ من ظاهرة الهجرة ؟

في الواقع، هي لم تفلح إلى حدّ الآن إلّا في إنعاش سوق تهريب البشر على يد عصابات وشبكات (مافيويّة) لا تتورّع عن استغلال التّعساء الباحثين عن الرّزق وراء البحر، أو الحالمين بالعيش في الشّمال هروباً من الاختناق، والمتاجرة بهم، والإثراء على حساب تهريبهم عبر الحدود بوسائل مختلفة لا تخلو من المجازفة والمخاطرة، فكم هي الكائنات البشريّة التي صدّرتها هذه السوق إلى قاع البحر، ثمّ قذفتها الأمواج أشلاء وجثثاً مشوهة إلى الضّفة الأخرى، لتلتقطها عدسات القنوات التلفزيونية قصد استثمارها إعلاميّاً وفق مرجعية سياسية معينة؟ وكم هي حالات الاختناق التي حدثت في الشاحنات القادمة من هذه السوق المجنونة ومأساة حادثة ميناء 'دوفر' الإنجليزي خير مثال على ذلك. إذ تمّ في هذا الميناء اكتشاف 58 جثّة لمهاجرين سريين في 19 جوانْ /حزيران / يونيو 2000 مما يفيد أنّ الهجرة السرية أصبحت ظاهرة عابرة للقارات بتطوراتها وكوارثها أيضاً.

كما أن هذه الإجراءات لم تفلح إلّا في إشعال فتيل العنصرية، حيث اقتضت آليات تسويغ هذه الإجراءات، أو تبريرها، تشويه صورة المهاجر، وتقديمه ككائن مقلق ومشاغب وغير منضبط، وعنصر مشوش على الاستقرار الأمني.

وهكذا غدت آلية تبرير رفض المهاجر النزوعات العنصرية في أوروبا، وأدّت إلى تصعيد موجات العنف ضدّ المهاجرين. ومن أبرز مشاهدها في إسبانيا الأحداث التي عرفتها بلدة ' طراسا و (TERRASA) خلال شهر جويلية / تموز/ يوليو/ 1999 ضد المهاجرين 'المغاربة والأحداث الدموية التخريبية التي شهدتها بلدة ' إيل إيخيدو '(EL IGIDO) في منطقة 'الميريا' التابعة لإقليم الأندلس في فيفري / شباط/ فبراير 2000 والتي ذهب ضحيتها المهاجزون المغاربة الذين تعرضوا لهجمات شرسة على يد العصابات العنصرية الإسبانية، التي وفدت إلى المنطقة من كل صوب، ومن كلّ فجّ عميق، والتي حكّمت شريعتها في ظلّ تباطؤ تدخل السلطات الأمنية.

وبعد مرور سنة على هذه الأحداث المأساوية، فإنّ الاتفاقيات التي وقعتها السلطات الأندلسية والحكومة الإسبانية، مع نقابات العمّال، حول سلسلة من الإجراءات لتحسين أوضاع المهاجرين المغاربة في هذه المنطقة، ومنها بناء منازل اجتماعية لهم، لم يطبّق منها شيء، بل على العكس من ذلك قامت بلدية ' إيل إيخيدو' بتدمير مساكن 70 مهاجراً مغربيّاً تحت ذريعة مشكل النظافة.

وقد استغل أرباب العمل إجراءات ردع الهجرة السرية استغلالاً لا يخلو من جشع، ذلك أن تلك الإجراءات شجعتهم على وضع شروط مجحفة على المهاجرين السريين لقبول واقع الاستغلال الوحشي لهم.

وقد كشف استطلاع أجرته صحيفة ' لوموند ديبلوماتيك (Le Monde diplomatique) بعد أحداث ' إيل إيخدو' عن عمق مأساة المهاجرين السريين، والمغاربة بشكل خاص الذين يتجرّعون مأساتهم واستغلالهم في صمت مخافة أن يُسلّط عليهم سيف الطرد والإبعاد. يقول صاحب الاستطلاع: '... وفي المقابل، فإنّ الخضوع لربّ العمل، والقبول

الصامت، والتام للاستغلال الاقتصادي، والمهانة، تعتبر إكراهات يجب الخضوع لها إذا أراد المهاجر تسوية وضعيته ' إنها بوادر عهد الإقطاع بدت تلوح في الأفق.

وفي دراسة ميدانية شملت مجموعة من المهاجرين السريين، قام بها مركز مختصّ، نلاحظ أنّ مآل الرحلة يختلف من مهاجر إلى آخر. وكذلك تتفاوت النسب المئوية للمؤشرات: فستّة في المئة (6 ٪) من المهاجرين فشلت رحلتهم في بداية الطريق، و46 وقعوا في يد السلطات الأمنية بمجرّد الوصول، و12 ٪ وقعوا في يد السلطات الأمنية بعد مزاولة عمل سرّي و32 ٪ أودعوا أحد المراكز الخاصّة برعاية القاصرين قبل الترحيل، و4 ٪ اختاروا العودة من تلقاء أنفسهم.

نلاحظ من خلال هذه الدراسة معطيين أساسين، أما الأول فيتمثل في كون 46 ٪ من المبحوثين اكتشف أمرهم، وألقي عليهم القبض من طرف السلطات الأمنية بمجرد الوصول، ممّا يؤكّد تعبئة هذه السلطات، وحرصها على التصدّي لظاهرة الهجرة السريّة والعمل على محاصرتها من خلال تشديد الإجراءات الأمنية.

وإذا أخذنا إسبانيا كمثال لبلد مضيف تكثر فيه الهجرة السرية، فإننا سنجد نشاطاً كبيراً لقوات الأمن الداخلي، ولعلّ الأخبار المتزامنة مع إنجاز هذه الدراسة تؤكّد هذا الواقع، فقد أكدت وكالة ' أوروبا برس " (Euro Presse) أنّ قوّات الأمن الإسبانية اعتقلت سنة 2001 حوالي 1709 مهاجر سرّي في منطقة ' قادس ' (جنوب إسبانيا). ونقلت الوكالة عن مصادر من مندوبية الحكومة الإسبانية قولها أنّ الأمر يتعلّق ب 1273 مهاجراً تمّ اعتقالهم ما بين جانفي /كانون الثاني/ يناير وفيفري /شباط /فبراير سنة 2001 و400 آخرين اعتقلوا خلال النصف الأول من شهر آذار/مارس، واعتقلت عناصر الحرس المدني في الأسبوع الأخير من شهر آذار/مارس 2001 قرابة 77 مهاجراً سريّاً من جنسيّات مغاربيّة مختلفة، في الوقت الذي كانوا يحاولون فيه الالتحاق بسواحل ' قادس '.

أمّا المعطى الثّاني، فيتمثّل في كون نسبة هامّة من المبحوثين (32 ٪) ولجوا أحد المراكز الاجتماعيّة الخاصّة برعاية القاصرين بعد إلقاء القبض عليهم. وهذا المعطى يشير إلى استفحال ظاهرة هجرة القاصرين، الأمر الذي يضفي بعداً مأساويّاً جديداً على ظاهرة الهجرة السريّة، ذلك أنّ هجرة القاصرين تتجاوز الإطار الطبيعي للهجرة لتتحول إلى مشكل إنساني حقيقي.

أمّا نسبة 12 ٪ من المبحوثين، فقد نجحوا في الإفلات من المراقبة الأمنية المشددة في الأطوار الأولى للرحلة، وتمكنوا من مزاولة بعض الأعمال في الضيعات الفلاحية، أو في أعمال أخرى بسيطة، إلّا أنهم لم ينجحوا في التخلّص من الخوف والذعر وهاجس المطاردة، وعاشوا على حلم الحصول على بطاقة الإقامة وأوراق العمل، ومنهم من فكّر وحاول الزواج بإحدى الأجنبيات لتأمين ذلك، لكن دون جدوى، فهذا أحدهم يقول: ' كنت كلما وجدت متسعاً من الوقت إلّا لا خرجت للشارع للبحث عن فتاة أربط معها علاقة في أفق أن نتزوج، وأنقذ نفسي من حياة المهاجر السرّي القاسية والاحتياط والحذر...' ثمّ يحكي عن بعض علاقاته العاطفية

التي كانت ناجحة لولا صدمة الحقيقة التي يبوح بها في اللحظات الحاسمة: حقيقة كونه مهاجراً سرياً يعمل دون أوراق. هذه الحقيقة كانت تقلب الأوضاع رأساً على عقب، وتؤدي إلى توقف العلاقة، لأنّ الأوروبيين حسب قوله: ' يخشون المهاجرين السريين ويرجحون أنّهم مجرمون...'

وعن نهاية هجرته السرية يقول: ' ذلك اليوم المشؤوم ذهبت إلى العمل، فإذا بي أجد نفسي محاطاً بمفتشين للشغل، وبعض رجال الأمن... عندما طلب منّي الإدلاء بالوثائق شعرت بالدوار والغثيان معاً. فحاولت أن أراوغ، وألّفق الأعذار، لكن دون جدوى فوضعوا الأصفاد في يدي وحملوني في سيارتهم إلى مصلحة الشرطة، وبعد تحقيقات قيل لي لا بدّ أن أغادر الديار الفرنسية، فكانت كلماتهم تشبه النطق بالإعدام في حقّي... وبعد عدّة إجراءات وترتيبات وجدت نفسي على متن طائرة، وإلى جانبي شرطيان فرنسيان كلفا بإيصالي إلى المغرب، بينما بقي الآخر في المطار، ولم ينصرف إلّا بعد إقلاع الطائرة، لم يكن يريد أن يطمئنّ عليّ كإنسان. ولكن كان يريد أن يتأكد أنه أدّى مسؤوليته بتخليص فرنسا من مهاجر سرّي '.

أمّا الذين ولّوا الأدبار في بداية طريق الهجرة، وهم يمثلون 6 ٪ من عينة البحث، فقد خانهم الحظ، وأحبطت محاولاتهم نتيجة فشل عملية العبور بالقوارب لحدوث عطب في محركاتها، أو لتسرّب المياه إليها، أو لتغير الأحوال الجويّة، واضطراب أمواج البحر.

ونسوق هنا على سبيل المثال شهادة أحدهم، حيث يقول: '... في المرّة الأولى انقلب القارب المطاطي، ونحن على مقربة من الشّاطىء، لأنه كان مثقلاً أكثر من اللازم. أمّا في المرّة الثانية، فكان الخوف حقيقياً. توغلنا في البحر، وأخذ الماء يتسرب بكثرة إلى القارب، وكنّا نحاول إفراغه بأيدينا، ولم نجد ما نفرغ به الماء، فامتلأ القارب بالماء... دبّ الخوف في نفوسنا عندما أصبحنا جالسين على الماء... استمررنا حتى وصنا النقطة التي تمرّ منها البواخر التجارية، لم نستطع إفراغ الماء، ولم تكن لدينا إمكانية للنجاة.

ووقعت مناقشة حادّة، هل نستمرُّ أم لا، وكانت الأغلبية في وضع لا يستطيعون فيه التّمييز بسبب الدوار. فكانوا يتشبثون بالقارب بكلّ قواهم، كنت أقول لهم قولوا لا إله إلّا الله. وفي مقدّمة السّفينة استقّر شخصان يحفظان القرآن كانا منهمكين في قراءة سورة يس، وأصبح القارب مستوياً مع الماء تماماً، وكان طوله ستّة أمتار فقط، وكان على متنه 34 مهاجراً مكوّمين فوق بعضهم البعض، فأغمي على واحد منّا حتى ظنّنا أنه مات، وفي الأخير قررنا العودة...' وبالطبع فمن فشلت رحلته ضاع منه ما دفعه للمهرّب، فيعود من حيث أتى ليتدبّر ثمن رحلة أخرى.

أمّا الذين عادوا بمحض إرادتهم فنسبتهم ضعيفة 4٪ وقد اتخذوا هذا القرار بعد أن ضاقوا ذرعاً بحياة القهر، والخوف، و التسكع، ونفاذ كلّ ما كان لديهم من نقود، دون أن يلوح في الأفق أي أمل للعثور على عمل، فتحول بذلك حلمهم إلى سراب.

فالقاسم المشترك، إذاً، بين كلّ الحالات المذكورة هو فشل الرحلة، (ويا لها من رحلة مشؤومة...) وهذا يعود إلى أنّ العينة المعتمدة في هذه الدراسة تشكلت ممن عاشوا تجربة

الهجرة السرية، ثمّ عادوا منها خائبين. لذلك لم تكن الغاية من الدراسة في هذا المجال هي الوصول إلى أحكام يمكن تعميمها، وإنما تمثلت في تسليط الضوء على جانب من جوانب مأساة الهجرة السرية. غير أنّ أعداداً كبيرة من المهاجرين السريين تسربوا إلى أوروبا في السنوات الأخيرة، خاصّة إلى إيطاليا وإسبانيا، وما زالوا هناك إلى اليوم، فمنهم من تمّت تسوية وضعيته القانونية، ومنهم من لا يزال يكابد ويعاني من أجل ذلك. وما المظاهرات التي عرفتها إسبانيا بعد صدور قانون الهجرة الجديد، والاعتصامات التي نفذها المهاجرون في الكنائس، وإضرابهم عن الطعام، إلا مؤشرات دالّة على صيغ أخرى من صيغ مآل الهجرة السرية، وحسب وسائل الإعلام الإسبانية، فإنّ 200 ألف من العمّال المغاربة في إسبانيا يعملون بطريقة غير شرعية.

وانطلاقاً من العيّنة التي سمحت بتحديد النّسب المئويّة، وقفنا على جملة من الحقائق تهمّ ظروف تجميع المهاجرين السريين، وانطلاق رحلتهم ومعاناتهم عند الوصول، وظروف هجرتهم، ثمّ وقفنا أيضاً على نموذج من المهربين، وتعرفنا من خلاله على طريقة تهريب المهاجرين السريين، وما تعرفه هذه الطريقة من تطورات، ونظرة المهرب إلى عملية التهريب هذه، وأخيراً استخلصنا تقويماً إجمالياً للهجرة السرية.

إذ قبل انطلاق الرحلة يتمّ تجميع المهاجرين السريين في دور مكتراة لهذه الغاية من طرف المهربين، ويضطلع بمهمّة التجميع هذه، وسطاء مقابل عمولة يدفعها لهم المهربون حسب عدد المهاجرين الذين تمّ جلبهم، فبعضهم يعطي للوسيط مجموع ما يدفعه مهاجر واحد مقابل تجميعه لعشرة منهم. ويمكث المهاجرون السرّيون في هذه الدور منتظرين ساعة الحسم لانطلاق الرحلة، وقد تطول إقامتهم، أو تقصر، حسب أحوال الجو والطقس، وظروف المراقبة الحدودية، وقد تصل مدّة الانتظار إلى شهر أو أكثر. وخلال مدّة إقامتهم يمنعون من الخروج، ويتكّفل الوسيط بجلب كلّ حاجياتهم.

من هنا تبدأ معاناة المهاجرين السريين، حيث يتمّ تكديسهم في هذه الدور، وعزلهم عن العالم الخارجي، خشية افتضاح أمرهم، مع غياب أسباب الراحة والشروط الصحية للإقامة. وتزيد معاناتهم كلما طالت مدّة انتظارهم، وزادت نفقاتهم التي تستنزف رصيدهم المالي الضعيف.

وعند برمجة رحلة ما، يخرج عدد محدود منهم، حسب ترتيبهم في لائحة الانتظار، وحسب العلاقات والوساطات، ويتمّ ذلك بشكل فردي، ويقصدون نقطة بذاتها حسب الاتّفاق. وهناك يجدون سيّارات أجرة في انتظارهم لنقلهم إلى شاطىء الإبحار.

وتعطى للمهاجرين الإشارة للنزول والاختباء في الغابات المطلّة على البحر، بشكل فردي، والتزام مخابئهم، إلى أن يسمح بالخروج إلى البحر، بعد أن يكون المهرّبون قد جلبوا القارب، وما يكفي من الوقود، وتأكّدوا من خلو المنطقة من رجال المراقبة.

وهذه المرحلة لا تخلو هي الأخرى من معاناة المهاجرين السرّيّين، إذ غالباً ما يطول انتظارهم منفردين في الخلاء، متوجّسين مترقّبين... وما إن يصعد القارب ويدور المحرّك، وتنطلق الرحلة، حتى تعود إليهم السكينة للحظات، قبل أن يبدأ شوط آخر من المعاناة أكثر قساوة وخطراً.

والوصول إلى الضّفة الأخرى لا يعني نهاية المعاناة، بل بداية مرحلة مريرة من التخفي والتّستّر، واتخاذ الحيطة مبدءاً حياتيّاً لا يزاغ عنه، والحذر خشية الوقوع في قبضة السلطات الأمنية، علاوة على شظف العيش، والشعور بالبؤس، والغربة، والضياع، وضيق الحيلة، لإشباع الحاجة إلى الأكل والحاجة إلى النوم.

والحجز محطّة أخرى لمعاناة المهاجرين السرّيين، من ذلك المعاملة الوحشية والعنصرية التي قد يعاملون بها عند إلقاء القبض عليهم.

إنّ تجربة الهجرة السرية قاسية ومريرة ومحفوفة بالمخاطر، ومع ذلك يؤكّد جلّ المهاجرين على عزمهم على معاودة التجربة، إذ لا بديل عنها في واقع التهميش والإقصاء، والشعور بالقهر والحرمان، والضياع في موطنهم الأصلي. فعوامل الطرد بالنسبة لهؤلاء أقوى من خشية عوامل المغامرة، فلا مجال، إذاً، للتلاعاظ من التجربة السابقة، وإيثار السلامة على الندامة، ولا بدّ من إعادة المحاولة مرّة ثانية وثالثة ورابعة ما دام هناك بصيص من الأمل في النجاة. فشعور هؤلاء المهاجرين الخائبين أشبه ما يكون بشعور الخاسر في رهان الميسر، كلما زادت خسارته، زاد إصراره على معاودة الرهان لتعويض الخسارة.

فالهجرة السرية ،إذاً، هي نهر متدفق تغذيه إكراهات الفقر والحاجة، ولا يمكن إيقافه إلا بالتحكم في منبعه الأصلي، وليس بوضع الحواجز عند مصبّه.

خلاصة القول، إذن، هي أنّ الهجرة السرية تستقطب بالدرجة الأولى الشباب والمراهقين الذين انشرخت حياتهم كليّاً بسبب الفقر، والفشل الدراسي، وحياة الفراغ، والضياع، والعطالة، التي أذاقتهم مرارة البؤس والإحباط والشعور بالإقصاء. وقد قادهم اليأس إلى نشدان الرحيل بأي ثمن، وهم ينحدرون في الغالب من أوساط عرفت هي الأخرى موجات من الهجرات الداخلية من البوادي والأرياف بدافع إكراهات ظروف الجفاف. وهو ما يؤكّد أن عوامل الطرد في مجال الهجرة السرية هي عوامل اقتصادية في الدرجة الأولى، وهي عوامل بلغت من القسوة درجة أقدم فيها الشباب اليائس على خوض غمار الهجرة السرية بأخطارها وأهوالها ومآسيها، مراهنين على نسبة ضئيلة من فرص الإفلات والنجاة قصد العمل في الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، ومحملين في الغالب أسرهم الفقيرة والمتعددة الأفراد عبء تكاليف السفر دون أن يتزودوا بما يكفي من المال لتأمين ظروف الإقامة والعيش في بلاد المهجر، في انتظار الحصول على عمل، (' — — فالبحر وراءهم والعدو أمامهم — ' والعدوّ هنا هو المشغّل الّذي ينشدون...) هذا العمل الذي شدّوا إليه الرحال دون أن يتوّفروا على أيّة ضمانة للحصول عليه، ولاقوا قصد ذلك ألوانا من المعاناة والعذاب الأليم، مشياً على صراط الهجرة الجديد بدءاً بتجميعهم، وانتهاءً بمواجهة أهوال البحر والمراقبة الأمنية.

❖ الاضطرابات النّفسيّة النّاجمة عن عملية الهجرة:

1- الأمراض النّفسيّة الأكثر شيوعاً:

يتّضح لنا في دراسة الأمراض النّفسيّة التي تصيب المهاجر المغاربيّ إلى فرنسا أنّها الأمراض نفسها النّتي تصيب الأفراد في أيّ مجتمع آخر، ولكّنها ترتدي في هذه الحال صبغة وكثافة في حدّتها في عدد من المظاهر.

ولقد أشار الحكيمان، الحبيب اللاجري، ومحمّد العّنابي، إلى أهمية الصّبغة الوجدانية والعاطفية التي تّتصف بها أمراض المهاجر، وكذلك استعماله اللاشعوري لجسمه للّتعبير عن توتراته النّفسيّة، وقد لاحظنا أنّ فترة بقاء المهاجر المريض في المستشفى لا تتعدّى في الغالب بضعة أيّام إلى أسابيع قليلة. ومن الممكن تقسيم الأمراض النّفسيّة والعقلية النّتي يتعرّض لها المهاجر إلى مجموعتين اثنتين:

1-تصيب **المجموعة الأولى** أناساً لديهم استعدادات خاصّة للمرض النفسي، ويكون عامل الهجرة ومشاكلها دافعاً لإظهار المرض، بالإضافة إلى من هم مصابين بعلل سابقة، ومنهم فئة يدعون بالّشخصيات السّيكوباتيّة(PERSONALITY PSYCHOPATHIC) تتميّز هذه الشخصيّات السّيكوباتيّة، أو ما يعبّر عنها بالشخصيّات اللااجتماعيّة، أوالشخصيّات العدوانيّة، بكثرة (الّتنّقل من مدينة إلى أخرى، أومن قطر إلى آخر، وكذا لصعوبة في الّتأقلم والاستقرار، وهذا يذكّرنا بمقولة شهيرة لأبي الطّيّب المتنبّي:

- على قلق كأنّ الرّيح تحتي توجّهني جنوباً أو شمالا -

2-أمّا **المجموعة الثّانية** فليس عندها سوابق نفسية خاصّة، إذ يظهر عندها المرض بعد وصولها إلى أرض المهجر، ولقد لاحظنا أنّ أغلب الأمراض النّفسيّة التي تتطّلب إيواء المريض المغاربيّ في المستشفى هي الذّهانات الحادّة، وهذه الذّهانات لها مميّزات خاصّة ينفرد بها المريض المغاربيّ، فهي عادة تقتصر على الشّعور بالاضطهاد والضرر والمطالبة المتكرّرة بالحقوق 'المسلوبة' إن كانت حقيقيّة، أو صنيعة إنتاج المخيّلة المضطربة للعليل. كما تشتمل على الاتّجاهات الدينيّة المتطرّفة المرضيّة، التي تدفع بالعليل إلى الاعتقاد الرّاسخ بأنّه مرسل من الله سبحانه وتعالى، أومن قبل الأولياء والصّالحين.

كما نشاهد أيضاً حالات الاكتئاب العضوية 'الماليخولية' (Melancholia) و'الانفعالية' (Reactive depression) وقد لاحظنا كثرة حالات الاكتئاب التي ترتدي صبغة الضيق النّفسيّ والقلق الشّديد مع الأرق، هذا مع انعدام أيّ عنصر تقليديّ للّتعبير عن كآبة في المزاج أو الوجدان، كانعدام البكاء، وانعدام الّتعبير الكلاميّ عن الأسى.

ورصدت كذلك في المجال العضوي حالات كثيرة من الأعراض النّفسجسديّة Psychosomatic symptoms وهي ناتجة، عن مظاهر الاكتئاب التفعلي،والّتي تتجلّى في اضطراب وسرعة دّقات القلب، وقروح المعدة والاثني عشر، واضطرابات القولون، والشّقيقة

(الصّداع النّصفي)، وآلام الكبد والمعدة. ونذكر منها كثرة حدوث العنة (العجز الجنسي ، Impotence الوهم النفسي Neurasthenia والأعراض التحوّلية symptoms Conversive التي تبدو بشكل الشّلل النّصفي، أو بالخذل في طرف علوي أو سفلي، أو بالبكم، أو العمى، أو حالات الصرع الوهمي، والهرع، والهستيريا خاصّة، إثر طوارئ العمل وحوادث المرور، أو بعد أيّة إصابة جسديّة مهما كانت بساطتها. ونمثّل لذلك بالمريض الجزائريّ الأصل الّذي كان يعيش وحيداً بأرض المهجر، ويعمل في ورشة تعدّد فيها العدد الوفير من العمال، ' الّذين أضحوا فاقدي الأسماء وحاملي الأرقام رغم أنوفهم ' بحكم نوعيّة هذا العمل، والّذي أصيب بشبه شلل لطرفه الأيمن الأعلى بكامله، وذلك إثر ضربة خفيفة بمطرقة لبنصر هذا العضو(بنصر اليد اليمنى)،

وقد استدعى هذا الحدث إقامة في المستشفى تعدّدت فيها الفحوص السّريريّة والمخبريّة والصّور السّينيّة، وختم سجلّه باعتباره 'هستيرياً' أو "متهستراً' – هكذا...

ولقد ذّكر الدكتور محمد غربال بأنّ حالات الاكتئاب الخطيرة عند المغاربة تّتصف عادة بما يلي:

1-عدم وجود:

الألم النّفسيّ Psychological pains.

وعدم الشّعور بالذّنب Guilt feeling.

وانعدام الأفكار الانتحاريّة Suicidal tendencies .

2-أمّا العلامات الإيجابية فتكون على شكل: الأفكار الاضطهادية persecution Ideas of– والشعور بالنّقص، وانحطاط القيمة، وتوهّم المرض.

فكذا يعتقد المريض اعتقاداً راسخاً لا شكّ ،ولا ريب فيه، أنّه مضطهد من قبل من يحيطون به، أو أنّه أصبح ضحية مؤامرة مصدرها عائلته، أو الأشخاص الّذين يعمل معهم، فيضحي ردّ فعله على هذا الشعور... هو التّهجّم الكلامي، أو اللّجوء إلى العنف، أو الانطواء على الذات، أو الالتجاء اللاإرادي إلى الأعراض الجسدية من خلال عمليات تحويل لاشعورية.

ويلاحظ الأستاذ سليم عمّار أنّ أغلب الحالات المرضيّة التي تشاهد عند المهاجرين رحّلوا إلى مسقط رأسهم تتميز إما بانتكاسات اكتئابيّة حادّة، أو بحالات تغيبيّة تتمثّل في الاختلاط الفكريّ تحت الحاد sub acute confusional state يكون ناتجاً تارة عن استعمال بعض المخدّرات، وتارة مبدءاً، ومدخلاً لتطوّر مرض فصامي كان كامناً قبل الهجرة. أمّا حالات الاكتئاب المزمنة Chronique dépression فكثيراً ما يشاهدها ويباشرها الطبيب العام في بلد المهجر، ولا يباشرها الاختصاصي النّفساني، لأنها تتجلّى غالباً على شكل أمراض نفسجسديّة، مثلها مثل الآلام المزمنة، وآلام الجهاز الهضمي والعصبي، الأمر الذي يدفع المهاجر إلى الاعتقاد الزّائف بأنه بذل من صحّته الكثير دون جدوى، أو اعتبار لهذه التّضحية. ففي هذه الحالات عادة يجد الطبيب الأوروبّي المباشر نفسه في موقف حرج أمام مطالبة المريض المتكررة بالشّفاء التّام، وذلك دون أن يجد استجابة للوسائل العلاجية المتعدّدة والمتشعّبة

في بعض الأحيان. ولقد أوضح الأستاذ ج. دوميزون G.Daumezon مجموعة من النّقاط الخاصّة بالمهاجرين المغاربة إلى فرنسا، مقارناً بينهم وبين المهاجرين من البلدان الأوروبيّة الأخرى:

1-أوّلاً: أنّ الهجرة الداخلية، أي من منطقة إلى أخرى في البلد نفسه قد تمثّل عاملاً مسبّباً للمرض، وقد يكون في أهمية الهجرة نفسها من بلد إلى آخر.

ويمكن لنا هنا، وفي هذا المساق، أن نعرّج، ونذكر بقولة الشاعر أبو القاسم الشّابّي الشّهيرة:

سأعيش رغم الدّاء والأعداء كالنّسر فوق القمّة الشمّاء

من جاش بالنّور المقدّس صدره لم يحتفل بحجارة الفلتاء

النّور في صدري وبين جوانحي فعلامَ أخشى السّير في الظلماء

وقد كان هذا الشّاعر التّونسيّ الفحل قد هاجر من قريته توزر الواقعة في جنوب القطر التّونسي إلى الشّمال (تونس العاصمة) حيث لم يذع له صيت، بل لم يشهد له أعيان هذه العاصمة بأيّ فضل، وعادوه وتعنّتوا في عدائه، وكفّروه وجعلوه ملحداً ونسبوه إلى الإلحاد إثر بيته الشّهير:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا بدّ للّيل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر

وقد اتخذوا من هذا التّعبير التّصويريّ ذريعة لتكفيره، والزجّ به في زمرة الزّنادقة، بينما كان هو مسلماً، وسليل قاض، وشيخ إمام في قريته. فلم يعرف بينهم إلّا الفقر والخصاصة والإنكار والحرمان، حتى أنه قال مردفاً:

النّاس لا يكرمون الحيّ بينهم حتّى إذا توارى عنهم ندموا

ويقصد بالنّاس، أبناء تونس، إذ أنّ أبا القاسم الشّابّي لم يجتز الحدود التّونسيّة، ولم يسافر إلى غيرها من البلدان قطّ.

وفعلاً - وخاتمة لهذا الصّراع الغير العادل مع غيره من أبناء بلده الّذين استنكروه ونكروه، توارى شاعرنا الفحل... اعتلّ ومات في عزّ شبابه(في الرّابعة والثّلاثين من العمر)، بفعل مرض نفسجسديّ المصدر، ألا وهو الرّيو المزمن.

كذا نرى أنّ صراع الهجرة، وإن كانت داخليّة (أي في البلد نفسها) وفقدان الذات، والنّكران النّاتج عنه قد يؤدّي إلى مرض نفسيّ، نفسجسديّ... أو موت حتميّ، وفي بعض الأحيان قد يفتّق قريحة لم تكُ لتتمخّض عن هذا لولا هذا الوضع الخاص.

2- ثانياً: إنّ أغلب الاضطرابات النّفسيّة عند المهاجر تحدث في فترة التّأقلم، أي من الشّهر الثّالث إلى الشّهر السادس، بعد وصوله إلى أرض المهجر، وقد سميت بالفترة الحرجة للتّأقلم، وهي تتميّز بشدّة أعراض القلق ومظاهر الاكتئاب.

3- ثالثاً: إنّ معظم هذه الأمراض النّفسيّة تكون أعراضاً طارئة قابلة للشّفاء بسرعة. وكثيراً ما يحدث خلط في تشخيص الحالات النّفسيّة الطّارئة عند المهاجر المغاربيّ، مثل تلك حالات الانفعال الحادّة . Acute emotional state مثلها مثل الحالات التي يشكو فيها المريض من محاولة سحر الآخرين له، وهو موضوع اضطهادي رائج في البيئات التّقليديّة، مثل المجتمعات الأندلسية والمغاربيّة والصّقليّة والقبرصية، بينما يعتبرها بعض الأطبّاء الأوروبيين، وعلى خطأ، حالة من حالات هذيان الفصام البرانويدي، Paranoid delusion ويرجع هذا التّأويل الخاطئ. إلى عدم إلمام هؤلاء الأطبّاء إلماماً تاماً بالطّب النّفسيّ الخاصّ بهذه الثّقافات المتوسّطيّة، كما يذكّر بذلك، الأستاذ سليم عمّار بالتفصيل في العديد من مقالاته؛ بيد أنّ هذا المريض لا يمكث في المستشفى إلّا أياما قلائل، وذلك بالنّسبة لمرض قد أعتبر، خطأ، فصاماً، وهو في الواقع حالة من حالات الانفعال الحادّة، وهكذا نرى أنّ كثيراً من الإحصائيات حول قصر فترة إقامة المريض المغاربيّ في المستشفى بسبب أمراض صنفت ضمن الأمراض المزمنة، غير صحيحة لعد م إعطائها التّشخيص القويم المستقيم.

4- رابعاً: وقد استنتج الدكتور ج. دوميزون G. Daumezon كذلك أنّ العامل المسبّب للمرض عند المهاجر، هو في الحقيقة انعدام أو فقدان العلاقات الوجدانية بالنّسبة للزمان والمكان، Temporo- spatial formation فهذا المهاجر القروي الأصل الّذي تعوّد على احتساب الوقت حسب الظّواهر الطبيعية، يجد نفسه، فجأة، وبحكم الهجرة، في مجتمع صناعيّ ينظّم مواعيده بدقّة متناهية، وبالتّالي يضطرّ إلى الدخول في سباق مستمر مع الزّمن يفوق قدراته واستعداداته الفطريّة السابقة الّتي جبل عليها.

2-الإدمان عند المهاجرين:

2-1- إدمان الكحول:

تبدو هذه الظّاهرة بصفة جليّة عند المهاجرين الّذين يمكن تصنيفهم إلى مجموعتين:

1- **المجموعة الأولى** التي تضمّ المهاجرين الّذين وصلوا إلى فرنسا منذ زمن بعيد (من مهاجري السّتينات) واندمجوا في المجتمع الفرنسي بصفة شبه تامّة. وقد يلجأ بعضهم ليبرهن على تقدميته وتطوره ومجاراته للفرنسيين في نمط حياتهم، كاللباس، وأكل مأكلهم، ومن ضمنها تناول لحم الخنزير، واحتساء الخمور علانية وجهراً. وربّما يغالون في ذلك بغية إبراز اندماجهم التّام في المجتمع الفرنسي، حيث يجالسون وينادمون الفرنسيّين في جلساتهم الخمريّة اللّيليّة، وذلك في نطاق حانات القرى والمدن (فمن المعروف أنّ لفرنسا حضارة عتيقة في إنتاج واستهلاك الخمور منذ غياهب العصور)، ويؤدي ذلك غالباً بمرّ السّنين لديهم إلى ظهور أمراض طويلة المدى تدخل في نطاق الغولية المزمنة، كالتهاب أعصاب الأطراف المتعددة

(POLYNEVRITIS) وكذا الخرف المبكّر النّاتج عن تلك الغوليّة المزمنة (مثل خرف كورسكوف KORSAKOV) وأمراض الكبد (CIRRHOSIS).

2- أمّا **المجموعة الثانية**، فهي تلك التي لم تتمكّن من التّكيّف مع المجتمع الجديد، ومن أفرادها الذين لم يستطيعوا الاحتفاظ بعملهم، فاتّخذوا من الالتجاء إلى الكحول بصفة فرديّة وانزوائيّة حلّاً كاذباً لتوتراتهم النّفسية.

إنّ هذه المجموعة التي لم تستطع ' الوفاء بوعدها ' لعائلاتها تجد نفسها في حلقة مفرّغة. فهي من جهة عاطلة عن العمل، ومن جهة أخرى لا تستطيع العودة إلى وطنها تحاشياً لمواجهة أهل قريتها، وهي تجرّ أذيال الخيبة (وهذه الفئة توصف باللّغة التّحليليّة بالفئة الّتي أصيبت بعمليّة الخصي).

ويكون أفراد هذه المجموعة في أغلب الأحيان منبوذين من طرف مواطنيهم في المهجر بعكس أفراد المجموعة الأولى.

ويلاحظ لدى أفراد هذه المجموعة أعداداً كبيرة من حالات الكحولية المرضية من نوع الهتر الإرتعاشي Delirium tremens والهتر التشنّجي Convulsif delirium والسّكر الحاد الهتري Acute Alcholic delirium وحالات الهذيان الحلمي Oniroid states.

أما حالات الاختلاط العقلي التوّتري Confusionnel psychosis غير الناجمة عن إدمان الكحول، فهي عديدة، وتنتج غالباً عن رضوض نفسية حادّة وخطيرة يصحبها الانكماش العاطفي والفقر اللّغوي، وتشاهد بكثرة في الفترة الأولى من التّأقلم بأرض المهجر. وهذا المرض بالنسبة لابشتاين Epstein وحسبما جاء في مقالة الدكتور أن الحبيب اللّاجري ومحمّد العّنابي: هو أكثر الذّهانات انتشاراً عند المهاجرين، وقد شبه بذهان المسجونين Psychose carcérale حسب الاصطلاح الفرنسي.

2-2- إدمان المخدرات:

إن ما وصفناه في إدمان الكحول قد يعتبر ذاته الذي نلاحظه عند مدمني المخدّرات. فنتيجة للأوضاع المزرية التي ذكرناها، وللمعاناة العصيبة التي يعيشها المهاجر، يسعى بطريقة أو بأخرى إلى الهروب من هذا الواقع، ومحاولة العيش في عالم آخر خيالي، خال من ازدراء شعوب الدول المستقطبة، وخال من تساؤلات الأهل في الوطن الأمّ عن ثروة المهاجر بعد سنوات من الغربة. وخال من استفسارات الأصدقاء في بلده عن أمواله التي أقرضوها إياه، وعن نوع سيارته التي من المفروض أن يكون قد اشتراها، والتي من المفروض أيضاً أن تكون من آخر طراز.

للهروب من كلّ ذلك يسعى المهاجر إلى النّسيان، ويكون ذلك بإدمان الكحول، غير أنّه قد يرتمي في مستنقع آخر أشدّ خطورة: ألا وهو المخدّرات، فيبدأ بترويجها نتيجة عدم حصوله على شغل يتجاوز به أزماته المادية. وقد شوهد تيّار من الشّباب منذ الثّمانينات الّذين يهاجرون قصد الغنى السّريع، وقد استقطبهم كبار تجّار المخدّرات على أساس سهولة تنقّلهم وبياض

بشرتهم، وإتقانهم للّغات الأوروبّية المستعملة بطلاقة، الأمر الّذي يجعلهم يمتزجون بالمجتمع الأوروبّي بسهولة فائقة، وأضحوا هكذا همزة وصل بين كبار تجّار المخدّرات والمدمن الأوروبّي، فأضحى هذا التّيّار جارفاً منذ سنة خمس وثمانين، وذلك طمعاً في الثّراء السّهل السّريع دون إجهاد بدني أو ضياع وقت في الدّراسة الطويلة مستهزئين بمّن سبقهم من ذويهم في أرض المهجر. فكذا تكوّنت عصابات في المتاجرة في المخدّرات لدى شباب لم يكن لأولياتهم عهد بهذا، وجرّوا بهذا الصّنيع لأوطانهم صورة قبيحة هجينة متغيّرة تماماً عن الصّورة التي بناها أسلافهم ممّن سبقهم من مواطنيهم الجادّين الكادحين في أرض المهجر. ومن المعروف أنّ رؤوس تجارة المخدّرات المتستّرين عن أطر الشّرطة عادة ما يُعوّدوا هؤلاء الشّبّان على تعاطي نوع تلك المادّة الّتي يبيعونها خلسة، وفي الأزّقة الظّلماء، فيضحون في الوقت نفسه هم أنفسهم متاجرين ومدمنين.

إزاء هذا الواقع الجديد يتعرّف المهاجر الشّاب على ما يسمّى بمسالك التوزيع والترويج، وهذه المسالك تدخله في دوّامة يستحيل الخروج منها، فبعد أن عرف عديد الأسرار يصبح غير مسموح له بتجاوز الخّط الأحمر، وهو ما يعرف بإفشاء أسرار الجماعات التي يتعامل معها. ويعتبر مجرّد تفكيره في العودة إلى وطنه الأمّ القشّة التي قد تقسم ظهره، ويكون ذلك بتصفيته جسدياً ليلقى نحبه ويموت معه السرّ إلى الأبد.

وإدمان المخدرات يفقده التفكير السويّ، ويزحزح عقائده في كلّ المبادىء التي تعلّمها، بل إنّه قد يفقد إدراك كلّ شيء حتى أقرب المقرّبين إليه، وقد ينحرف إن لم يكن من صنف العدوانيّين المنحرفين قبل الهجرة، وهي نتيجة حتميّة، لأنّ هذا الميدان يمّثل بؤرة الفساد، فيتعرّف على العاهرات، ويصبح متعهّد عهر، ويختصّ في استقطاب المغاربيّات اللاتي يسقطن في هذا الفخ نتيجة انحرافهنّ أيضاً، وهن من كلّ الأعمار والفئات، يجمع بينهن التّقارب الجغرافي، والوضعية الاجتماعية السيئة والعنصرية الّتي يلاقينها في أرض المهجر.

والمغاربيّات اللاتي يجمعن بين تناول المخدرات، وبين العهر صنفان: أمّا الأول فهنّ اللّاتي يتمركزن في شوارع المدن الكبرى الأوروبيّة، ويُسمّين "نساء اللّيل". أمّا الصنف الثّاني فهنّ اللّاتي يقدّمن خدمات جنسية في بيوتهنّ، إلى جانب ترويج المخدرات واستهلاكها. ومنهنّ من تقضي ليلتها في محطّات "المترو" لاصطياد طالبي اللّذة الجنسية، وإن لم يحالفهنّ الحظّ بالحصول على هذا الزّبون، فإنّهنّ يَبتن ليلتهنّ في محطّات "المترو" لأنها تمثّل ملجأهنّ الوحيد ومقرّ عملهنّ في الوقت نفسه.

3- المهاجر والجنس:

والمهاجر المغاربي المتزوّج، وكذا وضع المهاجر الأعزب، يعيش حياة جنسيّة رديئة سقيمة، فهو يتعرّض يومياً إلى إثارات المرأة الفرنسيّة الأنيقة والجميلة، تتخايل أمامه بمشية القطاط إلى الغدير باثّة عطرها المنفس مثيرة لحواسه، قريبة من عينيه، ولكّنها بعيدة كلّ البعد عن مطامعه. فالمهاجر المغاربي، وبغياب قرينة له، وبتشّنج حواسّه يضطرّ قسراً لإشباع رغباته الجنسيّة بالاتجاه قسراً، وبالضرورة، إلى المواخير الشعبيّة التي تنتدب المومسات العاهرات من

صنف العجائز الفانيات، هكذا... وذلك استفراغ دوافعه الجنسيّة التي تسلّطت عليه في هذه الظروف الخاصّة المهيّجة والمثيرة للمشاعر والحواس. فيدخل ذلك الماخور مطأطئ الرّأس، (ويطلع منه زاحفاً) مثّقلاً بالشعور العميق لفقدان كيانه من جهة، ومن جهة أخرى اضطرّ لابتزاز كمّيّة من المال كان عليه أن يبعث بها لأهله، واضطرّ لتسليمها لتلك العاهر العجوز.(- 'قالت ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً -').

❖ مكانة المرأة المهاجرة في فرنسا:

1- المرأة المهاجرة بين مطرقة العادات وسندان التفتّح:

أهملت بعض الدراسات الخاصّة بالعمال المهاجرين وضعية المرأة العاملة، سواء كانت عاملة أو زوجة أو أمّاً. ومعظم البحوث التي صدرت حتّى الآن عن مشكلة الهجرة لا تصف متاعبهنّ وتجاربهنّ وظروف العمل والسكن والحياة العائلية الخاصّة، وهموم المعيشة، بعيداً عن الوطن، أو عكس ذلك، أي الشعور بالتّحرّر بعد الهجرة، والابتعاد عن الوطن الأمّ، ورقابة العشيرة عليهن.

فهل يمكن الفصل بين مشاكل العامل المهاجر، والمرأة المهاجرة؟

ألا يتعرّض العمّال المهاجرون (من الجنسين) تقريباً للضّغوط والظّروف نفسها؟

إنّ للمرأة المهاجرة وضعية خاصّة تكشف بدرجة أكثر وضوحاً عن انحطاط المستوى الإنسانيّ، الذي يحيط بها في بعض الأحيان في أرض المهجر، فهي قد تتعرّض إلى أشكال متعددة من القهر الاجتماعيّ بصفتها امرأة مهاجرة، أوّلاً لأنها تضطرّ في أغلب الأحوال إلى مغادرة البلاد لتلتحق بزوجها، حيث يعمل، وثانياً باعتبارها عاملة تخضع لأقسى ظروف العمل صعوبة، وتقبله بأجور منخفضة، وقد تتعرّض بحكم مظهرها الخاص لكلّ أنواع التمييز. ثمّ هي تعيش الحياة كأجنبية مسؤولة إلى حدّ ما عن حفظ تراثها القديم، وهي تقف في أغلب الأحيان وحيدة في مواجهة تيارات الحضارة الجارفة، وتتلّقى الصدمات في المدن الغربية البعيدة عن الوطن، وهي تتمتع عادة بوضع خاصّ في تلك المدن الصناعية. ثمّ إنّها كأمّ مسؤولة أيضا عن تعليم أطفالها لغة الوطن وعاداته وتقاليده وتراثه وثقافته.

وهي تقوم بهذا الدور، لأنّ الأطفال يدرسون في المدرسة القيم الحضارية للبلد المضيف، لذلك كّلهتتمّ تع المرأة بهذا الوضع، لأنها مطالبة بأن تفهم المجتمع الجديد الذي تعيش فيه، وأن تفهم لغته، وعاداته، وعقلية الناس فيه، بالإضافة إلى التّعامل مع عقليّة وتراث بعلها، خصوصاً إذا لم تكن لها به سابق معرفة، فدورها، إذاً، أصعب بكثير من دورها في وطنها الأم. والملاحظ أنّ بعض الصيحات التي تطلقها النّساء العربيات المتزوّجات من المغتربات ' كنت أعتقد أنني تزوّجت بعربيّ، فإذا بي متزوّجة بفرنسيّ' تعكس بوضوح خيبة أمل الكثيرات منهن، ومسؤوليتهن في تحمّل بعض مشكلات أزواجهنّ 'الذين ' تغيّروا وتفرنجوا في أرض المهجر '.

ومعظم الآباء في أسر المهاجرين لا يجدون عملاً، لذلك يضطرون أحياناً إلى الشغل بشكل غير قانوني في أعمال ليلية تقتضي منهم السّهر والبقاء خارج ديارهم، وغيابهم عن

أسرهم. وطبيعة العمل اللّيليّ تخلّف العديد من المشاكل، فبعض الرّجال يهدّدون زوجاتهم بالطّلاق ويّتهمونهنّ بالفساد والبعض الآخر يعنّفونهنّ، وبعضهم ينام مع صديقته الفرنسيّة بمحضر زوجته. ويجرّنا ذلك إلى الحديث عن قضية شديدة الارتباط بالقيم، ألا وهي قضيّة الانفتاح الجنسيّ المبالغ فيه أحياناً مقابل 'التزمّت العربيّ الإسلامي' وهي مشكلة شديدة التواتر، لأنّ المجتمع الفرنسيّ، ببساطة علماني ومنفتح جنسياً، والفتيات العربيات يعشن تناقضاً فعلياً بين قيم عائلتهنّ، والكبت الجنسي، وبين ما يشاهدنه ميدانياً في الحياة العامّة.

فالأب والأخ اللّذان يكونان ملتزمين بتراث أرض الوطن الأم، وبمعاييره التّربويّة، لكّنهما عادة ما يزدادا ن خوفاً على مصير الأنثى 'زوجة أو أختاً أو بنتاً، كانت ونتيجة ذلك أن يزداد تزمتهما ورقابتهما على الأنثى في مجتمع الغربة. فإجبار الرّجل قسراً على تعليم ابنته جعله يتوجّس خطراً من ذلك، ويبقى دائماً يترصّد سماع نبأ 'سيّء' عن ابنته نتيجة خروجها ودخولها بمفردها، وفي حال تدريسها بتلك المدارس المختلطة، فإنّ النتيجة هي انفتاحها على بيئة جديدة، ومجتمع يختلف بالمرة عن المجتمع المصّغر العائلي الذي تعيش في كنفه، وهذا التّناقض الذي تعرفه بين البيت والمدرسة تختلف ردود أفعاله من إنسان إلى آخر...

فهناك من الفتيات من تجد تبريراً لذلك، فترضى وتخنع بالواقع الراهن، وهناك من تقرّر الهروب. وفعلاً هناك حالات لفتيات تركن منازلهنّ وهجرن أسرهنّ ورحلن... وهناك أخريات يجدن وسيلة أخرى للخروج من دائرة الحصار المحكمة، فيتصرّفن في البيت بطريقة، وخارج البيت بطريقة أخرى، أمّا إذا تأقلمت الفتاة مع ذلك الوضع، فإنّ الكبت الجنسي يظلّ دائماً موجوداً، ويتأتى ذلك عن مقارنتها اللّاشعوريّة مع زميلاتهنّ الفرنسيّات في المدرسة، واللّواتي لهنّ علاقات غراميّة، الأمر الذي يجعل نفسياتهنّ أكثر هشاشة وعرضة وفريسة للانهيار، ودرءاً واتّقاءً ووقاية من هذا المحضور قد يعمد بعض الأولياء إلى تزويج بناتهم قسراً. وعادة ما يحدث ذلك في عطلة عائليّة صيفيّة من القرية الأم، وقد نتجت عن هذه الحالات الكثير من المآسي الاجتماعيّة.

2- مكانة المرأة المهاجرة:

يجدر بنا عند الحديث عن المرأة القادمة من شمال أفريقيا في السّنوات السّتين التنويه بالصفات الخاصّة التي تتميز بها، فهي قبل الهجرة زوجة العامل وسليلة قريته، وهو يبقيها في أغلب الأحيان في القرية لأسباب اقتصادية وأخلاقية، لأنه يخشى عليها من 'الفساد والتّفرنج والتشبّه بالمرأة الفرنسيّة، ولا يأتي بها إلى معقل هجرته إلا بعد أن يصبح وضعه مستقراً ومرضياً.

ودراسة وضعيّة المرأة من هذه النّاحية يجعلنا بالضّرورة نتعرّض تباعاً إلى المراحل ألّتي مرّت بها المرأة المهاجرة في أرض المهجر في بداية السّتينات وما قبلها. إذ كانت أغلب النّساء المهاجرات يعانين من الجهل والأمّيّة، ولم يكن في وسعهنّ الأخذ من مناهل العلم، ولو قليلاً،

لأنّ البيئة ألّتي عشن فيها كانت فيها المرأة غير متعلّمة، ولا سيّما القرويّة، إذ كانت عادة فقيرة، وكذا فلم يكن لأبويها أن يعلّموها لأسباب أخرى، إذ أنّ الخروج من البيت لسبب ما كان يعتبر من باب المحظورات. فكنّ يولدن ويعشن ويترعرعن في بيوت أهلهنّ، ولا ينكشفن على الرّجال حتّى وإن كانوا من أقاربهن. وعادة عندما ينضجن ويصبحن يافعات يحوّلن إلى بيوت أزواجهنّ، ويصبح وضعهنّ كالخادمات (الأمة) عند أهالي زوجها ('-ناقصات عقل ودين وميراث، هكذا [...-')، وتقتصر مسؤوليّتهنّ على الطبخ والّتنظيف للأسرة الموسّعة، وقد تسند لهنّ أعمال شاّقة كالاشتغال في الحقول حتّى تتقرّح أرجلهن.

وكان الوشم، ولاسيّما في القبائل البربريّة الأصل من شمال أفريقيا (من أبناء الرّيف، المغربي وأبناء جبال 'أوراس'، وما يسمّى بفرق القبائل الجزائريّة، وأبناء البرابرة بمطماطة في الجنوب الّتونسي) يستعمل عند الفتيات قسراً، إمّا لانتسابهن لقبيلة ما، وإمّا للزّينة، وإمّا للاثنتين معاً.

وهكذا، فإنّ المرأة لا تنتقل إلى فرنسا إلّا بعد سنين طويلة من استيطان زوجها فيها، وهي في قريتها ليس لها رأي في الأمور يعتدّ به، ولا يسمح لها بأتخاذ أيّ قرار، حتّى ولا في تربية أولادها، والقرار الفاصل هو قرار الجماعة، وليس لها في ذلك حول ولا قوّة.

وحينما تلتحق المرأة المهاجرة بزوجها في أرض المهجر، فإنّها عادة ما تبهر بهذه الحياة الجديدة، وبتلك المرأة الأوروبّية المتحضّرة، فتتساءل فطريّاً ما ألّذي ينقصها حتّى تتشبّه وتضاهي المرأة الفرنسيّة في تحضّرها وتفتّحها وجمالها. وهنا تلاحظ وتركّز المرأة المهاجرة على تغيّرات أخرى تمسّ الشكل والمضمون، فتبدأ بتغيير شكلها، ثمّ تتردّد بعد ذلك على محلات الحلاقة، وتصبح حريفة دائمة.

أمّا في ما يخصّ الّلباس، فإنّها تسعى جاهدة إلى تقليد المرأة الغربيّة، فترمي بلباسها المحتشم، وتتنصّل معه من تقاليد ظلّت حسب زعمها تكبّلها وتضيّق عليها الخناق، فتضحي السّراويل الضّيّقة بديلاً من القفطان (والملية). أمّا من ناحية المضمون، فإنّ تصرّفات المرأة المهاجرة تتغيّر شيئاً فشيئاً نتيجة مخالطتها السّهلة للمرأة الأوروبّيّة، وذلك ناتج عن الّتضامن والّتكاتف عند الّنسوة. فيرتفع صوتها تدريجيّاً، وتزداد قهقهاتها إغراءً، ثمّ تصبح غير قادرة على مفارقة سجائرها. أمّا في ما يخصّ علاقتها مع زوجها فإنها تتغيّر تدريجيّاً، فتفقد ذلك الحياء والخوف والخشية والرّيبة ألّتي كانت تتميّز بها عندما كانت في وطنها الأم، فتصبح متسلّطة، وفي بعض الأحيان ظالمة، لأنها أصبحت تدرك-بعد أن زارتها ولازمتها المرشدات الاجتماعيّات الّلواتي بيّنّ لها أنّ القانون الفرنسي هو قانون مساواة في الحقوق، وكذا الّتعلّم، والّتداوي مجّاناً، فهو يجعلها تطوّق وتخنق زوجها أكثر بطلباتها ألّتي لا تنتهي، وقد تصل الأمور بينهما إلى حدّ الّشجار.

وبمرّ السّنين وكثرة الولادة والّتوالد (لأنّ الحكومة الفرنسيّة كانت تشجّع الولادات بمنح مغرية وبولادة مجّانيّة لكلّ حمل وذلك منذ السّنوات السّتين، وهذا يرجع إلى الّنقص الفادح في الإنجاب، ولخوف تلك الحكومة من تهرّم المجتمع) تنجب المرأة المهاجرة جحافل من الأبناء.

فكذا نرى أنّ المرأة المغاربيّة منذ وصولها إلى أرض المهجر تتبادل أوضاعها، وتنتقل من السلبية إلى الإيجابية، وذلك بابتعادها عن المجموعة التي تتحكّم في مصير العائلة بالرغم منها، ويصبح لرأيها وزن في رعاية الأسرة، وتبدأ حياة عائلية جديدة تختلف عمّا ألفته من قبل، وتكتسب مكانة هامّة في تربية أولادها الذين يتعرّضون إلى غرور البيئة الثّالثة، وإلى تغيرات حضاريّة قاهرة.

ومن الممكن تقسيم المهاجرات إلى صنفين:

1- **أولهما**: اللّواتي لم تسنح لهنّ فرصة التعليم بتاتاً، واللّواتي يجدن أنفسهنّ أمام حاجز لغوي ضخم يمنعهنّ منعاً بّاتاً من الاندماج مع أهل البلد فيمكثن في بيوتهنّ، ولا يكون لهن قيمة فيها.

2- **ثانيهما**: المجموعة التي سبق أن حصلت على نصيب ما من الثّقافة الفرنسيّة، ولديها استعداد للانفتاح على المجتمع الجديد. إن هذه المجموعة تتأقلم بسرعة، وأحياناً بدرجة أفضل من الرجل، وذلك لأسباب يمكن تفسيرها بما يلي:

أ- هناك تفهم وتعاطف كبير بين المرأة المغاربيّة والمرأة الفرنسيّة، وهذا يرجع إلى ترابط الجنس النسائي بصفة عامة. وهذا العامل من شأنه أن يوطد العلاقات ما بين الجانبين، ويسهّل التّعامل بين الجارتين (الفرنسيّة والمغاربيّة) في مجال تربية الأطفال والاهتمام بالشّؤون المنزلية، وبما أن المرأة المغاربية لا تعمل خارج منزلها حين وصولها إلى فرنسا، فإنّ المرأة الفرنسية تجد فيها عوناً على رعاية أبنائها أثناء غيابها في عملها.

ب- إن أغلب المؤسسات الاجتماعيّة التي تهتمّ بالمهاجرين توظف مجموعات كبيرة من النّساء، وتضعهنّ في مراكز قيادية، فهنّ كمرشدات اجتماعيّات(وقلّ أن يسند هذا الصّنف من العمل إلى الذكور) يساعدن المهاجرات على تفهّم الحقوق والواجبات والمسؤوليات بصفة عامة، وذلك في إطار القوانين السائدة، مما يجعل الاندماج والتّعاطف أكثر سهولة، فهنّ كثيراً ما يتنّقلن بحكم شغلهنّ من بيت إلى آخر في الأحياء الشعبيّة، ويطرقن أبواب البيوت بغية التّعرّف على ساكنيها، وظروف عيشهم، ويجدن النسوة فيختلين بهنّ في غياب أزواجهنّ، فيقمن بشحنهنّ معنويّاً وتعريفهنّ بأدنى تفاصيل حقوقهن من منح اجتماعيّة، وحقوق في الصّحّة، والتّطبّب، ومن تسهيلات وأموال سخيّة تصرف لهنّ إبّان حملهنّ في بلدان تشكو نقصاً حاداً في مجال الولادات والإنجاب وتجدّد الأجيال.

ونتيجة لهذه العوامل تصبح المرأة المغاربيّة عادة محور اهتمام بالغ لأطفالها، ولاستقرار عائلتها ،لاسيّما إذا كبروا، فإنّهم يصبحون عوناً لهنّ على حساب ذاك الأب الكادح المتعب المضنى الّذي يرجع ليلاً إلى بيته لينام هكذا....

ولهذا تصبح أقل تعرّضاً من الرجل للانعكاسات الاجتماعيّة الناتجة عن التغيّرات الحضارية السائدة في البيئة الفرنسيّة، ومع هذا فإن الأمراض النّفسيّة الأكثر انتشاراً عندها هي التحولات الهستيرية التي تأخذ صبغة التّشنّجات العصبية، والشّلل النصفي، والصداع، إضافة إلى بعض حالات الاكتئاب الانفعالي، ومحاولات الانتحار الموهمة.

❖ الحالة المرضيّة التي تلازم المهاجر عند عودته إلى أرض الوطن

1- المهاجر وطوارئ العمل:

إنّ لطوارئ العمل صدى كبيراً على نفسية المهاجر، وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقاً. نخصّ بالذّكر منها ارتجاج الدماغ Head injuries لما له من تأثير على النواحي النّفسيّة والعصبية، مثل الشّقيقة، ونوبات الصرع، واضطرابات الاّتزان والنوم والذاكرة والسلوك والعاطفة وحالات الاكتئاب والهلاوس السمعية والبصرية الحادّة التي تحدث بعد ارتجاجات الدماغ مباشرة. إنّ هذه الإصابات تأخذ صورة مجسّمة عند المهاجر، حتى ولو كان الحادث طفيفاً، لما للرأس عنده من رموز ودلائل لاشعوريّة. إذ بسلامة الرأس يحتفظ الجسم باتزانه وكماله، وأيّة إصابة تمس الرأس تمثّل كارثة عظيمة.

وعادة ما يبعث هذا الحادث لعرض المشاكل اللاشعوريّة الّتي كانت تطغى على الذات، ولم تظهر بعد، فيصبح حادث العمل معبراً عن كل الأزمات التي اجتاحت المهاجر من قبل. وهكذا، فعندما يدخل المصاب إلى المستشفى يحظى لأوّل مرّة برعاية طاقم التّمريض، وأغلبهم من الأنثيات الممرّضات عادة، والأطباء الذين يمثّلون في نظره إطاراً هامّاً (لم يكن ليطله لولا المرض) ذا سلطة ونفوذ في المجتمع الّذي سلب منه شخصيته وذاتيته، ومن هنا نجد مجموعة من المرضى يتحولون إلى مرضى مزمنين ملازمين للمشافي، حيث يتوّافر لهم المأكل الحسن المختار والمأوى والتدفئة (في هذه الرّبوع الّتي فقد فيها دفء العلاقات الاجتماعيّة) والشعور بالكرامة، ويعترف إلى حدّ بعيد بأنهم بشر يحقّ لهم الحصول على الرعاية والاهتمام.

وهناك ثلاثة أسباب للعودة إلى الوطن:

❖ بالّترحيل الصحّي.

❖ بالعودة الطوعية.

❖ بالطرد من قبل السلطات المحلّيّة.

ففي بعض الأحيان، وما إن يصل المهاجر إلى وطنه، ويجتمع إلى أفراد أسرته، حتى يشفى من جميع الأعراض التي كان يشكو منها أثناء غربته، ولكنّ الأمر لا يكون دائماً هكذا، فقد تبقى الأعراض، ويستلزم الأمر دخوله إلى المستشفى في بلده، ولو لفترة وجيزة، وقد تزيد وتنقلب الأوضاع ويضطرب المآل. ومهما يكن من أمر فينصح المريض عادة بعدم السفر إلى الخارج مرة أخرى، وقد يمنع من ذلك بتاتاً، مع ملاحظة أن المؤسسات المسؤولة كفيلة بمساعدته على الاستقرار في بلده. وقد بيّن الحكيمان الحبيب اللاجري ومحمّد العّنابي أن الانتكاس يكون نادراً خلال الثّلاث سنوات التي تتبع عودته إلى الوطن.

2- العلاج:

يوصى بإتباع سياسة خاصة لمعالجة المريض المهاجر:

أولاً: يجب إقناعه بمراجعة الطبيب المختص ولو كانت شكواه في ظاهرها بدنيّة عضويّة. ويجب إجراء جميع الّتحاليل الضروريّة له، والاهتمام بجلّ النواحي الاجتماعية والنّفسيّة

والجسمية في نطاق عمل شامل يقوم به فريق من الأطباء ويفضل أن يكون هذا الفريق منسجماً ومتعاوناً ويعمل في المركز الطبي نفسه.

ففي أغلب الأمراض النفسجسديّة، والأعراض النّفسيّة التي تتلو إصابات العمل العضوية، تتركّز شكوى المريض ظاهريّاً على مخلّفات الإصابة العضوية أوّلاً، وبالذات، ولكن الواقع يتجلّى بالانجراح النّرجسيّ السابق، إذ أ ن أغلبية المرضى لا يرغبون في التّعويض المالي، بل يطالبون باسترجاع صحتهم التّامّة، كما كانت قبل الحادث، ويبدو لنا من مطلبهم هذا أنّهم يطالبون بطريقة غير مباشرة بحقّهم في الاندماج الكامل مع السّكان الأصليين، اعتقاداً م نهم أن هذا هو ثمن إصابتهم وعربون معافاتهم.

أمّا في نطاق العلاج النّفسيّ، فأوّل ما يجب الاهتمام به هو رفع معنويّات المهاجر وإعطائه الطّمأنينة الكاملة، وذلك بإرجاع القيمة الحقيقيّة لجسده، والتّركيز على مقومات شخصيّته وأصالته. ونتساءل هل من الأفضل تكليف طبيب مغاربيّ عربيّ أو طبيب فرنسيّ للإشراف على العلاج؟

إن صورة الطّبيب الأجنبيّ في تفكير المهاجر هي صورة مغالى فيها، باعتباره يرتبط بسلطة هامة في مجتمعه، وتكليف طبيب مغاربيّ، أو عربيّ، لمعالجته قد يعتبر بنظره رفضاً واستبعاداً من المجتمع الفرنسي.

ومهما يكن الأمر، فإنّ عامل اللّغة وال ثّقافة المشتركة والمناخ العاطفي يجعل الطبيب المغاربيّ العربيّ أفضل من غيره في هذا المجال.

أما في العلاج الدوائي، فتستعمل الأدوية المعروفة، ولكنّ تأثير بعض الأدوية- كما لوحظ مؤخراً – يختلف من مريض إلى آخر، فالاستجابة البيولوجيّة للدواء تختلف عند بعض المهاجرين المغاربة عنها عند المريض الفرنسي، أو الأجانب الآخرين، وقد يكون السبب في ذلك بعض العوامل البيولوجية كنوعيّة الغذاء وتوقيته والنّوم.

أمّا مسألة الترحيل الصحي إلى الوطن، فإن العودة ذاتها في ظل الظروف تعتبر هروباً نحو نزع المسؤوليات من المهاجر، وخضوعاً منه واستسلاماً للإخفاق والهزيمة في آخر الأمر.

وغالباً ما يرفض المهاجر الرجوع إلى ذويه مريضاً، لأنّ في ذلك دليلاً على أ نه لم يقم بمأموريّته المقدّسة، وأن عودته فاشلاً تحطّ من كرامته وشرفه، مع أنّ التّرحيل الصّحيّ يعتبر في معظم الحالات أحسن ضمان لسرعة الشّفاء.

❖ طرق الوقاية ومحاولات تفادي العقبات النّفسيّة الناجمة عن الهجرة:

إنّ جملة القضايا التي تطرحها الهجرة ليست قضايا مزمنة، إذ يمكن معالجتها، فتزول عن المهاجر أسباب معاناته النّفسيّة. ويتحقّق ذلك بالقضاء على العزلة التي تحيط بالمهاجرين، وربطهم بالواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وهذا لا يمكن تحقيقه إلّا بربط الصّلة مع النقابات والمجتمع المدني الأوروبي المساند الفعلي للمهاجرين، وكذلك بربط علاقات مع جميع التنظيمات الدّيموقراطيّة والإنسانية بشكل عام، وتحسيس الرّأي العام الأوروبي بأهميّة

مناصرة قضايا المهاجرين، وذلك من خلال وسائل الإعلام... وسننظر في طرق الوقاية، الواحدة تلو الأخرى، لمحاولة الإحاطة بموضوع الهجرة والأساليب الناجعة للوقاية، وتفادي العقبات النّفسيّة النّاجمة عن الهجرة:

1- ترتيب شروط وظروف النّزوح بمزيد من التنسيق والفاعليّة. ولقد اهتمت بلدان المغرب العربي بهذا الموضوع منذ عدّة سنوات، فأنشأت عدّة مكاتب ودواوين مختصة بالعمّال المسافرين إلى الخارج، ولكّنها لا تزال غير كافية، ويجب أن تّتسع شموليتها وتزداد إمكانياتها.

2- يجب إجراء فحص نفساني شامل للمهاجر لكي يعرف الضّعيف الذي يمكن أن يصبح فريسة للمرض في دار الغربة.

3- تكوين المهاجرين تكويناً مهنيّاً وثقافيّاً، وإطلاعهم على تقاليد وعادات بلد الهجرة، حتى لا يغامر من لا يجد في نفسه قابلية للّتأقلم.

4- توطيد الصلة بين المهاجرين، وبين وطنهم الأصلي، وأهلهم.

5- الإكثار من المراكز الثقافية والترفيهية والدّينيّة في أرض المهجر.

6- يجب إيجاد تفاهم بين الحكومات المغاربيّة وحكومات ربوع الهجرة لزيادة فاعلية صناديق الضمان الاجتماعي، والّتنسيق بين هذه الصّناديق في بلد المهجر، وفي الوطن الأم. وإيجاد تسهيلات جمركية لهم في وطنهم تسهّل لهم العودة في نهاية المطاف.

7- ويجب الاهتمام بالأجيال الناشئة، وتعليمهم اللّغة العربيّة، وإطلاعهم على تقاليد وعادات بلدانهم، حتى لا تشّكل عودتهم إلى أوطانهم صدمة لهم ولأهلهم. ويجب عند عودتهم تسهيل إدماجهم في المدارس القومية، لكي يتمّكنوا من متابعة مسيرتهم التعليميّة بصورة طبيعيّة.

8- تنظيم مقابلات وإقامة مؤتمرات للمهاجرين ت شرح فيها الأوضاع في أوطانهم، لكي يلموا بالّ تقدم الذي حصل فيها خلال فترة غيابهم عنها، ويؤكّد لهم استعداد حكوماتهم لاحتضانهم عند عودتهم وتوفير المكانة المناسبة لهم.

9- يجب تشجيعهم على تعّلم وإتقان المهن غير المتوافرة في أوطانهم، لكي يتمّ كنوا عند عودتهم النهائيّة من إقامة المشاريع النافعة لبلدهم، وخاصّة ما يتعّلق منها بالمشاريع الزراعيّة والّتقنيات الحديثة.

❖ من وحي الهجرة

تعدّ ظاهرة الهجرة قديمة قدم الجنس البشري، حيث ارتبطت بوجوده وبحاجاته الأوّليّة، وليست هناك منطقة في العالم لم تعرف هذه الظاهرة، فهي إذا ظاهرة عالميّة أنتجتها الاختلالات العميقة وعدم التكافؤ في مستوى العيش، لذا فإنها استرعت – ولا تزال تسترعي – انتباه المتخصّصين في مختلف مجالات الدّراسات الإنسانيّة، وبوجه خاصّ الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس، نظراً لما يتولّد عنها من أوضاع ومشكلات تؤّثر في المجتمع الذي خرجت منه، والمجتمع الذي انتهت إليه على حدّ السّواء.

والسّجلّ التّاريخي لهذه الظّاهرة كشف عن أطراد الحركات البشرية، وتزايدها، واتساع مجالاتها، وشيوعها، على المستوى العالمي، أمّا الآن فقد أصبحت هذه التحركات تتمّ على نطاق أوسع بكثير مما كان يحدث في الماضي، وأصبحت تضمّ كل أصناف الجنس البشري، مهما اختلفت مستوياتهم الثقافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، ومهما تباينت أعمارهم وجنسياتهم، وساعد على ازدياد هذه الحركات ظهور مناطق جديدة للجذب السكاني تتيح فرصاً طيبة للعمل، والنجاح وتحقيق الذات، والتخلص – ولو إلى حين – من قسوة الظروف المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية في الوطن الأم. كما تتيح الحياة المستقرّة – ولو بقدر ضئيل – في الوطن الجديد، رغم كل ما قد يحيط بهذه الحياة من صراع وكفاح وإحباط ونجاح أو فشل وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة، أو عجز عن التأقلم، بل ومن رغبة المجتمع الجديد نفسه في استيعاب الوافدين الجدد، وتقييد حركتهم، ووضع العوائق والعراقيل والقوانين التي تحول دون اندماجهم فيه. الأمر الّذي قد يدفعهم أو يدفع ببعضهم إلى العودة إلى مجتمع الأصل والبداية.

وكلّ الذي ذكرنا من شأنه أن يحدد حوافز البحث في هذه الظاهرة من خلال تناولها من حيث أبعادها النفسية والاقتصادية والقانونية والثقافية في مختلف المجتمعات والثقافات.

ولئن كانت الهجرات السّكانية قديماً تتمّ في الغالب بشكل جماعي نتيجة العجز عن التحدّي لبعض العوامل والقوى القاهرة، سواء كانت هذه العوامل أو القوى طبيعية أو بشرية، فإنّ النمط الغالب الآن على الهجرة هو النمط الفردي. وعلى الرغم من أنّ الكثير من الهجرات الحديثة تتم تحت ظروف قاسية يصعب تذليلها أو التكيف معها. فإنّ الأفراد حسب ما تبينه المعطيات الميدانية في مجال الهجرة المشروعة يحددون في أغلب أهدافهم، ويتخيرون الزمان والمكان المناسبين لتنفيذ ما استقرّ عليه رأيهم، والأغلب أيضاً أنهم يعرفون مقدّماً الشيء الكثير عن المكان الذي سوف يذهبون إليه، وأوضاعه وظروفه ومقومات الحياة فيه، ويعدّون لهذه الهجرة إعداداً كافياً، ويذهبون على أمل الإقامة هناك لفترات طويلة، وأحياناً إلى أن ينتهي بهم العمر. وإن كان البعض يخطط أيضا منذ البداية إلى الرجوع إلى الوطن الأصلي بعد أن تزول الظروف والعوامل المناوئة، أو بعد تحقيق الأهداف التي رسموها لأنفسهم منذ البداية.

وبخصوص مسألة العودة يلاحظ أندريه جاك ANDRE JACQUES في معرض حديثه عن المهاجرين واللاجئين في عدّة مناطق من العالم أنّ هؤلاء يحملون هاجس العودة إلى الوطن الأصلي، مهما طال بهم الزمن في الوطن الجديد، وأنّ أعداداً كبيرة منهم يفلحون في تحقيق ذلك، بعد أن يكونوا قد حقّقوا أهدافهم، من الهجرة أو نتيجة لتغير الظروف في المجتمع الأم، وزوال الأسباب و العوامل التي دفعتهم في الأصل إلى الهجرة، أو لعدم رغبة المجتمع المضيف في الاحتفاظ بهم نتيجة لبعض الأزمات الاقتصادية التي يعاني منها، أو بعد أن يكون قد استنفذ هو نفسه أغراضه منهم.

إلّا أن هـذه العـودة لا تتـمّ دون بـروز مشـاكل اجتماعيـة واقتصاديـة وسياسـية، نتيجـة للفروقات الاقتصادية التي تحدث بين المجتمع الأصلي، والمهاجرين من مجتمعات تختلف في مستوى المعيشة، وفي سلوكياتها، وقيمها الاجتماعية، وأنماطها الاستهلاكية.

والهجرة ظاهرة متشابكة الجوانب تفـرز متغـيرات ذات دلالات وخصوصيـات اجتماعيـة وثقافية واقتصادية، لذا تمّ تناولها بوجوه متعدّدة، حيث تمّ النظر إليها على أنها وسيلة لتحقيق التوازن السكاني بين الوحدات الجغرافيّة المختلفة.

وتفترض هذه المقاربة أن الهجرة تساعد على تخفيف الضغط السكاني مقابل تلبية حاجة الوحدات الجغرافيّة الأكيدة إلى الأيدي العاملة، وبهذا فإنّ الهجرة تساعد على إعادة التوازن بين الفائض والحاجة في مجال الطاقة البشرية. كما تمّ النظر إليها من وجهة تجارية تفترض أنّ التجارة والهجرة يساهمان في دخول الدّولتين، أو الدّول المعنية، بهما في تعاون بطريقة غير مباشرة، ذلك أن الدّولتين غير المتكافئتين في الإمكانيّات والسّعة الإنتاجيّة بإمكانهما الاستفادة من التّبادل الثّنائي لإمكانيّاتهم المتاحة.

وتمّ تناولها فـي الجـانب الاقتصـادي مـن حيث عوائدهـا الإيجابيـة علـى قطبـي عمليّـة الهجرة: الدّول المصدّرة والدّول المستقبلة كما يقول رس. رست 'R.C.RIST' -الّذي يقول في هذا الصّدد ' إنه لوضع لا يوجد فيه أيّ خاسـر، فالمهاجر في انتقاله لدولة أخرى يتلّقى' علاوة على الأجر العالي – التّدريب الفّني والمهني الذي من شأنه أن يساهم في ما بعد في عمليّة التّنمية في دولة المنشأ. أمّا الدّول المستقبلة، فإنها باستقبالها لقوّة العمل الوافدة تحصل على عمالة لم تتحمّل في شأنها أي تكاليف تذكر.'

وفـي هـذا السياق يـرى أصحـاب هـذا التوجّه أنّ الهجرة ذات تـأثير إيجـابي علـى أسـواق العمل في الـدّول المصدّرة للعمالـة، وذلـك مـن خـلال امتصـاص الفـائض مـن الأيـدي العاملـة، والإسهام في هذه السوق. وتذهب ' لوتز(V.LUTZ) ' إلى أنّ ' الهجرة العمّالية لغرب أوروبا شرط أساسي لأيّ توسّع صناعي لدول جنوب أوروبا المرسلة للعمالة، فإزاحة الفائض السّكاني هنا سيساهم في رفع معدّلات الدّخل التي بدورها ستساهم في زيـادة الطّلب علـى السّلع المصّنعة '.

إلى جانب ذلك، فإنّ التّحويلات النّقديّة من المهاجرين لذويهم في أوروبا تعدّ – من وجهة النظر هذه – إحدى أهمّ ميزات الهجرة لدول الغرب. وقد علّق أحد تقارير منظمة التنمية والتعـاون الاقتصـادي الأوروبيّـة علـى هـذه الظـاهرة بـالقول ' أمّـا فـي الـدّول المغاربيـة، فـإنّ التحويلات النقدية للمغتربين من المغاربة تعتبر إحدى أهمّ مصادر ميزان المدفوعات، وكذلك في تمويل التنمية '.

وعلى العموم فإنّ وجهات نظر الجهات المؤيدة لعملية الهجرة على الرغم من أهميتها في تفسير الظاهرة، فإنها لم تعزّز مقاربتها بمعطيات ميدانية، وشواهد تسمح بالتعميم، وتأكيد الفرضيـات التـي انطلقـت منـها، بـل اعتمـدت علـى متغـيرات فرديـة منسـلخة عـن سـياقها الاجتماعي والاقتصادي الذي اشتقت منه.

واعتماد هذه الجهات على محكات اقتصادية، دون اكتراث بالنظم والأنساق الاجتماعية الأخرى، يجعل مقاربتها تنأى عن الجدول النسقي وتفاعلاته، وتسقط في التجزيئية. فالعوامل الاقتصادية على الرغم من الدور الأساسي الذي تضطلع به في بروز ظاهرة الهجرة، إلا أن هذا الدور يكون أكثر وضوحا وجلاء حينما تدرس هذه العوامل ضمن البناء الاجتماعي الكلي، وفي علاقتها المتشابكة التي تؤلف ذلك البناء.

وتعود ظاهرة الهجرة في المغرب العربي إلى التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها دوله خلال فترة الاستعمار، فعلى اثر سيطرة المستعمرين على أجود الأراضي الفلاحية في البادية، تحولت مجموعة من الفلاحين إلى عمال مهاجرين شكلوا الدفعة الأولى في إطار الهجرة الداخلية نحو المدن الكبرى، التي تحولت بدورها إلى مصدر للهجرة نحو أوروبا. ومما ساعد المغاربة على هذه الوجهة القرب الجغرافي من جهة، واحتكاكهم بالأوروبيين، واكتسابهم لغتهم أثناء فترة الاستعمار من جهة أخرى، ثم حاجة الدول الغربية إلى اليد العاملة لسد احتياجات الحرب العالمية الثانية، وما نتج عنها من اختلالات ديموغرافية دفعتها إلى فتح حدودها على مصراعيها، داعية إليها العمال من بلدان المغرب العربي، فكانت تلك انطلاقة الهجرة الجماعية نحو دول أوروبا. وكانت هذه الهجرة تتجه أساسا نحو فرنسا، ومنذ الستينات تحولت نحو بلجيكيا وهولندا وألمانيا، ثم أخذت منذ السبعينات والثمانينات تتجه نحو إيطاليا وإسبانيا. ويمكن إجمال الفترات التي مرت بها الهجرة في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: 1956 -1968 تميزت بوضع الإطار المؤسساتي لتنظيم الهجرة مع الدول الأوروبية، وخاصة فرنسا وألمانيا.

المرحلة الثانية: 1969-1974 وهي المرحلة التي عرفت هجرة مكثفة وموسعة نحو أوروبا الغربية.

مرحلة ما بعد 1975: عرفت هذه المرحلة تحولا كبيرا في المد الهجري، إذ صادفت بداية الأزمة الاقتصادية بسبب الصدمة البترولية التي تعرضت لها الدول الأوروبية. الأمر الذي جعلها تعدل قوانينها في ما يخص موضوع الهجرة، بفعل ما أصبحت تعانيه من جراء تلك الصدمة من بطالة وارتفاع طلب سكانها على العمل، ووعيها بتحول الهجرة من ظاهرة مؤقتة إلى ظاهرة دائمة. لذلك أغلقت حدودها في وجه العمال الأجانب، وتدفق المهاجرين، بل وظهرت مسألة الهجرة المعاكسة. ففرنسا التي اتخذت قرارا بوقف الهجرة عام 1974 قادت حملة ضد المهاجرين المغاربة ذات شقين: الشق الأول هو تضييق الخناق على المهاجرين المغاربة، والشق الثاني ترغيب العمال الفرنسيين في الانخراط في المهن التي يشغلها المغاربة، والتي كان يرفضها الأوروبيون. وقد شكلت هذه الإجراءات الدافع لهجرة معاكسة قسرية تحكمت فيها عوامل الطرد، إذ بلغ الصراع بين العمالة الأوروبية والمغاربية حد استخدام العنف ضد المغاربة، وأصبح المهاجرون غير مرغوب فيهم، خاصة بعد سن قوانين تحد من الهجرة المغاربية، وتعمل من أجل التخلص منها.

وهجرة اليد العاملة المغاربية نحو أوروبا لم تكن تشكل مخرجاً على مستوى الأفراد فقط، بل على مستوى الدّولة أيضاً، ذلك أن الهجرة في هذا المستوى الأخير تمثل حلاً جزئياً على الأقل لمعضلة البطالة، والمشاكل الناجمة عنها، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية. كما تعني مصدراً آخر لجلب العملة الصعبة، والحصول على تحويلات تساعد في تمويل الواردات، وسدّ العجز في ميزانيات المدفوعات، أوفي إقامة مشاريع استثمارية جديدة، أوفي تسديد الديون.

خلال أواسط السبعينات اتّخذت الهجرة المغاربيّة مساراً جديداً، وذلك بدخول سياسة التجمع العائلي حيز التنفيذ، وهي السياسة التي سمحت لأعضاء الجالية المغاربية في الخارج باستخدام عائلاتهم داخل البلدان المضيفة، وهو العنصر الذي أفرز معطى جديداً تمثل في تحول الهجرة من ظاهرة ظرفية تشمل الأفراد فقط إلى عملية استقرار دائمة، أو شبه دائمة، صحبة أفراد العائلة، وترّتب على ذلك بروز مشاكل اندماج العائلات المغاربية في الأوساط الأوروبيّة، بفعل تعارض بعض العناصر الثقافية والاجتماعية بين مجتمعها الأصلي ومجتمع البلد المضيف، وهكذا أضحى الاندماج هاجساً، يؤرّق بال جميع أجيال الهجرة، وبالخصوص الجيل الثاني والثالث، وأصبح الشبان الذين نشؤوا في الهجرة يتجاذبهم عالمان: عالم العائلة (الثقافة الأصلية) وعالم الممارسات الاجتماعية والثقافية للمجتمع الأوروبي، وبالتالي أصبحوا يعايشون نمطين من الثقافة، مما ولد عندهم ازدواجية في السلوك، وبالتالي صراعاً نفسياً بين الهوية والوطنية الأصلية ومقتضيات الحياة العامّة في أوروبا. وهكذا غدا جيل الشباب في المهجر مشدوداً إلى تيّارين متعاكسين طبعا حياته بالتمزق والانفصام والارتباك في تحديد المعالم الأساسية لبناء صورة ذاتية متجانسة ومتوافقة، مما أدّى به إلى الوقوع في حالات الرّفض التي غالباً ما تواكب سنّ المراهقة، والتي تّتخذ عنده شكل رفض مزدوج، سواء للثّقافة الأصليّة، أو لثقافة البلد المستقبل. وهذا الأمر يتمّ التّعبير عنه في كثير من الحالات بأشكال مختلفة من العنف أومن السّلوكيات الجانحة، ولهذا نلاحظ أنّ هذا الجيل، خاصّة الثّالث منه، يجد صعوبة في التّأقلم والتكيّف، سواء في البلد المستقبل، أوفي البلد الأصلي.

وقد كانت الهجرة بالنّسبة للمغاربة تصب دائماً في اتجاه أوروبا، لكن مع تشديد سياسة الهجرة في أوروبا، وإصرار الدّول الأوروبيّة على قرارها الإبقاء على إغلاق حدودها في وجه طالبي العمل من المهاجرين، حاولت الدّول المغاربية تصدير اليد العاملة إلى الدّول البترولية العربية.

ونتيجة لتشديد قوانين الهجرة، وتزايد معدلات البطالة في بلدان الحوض الجنوبي للمتوسط، ظهرت أشكال جديدة من الهجرة تسربت بأقنعة مختلفة: منها الهجرة الموسمية، حيث يذهب العامل إلى أوروبا بصفته سائحاً بتصريح إقامة مدّته ثلاثة أشهر، ثمّ يعمل هناك في المجال الزراعي، ويعود قبل نهاية مدّة الإقامة المسموح بها ليفكر من جديد في طلب تصريح آخر. ومنها أيضاً الهجرة عن طريق الزواج بالأجنبيات. وقد شاعت هذه الظاهرة في صفوف الشباب لتأمين ظروف الإقامة والعمل في المهجر. وقد يتمّ هذا الزواج بشكل صوري

على أساس تبادل المصلحة، أي المال مقابل القبول الصوري بالزواج، والقيام بالإجراءات الإدارية التي تسمح بالتحاق الزوج بزوجته. وهنا تتحول الزوجة الأجنبية إلى مجرّد " بطاقة للإقامة" أو" تأشيرة". وبذلك أصبح هذا الشكل من الزواج –الذي أطلق عليه الزواج الأبيض – وسيلة للهروب من وضع أسود، وصفقة بين شخصين لكلّ واحد منهما مصالحه: الزوج يحقق عن طريقه عبوره، أمّا الزوجة التي تكون عادة عجوز في الستين، أو أكثر، ترى في ذلك الشاب وسيلة للّذة التي فقدتها مع بني وطنها، وتعتبر أن معاشرته سترجعها سنوات عديدة خلت، فهي تسترجع معه شبابها. وقد تكوّن هذه الزّيجة دخلاً ماليّاً لها (غير مصرّح به لإدارة الأداءات والضرائب العامّة).

وقد أصبح لهذا النوع من الزواج سماسرة ووسطاء يعملون في مواسم معيّنة، حسب العرض والطلب، غايتهم استيراد زوجات أجنبيّات بغرض تصدير مهاجرين، وذلك في شكل صورة قانونية، إذ كل شيء بمقابل، وستعمّ الفائدة على السمسار، والزوج والزوجة. كما أنّ هذا الزواج قد يتمّ بصورة حقيقية، وفي كلتا الحالتين تفتح فجوة في الأبواب الموصدة للهجرة نحو أوروبا.

وفي ضوء هذه التحولات التي عرفتها قوانين الهجرة، والأشكال الجديدة التي اتخذتها للتحايل على هذه القوانين بدأ التفكير في ممارسات جديدة لحلّ معضلة الهجرة، والحدّ من آثارها السلبية، وذلك من خلال إيجاد صيغ عمل مشتركة بين دول الاتحاد الأوروبي ودول شمال أفريقيا، تضمن التحكم في عوامل الطرد الحافزة على الهجرة، خاصة بعد ما تبيّنت الدّول الأوروبيّة المخاطر التي تهدّدها في العيش في محيط تتجلّى فيه الاختلافات السّكانية والاقتصاديّة، الأمر الذي دفعها إلى ضرورة التّعجيل بطرح قضيّة الهجرة الطرح الصّحيح، أي طرحها من منظور التّنمية. ومفاد هذا الطرح وجوب مساهمة بلدان الشّمال في تنمية بلدان الجنوب، وانفتاح هذه وتلك انفتاحاً اقتصاديّاً على بعضها، بما يعود بالفائدة على الطّرفين والتشجيع على الاستثمار، ومن شأن تلك الإجراءات أن تعيد التوازن، وتقلص بالتالي من دوافع الهجرة وإغراءاتها.

والواقع أن التفكير من هذا المنظور لم يتوّقف منذ سنوات السبعينات، لكنه يعطي في الغالب انطباعاً بأنه ضرب من التبرير تأتيه بلدان الاتحاد الأوروبي لتسويغ قرارها بوقف تدفق المهاجرين من جانب واحد. وتلوح في السنوات الأخيرة سياسة بديلة لمعالجة ظاهرة الهجرة، تقوم على مزيد من التعاون والشراكة الاقتصادية بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب، لكن لا تزال تلك السياسة محتشمة ومتعثرة، الأمر الذي جعل مجالات الهجرة تعرف تفاعلات جديدة، كان من أبرز نتائجها الهجرة الغير شرعية التي راكمت المهاجرين السريين في أوروبا. وعلى الرغم من وعورة المسالك المؤدية إليها، وخطورة الوسائل المستخدمة لبلوغها، فقد تنامت هذه الهجرة حتى غدت ظاهرة لفتت أنظار الرأي العام العالمي، ومنظمات حقوق الإنسان، والمنظمات الإنسانية والمجتمع المدني بصفة عامّة، وباتت تؤرّق جفون الحكومات المعنيّة بها

بسبب ما ينجم عنها من حوادث ومآسٍ إنسانية، وما يتولّد عنها من تنامي المدّ العنصري في أوروبا، ومن استصدار قوانين جديدة مجحفة في ما يخصّ حقوق المهاجرين.

❖ الخاتمة:

يتعرّض بحثنا لدراسة وضع المهاجر المغاربي في فرنسا، ذلك المهاجر الّذي ينحدر من بيئة ريفية تقليديّة محافظة، وينتقل إلى بيئة غربيّة ذات قيم ثقافيّة وأخلاقيّة وحضاريّة مختلفة عمّا عهده في بلده. وتكون هذه القيم بالنّسبة له متقدّمة ومنبوذة في بعض الأحيان من لدنه. ومنذ وصول المهاجر إلى موطنه الجديد، يشعر بالعزلة، رغم وجود مواطنين له سبقوه إلى هذه الربوع، ذلك لأنّ الحواجز الثقافية واللّغوية والدينيّة، إضافة إلى انعدام الكفاءة المهنيّة اللّازمة، قد تقيم جداراً فاصلاً بينه وبين المحيط الجديد.

فعليه ،إذن، إمّا أن يندمج اندماجاً تامّاً في هذه البيئة الجديدة، وهكذا يفقد ذاته وشخصيته الأصليّة، وانتماءه للأرض الأم، وهذا أمر غير سهل، وإمّا أن يصطدم بالأوضاع الجديدة، ويسعى إلى التكيف معها بصفة من الصّفات، وفي حدود احترم ذاتيته وكيانه.

ولا شكّ أن صحّة المهاجر الجسدية تمثّل الأساس لنجاحه في عمله، فإذا أصيب الجسم بأي ضرر تفاقمت المضاعفات إلى أقصى حدّ، حتّى تشمل كيانه الكامل، بما في ذلك اتّزانه النّفسانيّ، وحتى مداركه العقلية أحياناً. وعلى العكس من ذلك فإنّ الصدمات النّفسيّة والعقبات الوجدانية تتظاهر مباشرة بأعراض جسديّة بتحوّل الانفعالات النّفسيّة إلى شكل جسدي، الأمر الذي يكاد يكون ظاهرة نوعيّة خصوصيّة ومحدّدة Spécifique بالنّسبة للمهاجر.

أمّا الاضطرابات النّفسيّة البحتة فهي تّتصف عادة بالميل للعزلة، والكآبة الانفعالية، والسلوك الجانح، والمنحرف أحياناً، وكذا في مظاهر مراقية وقلقية وهستيرية تّتصف بصفات تميّزها عن غيرها، وكذلك في مسالك هذيانية اضطهادية وسياسية ودينية ووجدانية. وإن الزوجة من جهة أخرى، سواء بقيت بأرض الوطن، أو صاحبت زوجها، تصبح بدورها عرضة للإصابات والّتناقضات، بالرّغم من تعلّقها نسبيّاً بالقيم التّقليديّة والمحافظة عليها أكثر من الرجل.

والمشكل في وضع المهاجرة والتهجّر قد يكون صداه أكثر تعقيداً بالنّسبة للأطفال، سواء كانوا من الجيل الأوّل، أو الثّاني، بالإضافة إلى صعوبة الانسجام مع بقية العائلة، التي مكثت في البلد، وإلى شدّة مشاكل التكيف مع البيئة الأصلية عند الرجوع نهائياً إلى أرض الوطن.

ويتطلب هذا الأمر اتخاذ إجراءات عديدة على كلّ المستويات بمزيد من الدّقة والشّموليّة بين الأوساط المسؤولة في بلد الهجرة وأوساط أرض الوطن. وفي ما يخصّ المؤسسات الصحية عند الإصابة بالمرض يستحسن أن تزداد خدماتها لتعدّ أكثر فاعلية ونجاعة بفضل مزيد من التفاهم، وإرسال فرق طبّيّة مختصّة تعمل بانسجام في البلدين لتخفيف آلام المهاجر، وحلّ مشاكله الوجدانية على أساس نظرة نفسجسديّة شاملة.

❖ الخلاصة:

تتناول هذه المقالة بحث وتحليل الأمراض النّفسيّة التي يتعرّض إليها مهاجرو شمال أفريقيا في الخارج، انطلاقاً من الظّروف الثّقافيّة والاجتماعيّة السائدة في أرض الوطن وأرض المهجر.

ولقد اخترنا فرنسا مثالاً لأرض المهجر على أساس تجربتنا فيها، ولوفرة المهاجرين إليها، وحاولنا تحليل المشاكل النّفسيّة التي تصيب المهاجرين ذكوراً وإناثاً وأطفالاً، وبالتّالي يسعى هذا البحث إلى استنتاج الأساليب العلاجية والوقائية الكفيلة بإصلاح تلك الأوضاع.

* ABSTRACT:

This paper concerns the psychiatric diseases to which the North African migrater may be exposed.

We have choosen France as example of migration country, because of our experience in it and the great density of this emigrance of north African in it.

We have tried to understand the psychological problems and to conclude the treatment and prevention.

RESUME:

Cet article traite des maladies psychiques auxquelles s'expose l'émigré Nord Africain, La France ayant été choisie comme pays
d'émigration en raison de notre expérience dans ce pays et de la forte concentration d'émigrés Nord Africains qui s'y trouvent.

Les conditions psychosociales de l'immigration à la fois dans le pays d'accueil et le pays d'origine sont ici définies, ainsi que la spécificité particulière de certains tableaux psychopathologiques perçus dans une perspective psycho dynamique.

Pour terminer, sont exposées les grandes lignes du traitement et de la prévention.

❖ المصادر والمراجع:

- أمل يوسف الصباح، البيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة الدّولية، مجلّة عالم الفكر، المجلّد السابع، العدد الثاني، يونيو- أغسطس سبتمبر 1986 ص 112

- د. أحمد أبو زيد، الهجرة و' أسطورة العودة'، ص 3- 5 - 146.

- سعد الدين إبراهيم، النظام الاجتماعي الجديد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1982، ص 135

Abbé Pierre.
Une terre et des hommes (1994)

Abbé Pierre.
Fraternité (1999),

Abbé Pierre.
Je voulais être marin, missionnaire ou brigand: carnets intimes et pensées choisies (2002)
AL MEIDA. Z. (de)
Les perturbations mentales chez les migrants. Information psychiatrique 1975 N° 3, pp. 249-281.
ALLOUCH.W.
Nous venons de Tunisie Ed Les copains de la classe – Syros.Paris 1995.
AMMAR. S.
L'émigré – immigré maghrébin et sa famille face au changement et à la maladie in. Les annales médicopsychologiques N° 6 vol.
140 Ed. Masson Paris 1982 pp. 577 à 581 – Bibliographie.
AMMAR. S.
Ethnopsychiatrie et psychiatrie transculturelle- Tunisie Médicale. N° 6 Novembre – Décembre 1975, pp, 315 -330
Andre.J
les racines Réfugies et migrants dans le mande, Editions La découverte, Paris 1985
BERTHEIER. R. Le renard C. GAMMA A. MORTIER D. et HENNE M. Les états dépressifs à expression somatique chez le Nord –
Africain Musulman transplanté. Congrès de Psychiatrie et de neurologie de langue française – Milan. 1970 – T2 – pp. 1829 -
1835.
BERTHELIER. R, VOURGEONE. E, MURTAUD Y.
Psychologie de la transplantation chez le musulman nord africain. Congrès de psychiatrie et de neurologie de langue française-
Tunis. 1972 – pp. 1400-1406.
BEN JELLOUN.T.
Le racisme expliqué à ma fille.Ed Le seuil 1998.
BLANCHARD.P et BANCEL.N
De l'indigéne à l'immigré.Ed Gallimard. Paris 1998.
Boëldieu.J, Borrel.C
" Recensement de la population 1999. La proportion d'immigrés est stable depuis 25 ans ", Insee première, n°748, novembre
2000.
CHAPLIN.CH.
Modern Times –United Artist-
DOLTO-TOLITCH. C
Des amis de touttes les couleurs. Ed Gallimard.Paris 1997.
DUTHEIL.F, FELLNER.H.
Le livre pour dire NON à l'intolérance et au racisme.Ed Bayard Poche.Paris 1998.
DAUMEZON.G.
Transplantation et maladie mentale, Revue du praticien, 1965, N°2, T. 15, pp. 119-137.
DAUMEZON. G. CHAMPION. Y, CHAMPION BASSET. J.

L'incidence psychopathologique sur une population transplantée d'origine nord africaine. Monographie de l'institut national
d'hygiène, 1955, pp. 83-125.
DAUMEZON. G. CHAMPION. Y, CHAMPION BASSET. J.
L'assistance Psychiatrique aux malades mentaux d'origine nord africaine musulmane en métropole. Monographie de l'institut
national d'hygiène 1957, N° 14, 144 pages.
GARAUDY. R
Appel aux vivants (1980)
GHORBAL. M.
Esquisse de la personnalité maghrébine. A propos de la deuxième génération. Mémoire de CES de psychiatrie, 1977, Lyon.
GRANOTIER. B.
Les travailleurs immigrés en France, Maspéro, éd, 1976. 396 pages.
HOUSSET. P. JACQUEMENT J.P. RONE.G.
La pathologie et l'adaptation au travail de la main d'oeuvre étrangère; Revue de praticien, 1965, N° 15, pp. 139 – 153.
HALE. I.
Un amis pour mon ours.Ed Flammarion. Paris 1998.
HOUSSET P. JACQUEMENT J.P. RONNE G RONAT R.
Problème posés par les accidents du travail de la main d'oeuvre étrangère Revue du praticien, 1965, N° 15, pp. 155-163.
JACQUARD A.,PIQUENAL M.,SLOT B.,AOUNIT M., MORGENSTEIN S.,
Le grand livre contre le racisme, avec les textes de la loi condamnant les actes et les propos racistes. Ed Rue du monde. Paris
1999.
Kind leberger.C.P.
Europes Post War Growth: The role of labour Supply Cambridge, Havard University Press, 1967.
LEDJRI. H. ET ANNABI. M.
Les troubles mentaux des émigrants Tunisien à leur retour en Tunisie, tableau clinique. Aspects psychopathologies.
La Tunisie médicale – T 53- N°6- Nov. - Déc. 1975.
LE GUILLANT.L.
Psychopathologie de la transplantions. Concours médical- 1960, N° 82, pp. 3429-3440.

Lutz.V.
Some Structural aspects of the Southern Problem the comglemtarity of emigration and- industerialization.
. Martin.Ph & Richard.A
International Migraton, Mothly labour Review, October, 1980, P.6.
MINISTERE DU TRAVAIL ET DE LA PARTICIPATION
Analyse bibliographe des travaux portant sur les jeunes immigrés de la deuxième génération, 1979, D.P.M, N°1, Place de
Fontenay, 75 700 Paris.

MOUSSAOUI (D).
Psychopathologie des maghrébins migrants en France. Mémoire pour le C.E.S. de psychiatrie Paris – 1978, 103 pages.
MUNOZ.M.C.
Bibliographie analytique sur les jeunes étrangers (immigrés ou fils d'immigrés), 1980, C.I.E.M.M, N° 46, Rue de Montreuil, 75
011 Paris.
NAIR.S
L'immigration expliquée à ma fille (Ed, seuil- Paris 1999).
PELICIER.Y.
A perçus généraux sur la psychologie des transplantés. Concours Médical – 1964, N° 25, pp. 2717 -2723.
POUGET. R. CIRBA. R, CHIARINY. JF, CASTELNAUD. D.
Trouble psychiatrique chez les français musulmans immigrés, Annale médico Psychologiques N° 2, pp, 541 – 561 Ed Masson
Paris 1975.
Psychologie médicale et ripants N° spécial de la revue Psychologie origé par Prof. Agr.
Organization for Economic Co Operation and Developpement, Op Cit, p66.
Rist.R.C.
The European Economic Community (E.E.C). and Manpower Migration on Polices and Prospects, Journal of international Affairs,
Vol. 33, Fall/ Winter, 1979, P.207.
Réunion conjointe de la société Médicopsychologique et de la société maghrébine de psychiatrie thème: Famille et psychiatrie
aspects généraux et incidences sur la pathologie de la transplantation Annale M.P. ed Masson Vol.140 N° 6 Paris 1982.
RUILLER.J.
Homme de couleur.Ed Bilboquet.Paris 1999.
SIMONO.D
L'immigration Ed.Les compacts de l'info-Casterman. Paris 1999.
SKHIRI. T, ANNABI.S, ALLANI.A.
Enfant d'émigrés facteur de lien, ou de rupture. Colloque franco-maghrebin – Paris – Mai 1981. In
Annales Médicopsychologiques N° 6 Vol 140 Ed Masson 1982 pp. 597 à 602.
SCOTTO.J.C , XIII N° 11 Oct. 1981.
TALHA. L
Contribution à l'étude de l'émigration Algérienne. Temps modernes, 1977, 375 Bis, pp. 465 – 494.
THAVE.S.
" L'emploi des immigrés en 1999 ", Insee première, n°717, mai 2000 et le dossier " Politique de l'immigration
TISSERON. S
A propos de l'ambivalence culturelle au cours d'entretiens réguliers avec des Nords Africains immigrés in information
Psychiatrique 1976. N° 52, pp. 27 -44.
WRIGHT.Ch.
Immigrants from rural asia may suffer in silence – The lance: January 31, 1981, pp. 280 -281.

مركز الدراسات النفسية والنفسية - الجسدية

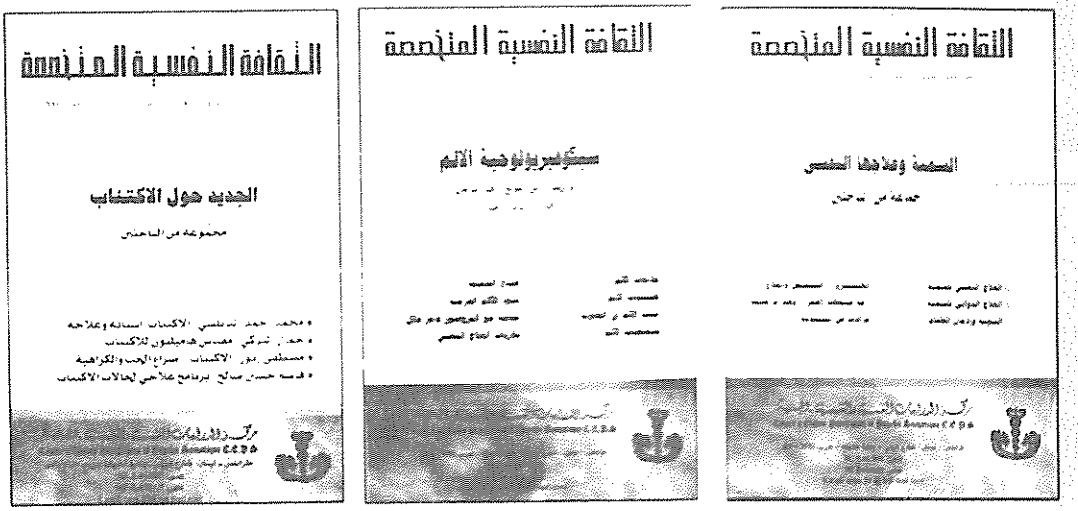

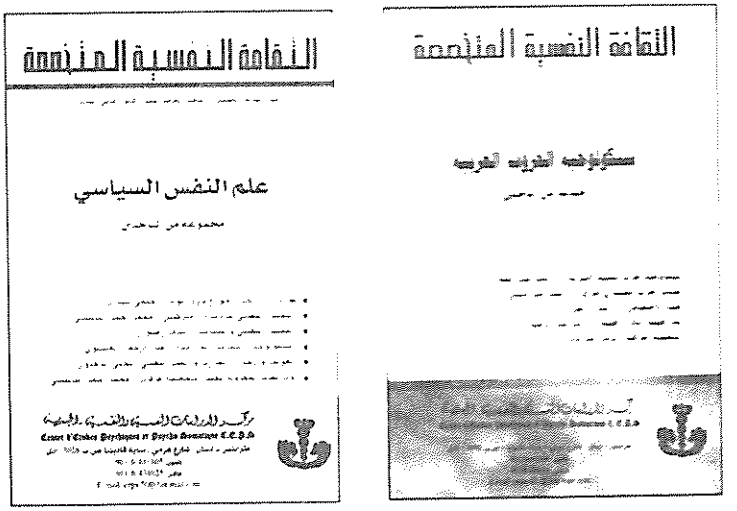

مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية
يدعوكم لزيارة مواقعه على الإنترنت

WWW. FILNAFS. COM
WWW. PSYINTERDISC. COM
WWW. PSYCHIATRE- NABOULSI. COM

إصدارات
مركز الدراسات النفسية

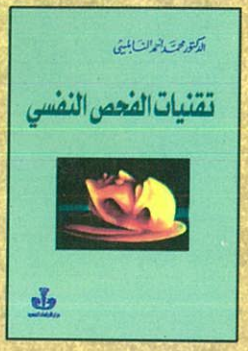

هذا الكتاب موجه للراغبين في تعميق معرفتهم لنفسهم وللآخرين وكذلك فهو موجه للفاحص النفسي، خاصة المبتدئ، بهدف مساعدته على التعرف في العمق إلى أصول الفحص النفسي وإلى مختلف المؤشرات (IndiceS) التي من شأنها المساهمة في وضع تشخيص أكثر دقة وشمولية.

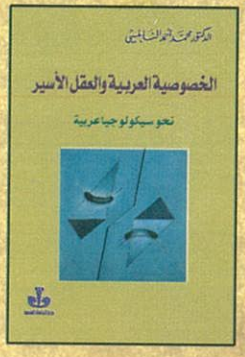

في الخمسينيات من هذا القرن دخلت السيكولوجية كعلم. عالمنا العربي لأول مرة بفضل طموح وجهود نفر من الرواد الأوائل ومنذ ذلك الحين توالت الدعوات إلى إقامة سيكولوجية عربية. إلا أن غالبية تلك الدعوات انطلقت من دراسة وتحليل الشخصية العربية بدلاً من تركيز البحث على المقولات الأولية لهذا العلم ومداخله الأساسية كالاختيار النفسي والمصطلح النفسي والطب النفسي ومنهجية تدريس العلوم النفسية في معاهدنا وجامعاتنا.

هذا الكتاب هو أفكار أولية تدعو إلى توسيع حلقة النقاش حتى تشمل وجهات النظر المختلفة بعيداً عن الأسر العقلي وعن التمرد النرجس.